المقدمة

في الأسماء والصفات الحسنى

تأليف

الأستاذ الدكتور

عقيل حسين عقيل

2008

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن البحث في أسماء الله الحسنى، لم يكن حصراً على جيل دون جيل ولا زمان دون آخر، وإنما هو مطلق لكل عصر وجيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأسماء الله الحسنى التي وردت في الحديث الذي اعتمدناه في الكتاب جاءت في القرآن الكريم إما نصا بالاسم أو بالصفة أو بدلالة الفعل أو أحد المشتقات أو أنه لم يرد وثبت بنص الحديث.

وطالما أن الأمر كذلك فهي في كتاب الله تعالى الذي وصفه صلى الله عليه وسلم بقوله: "إن هذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا من مأدُبة الله ما استطعتم، إن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور البين والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاء لمن تبعه لا يعوجّ فيقوَّم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد"[1].

ولأن القرآن لا تنقضي عجائبه ولا يبلى، فأسماء الله لا تنقضي نعمها ولا تبلى صفاتها، فإن كانت نِعَمُه لا تحصى، وأسماؤه هي التي تنعم علينا بهذه النعم، فكذلك أسماؤه لا تُحصى، وقد فصَّلنا القول في هذه الجوانب في متن الكتاب.

وأما قضية التعريف والتنكير للأسماء الحسنى فقد أخذت منا حيزاً مهماً في البحث الذي خَلُص إلى أن (ال) ليست للتعريف وإنما جزء من الاسم وليست للتفخيم ولا للتعظيم كما ورد في كتب التراث من النحو والمعاجم والتفاسير التي بنيت عليها، وإنما هي أعلام للذات الإلهية سواء مقترنة بـ(ال) أم مجردة منها.

ولقد عمد هذا البحث لإثارة مجموعة من القضايا الفكرية في إظهار العلاقة بين الخالق والمخلوق من خلال خصوصية كل اسم بما يدل عليه وشمولية الاسم الواحد لبقية الصفات بالأدلة المنطقية من المنقول والمعقول.

---
[1] مصنف ابن أبي شيبة ج 7 ص 165.

فإن كان البحث هو النتيجة التي توصل إليها الكتاب فإنه كذلك يطرح بين ثناياه من القضايا الإنسانية الذاتية والموضوعية وما يتعلق بكل جانب وما يترتب على هذه العلاقة من نتائج بين الإنسان وخالقه تشمل الحياة الدنيا والآخرة.

وإذا كانت النية هي ركيزة الانطلاق فلابد أن يكون لها متممات تصل بمن عقد النية إلى النتائج من خلال القول الذي يترتب عليه عمل حتى يصبح سلوكاً عاماً في شخصية الفرد ليكون منهاجاً للآخرين.

وعلى هذا لابد من التدرج في المراتب وصولاً إلى النتائج التي تؤدي إلى الاستخلاف في الأرض عندما يتحقق للإنسان استمداد صفاته من صفات خالقه ومن أسمائه الحسان بالقول والعمل، فتكون المراحل على النحو التالي:

1- التهيؤ: موقف ذاتي اتجاه القضايا الخارجية يتوقف على مستوى ملكات العقل، وبما أن الملكات العقلية متفاوتة من شخص لآخر من حيث القدرات، ومتباينة من حيث الأفكار والمعلومات، التي تعتبر أساس البحث في مفهوم التهيؤ، لذلك يكون الاختلاف في التصورات لدى الناظرين فيه وفق ما يحمل هذا الناظر أو ذاك من أفكار تنجلي له تصورات التهيؤ في نفس المتهيئ لمن يريد أن يقف على التهيؤ، وهذا لا يغير من التهيؤ شيئا، بمعنى أن التصور لحقيقة ما لا يغير من حقيقتها وإن أوقفت على حقيقة ما يُعتقد من تلك الحقيقة.

2- الإرادة: قرار بالإقدام على أمر أو الإحجام عنه وفق معطيات معينة يحددها المريد على ضوء ما استجمع من معلومات قبل اتخاذ القرار، وامتلاك الإنسان الإرادة يعني امتلاكه الحرية، فالإنسان هو مريد ضمن دائرة النسبية، وطالما أنه مريد فهو في حالة اختيار، وهذا الاختيار هو مدعاة لتحمَّل الإرادة مسؤوليتها بشقيها الدنيوي والأخروي.

3- الاستعداد: الاستعداد حالة من التحفز الذاتي عقليا ونفسيا واستحضارِ الأسباب المادية التي تؤدي إلى نجاح الفعل بعد اتخاذ الإرادة قرارها، في تأمين هذه الوسائل والأدوات من التنظيم وحساب الزمن والجهد، والاستعداد العقلي والفكري والنفسي والمادي. فكل هذه الأمور تدخل في مجال الاستعداد العام للحدث.

4- الفعل: حدث يقع في زمن معين من فاعل على مفعول في زمان ومكان بسبب مفعول لأجله بهيئة الفاعل أثناء عمل الفعل (الحال)، والفعل إمّا ماضٍ انتهى زمن حدوثه، أو أمر سيقع في المستقبل القريب بالتحديد، أو مضارع يحدث الآن ويأخذ حيزا من الماضي والحاضر والمستقبل، أو المستمر الذي يأتي بصيغة أسم الفاعل.

5- مترتبات على الفعل: إن لكل فعل متطلباته من الأسباب والنتائج والأهداف، وهي تحتاج إلى أدوات من أجل الوصول إليها، وهذه الأدوات هي الوسائل الممكّنة من الهدف في زمانها ومكانها التي تقع فيه، لذلك وجب للفعل فاعل وهدف ووسيلة ومفعول وزمان ومكان، فهذه مترتبات على الفعل.

وهذه المراحل التي قدمنا لها، وبالعرض المنطقي الذي سيجده القارئ في نفسه ليس في الكتاب فقط وإنما من خلال ما تستفزُّ هذه المراحل في كل إنسان، لأنه لا يخلو أحد إلا وهو آخذ منها بحظٍ قلّ أو كثر، فمنها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب، فإن كانت مُعطَّلة لابد وأن تعمل بعد قراءة البحث، وإن كانت عاملة فإن البحث سيثريها ويجعلها على الجادة التي يجب أن تكون عليها، لأن هذه المراحل التي يحمل كل إنسان جزءاً منها سيجد نفسه متفقا مع ما ذهبنا إليه في معالجة هذه القضايا والرؤية التي توصلنا إليها من خلال البحث.

وورد في بحثنا ما يمكن الاتفاق عليه من قضايا كلية تثير تساؤلات كثيرة كانت الأجوبة عليها وافية من خلال التحليل العلمي والمنطقي لا من خلال التفسير اللفظي.

ومع هذا فالبحث لا يخلو مما يمكن الاختلاف حوله، وهذا الاختلاف الذي قد يكون في الجزئيات سيكون من أجل تطوير البحث وإثرائه مصداقا لقول الله تعالى: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[2] فإن كان الاختلاف في الجزئيات فذلك يعود إلى النفس البشرية التي تختلف حول الجزئيات، أما التوافق فسيكون في الكليات التي لا تختلف حولها العقول.

فالقارئ لن يجد في كل الأحوال عرضا تفصيليا للجزئيات إنما سيجد نقاشا للأفكار الكلية وليس للموضوعات الجزئية التي تدور تساؤلات حولها:

---

[2] يوسف76

- ما علاقة الإسلام بالإيمان وأيهما أسبق؟

- كيف تترتب نتائج الأفعال على المتهيئات؟

- ما الفعل، وما المترتبات عليه؟ وما الزمن؟

لقد كانت الإجابة على هذه التساؤلات طرحاً بيننا وبين القارئ، من خلا ل دراسة العديد من وجهات النظر المتفقة والمتباينة، ونحن نطمح أن نضع عقل القارئ على طريق التحليل والاستنباط وقبول ورفض الأفكار دونما أغلال على العقل.

وهنا تكمن أهمية البحث لأنه يحمل وجهات نظر مختلفة تم الرد على بعضها وتقويمها، والاتفاق مع بعض منها، ورفض البعض الآخر، ليس للرفض ذاته وإنما لمخالفتها منطق العقل.

ومن هنا خرج البحث فكرا جدليا يُفضي إلى حقائق عقلية في استكشاف بعض الجوانب التي لم يلقَ عليها الضوء، وكان في ذلك دعوة لإعادة النظر في الموروث برؤية جديدة معاصرة تفضي للكشف عن حقائق جديدة، وإن كنا ننطلق من الموروث نفسه إلا أننا لا نسلم به في كل شيء، وهذه سمة العمل الناجح على ما نعتقد في البحث والتمحيص والتدقيق والاستنباط على منهج سليم يحتاج إلى صبر واستشارة وموازنة للوصول إلى النتائج المرجوة.

لقد عمدنا في اقتباس نصوص البحث إلى كتاب الله مصداقاً لقوله تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}3، وإلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه الله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}4.

وكما قال الإمام مالك: "كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم"5.

[3] فصلت 42

[4] النجم 3-4.

5 كشف الخفاء ج 2 ص 119.

الباب الأول

في الأسماء والصفات الحسنى

أسس العقيدة:

إن البحث في أسماء الله الحسنى من أسس العقيدة، ومن تمام الإيمان به تعالى، فالإيمان به تعالى أصل كل أصل ومصدر كل فرع، ولذا فالضرورة تستوجب التعريج على أسس العقيدة من حيث:

التوحيد.

الإيمان.

الإسلام.

أولا: التوحيد: التوحيد المطلق لله تعالى من خلال:

1 – اليقين التام بأنه لا إله إلا الله مصداقا لقول الله تعالى: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}6.

2 – الاعتراف بتفرد الله بصفات الكمال، والإقرار بتوحُّده بصفات العظمة والجلال وإفراده وحده بالعبادة، فيقول الإنسان: {إياك نعبد وإياك نستعين}[7] والتوحيد الذي هو الأس الأول للعقيدة ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ . توحيد الأسماء والصفات:

وهو اعتقاد انفراد الله– جل جلاله– بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، يقول الله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}8 .

– والعبد المؤمن بالله ربا واحدا أحد موحدا له في أسمائه وصفاته وإلهيته وربوبيته يقول مؤتمرا بما جاء في الكتاب الكريم: {هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا}9، وينزهه بما قال جل جلاله: {سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}10، ويرتقي في التوحيد مخلصا الوجه والقلب لله مصداقا لقوله

---

[6] طه 14.
[7] الفاتحة 5.
[8] الحشر 22-24.
[9] الكهف38.
[10] الزمر 4.

تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}11، وهذا بإثبات ما أثبته الله لنفسه بشأن التوحيد.

– يقر بما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:" أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ"12.

– ومن التوحيد نفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

ب . توحيد الربوبية:

بأن يعتقد المسلم أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربَّى جميع الخلق بالنعم وربَّى خواص خلقه– وهم الأنبياء وأتباعهم– بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، وهذه هي التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين.

والله سبحانه أنزل الكتب وأرسل الرسل؛ ليُعْبَدَ وحده لا شريك له، وليبيِّن حقه على عباده، ويذكر للعباد ما هو موصوف به سبحانه من أسمائه الحسنى وصفاته العلا، ليعرفوه جل وعلا بأسمائه وصفاته وعظيم إحسانه وشأنه، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، وما ذاك إلا لأن توحيد الربوبية هو الأساس والأصل لتوحيد الإلهية والعبادة؛ فلهذا بعثت الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنزلت الكتب السماوية من الله عز وجل لبيان صفاته وأسمائه، وعظيم إحسانه، وبيان استحقاقه أن يعظم ويدعى ويسأل جل وعلا وحده، حتى تخضع الأمم لعبادته وطاعته، وحتى تنيب إليه وهذا يؤيده كتاب الله عز وجل، في قوله تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ

---

11 الإخلاص 1-4.

12 موطأ مالك ج 2 ص 150.

فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}13 ، لا شك في الله فهو الله لا إله إلا هو، وصدق الله إذ أخبر عن حال نبيه صلى الله عليه وسلم العابد لله على وجه الكمال: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}14 .

وهذا يدخلنا في النوع الثالث من التوحيد وهو توحيد الله بالعبادات بالتوجه له وحده فهو الله لا شريك له الواحد الأحد المعبود الحق، الفرد الذي لم يلد ولم يولد.

ج . التوحيد بالعبادة (توحيد الإلهية):

فلا معبود بحق إلا الله ولا توجه بنية ولا فعل ولا عبادة إلا لله الواحد الأحد مصداقا لقوله تعالى: {إياك نعبد}15، فالعبادة عبارة عن الإتيان بالفعل المأمور به على سبيل التعظيم للآمر الذي أمنا به إلهاً واحداً خالقا للكون قادراً على مقدورات لا نهاية لها، عالماً بعلم لا نهاية له، غنياً عن كل الحاجات، الذي أمر العباد ببعض الأشياء وهي خير لأنفسهم وسماها (المعروف)، ونهاهم عن بعض الأشياء وهي شر لهم وسماها (المنكر)، فوجب على الخلائق طاعته والانقياد لتكاليفه لأنفسهم لا له، لأنه سبحانه لا يزيد في ملكه بطاعة طائع ولا ينتقص من ملكه بمعصية عاص، فعطائه أمر (كن) ومنعه أمر (كن) وكلامه حق مطلق، وله من في الأرض وما فيها ومن في السموات وما فيها ولا يقتصر ملكه على السموات والأرض بل هذا من ملكه ولا يعلم مقدار ملكه إلا هو قال الله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}16 .

---

13 إبراهيم 10.
14 الأنعام 161- 164.
15 الفاتحة 5.
16 لقمان 25-28

وقال الله في الحديث القدسي: عن أبي ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله: يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته عليكم محرما، فلا تظلموا العباد، يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، فاستغفروني، فإني أغفر لكم الذنوب جميعا ولا أبالي، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم ، وجنكم وإنسكم، وصغيركم وكبيركم، كانوا على قلب أفجركم، لم ينقص من ملكي شيئا، ولو أن أولكم وآخركم، وجنكم وإنسكم، وصغيركم، وكبيركم، سألوني فأعطيت لكل رجل منهم مسألته، لم ينقص ذلك مما عندي شيئا، كرأس المخيط يغمس في البحر"17 .

فكلمة (إياك نعبد) على إيجازها فإنه لا يمكن القيام بلوازمها إلا بعد معرفة التكاليف المتصلة بها وبيان أنواع الأوامر والنواهي المترتبة عليها، لأن جميع ما صنف في كتب الفقه يدخل فيه تكاليف الله، ولأن الإيمان بـ(إياك نعبد) والعلم بأنها ليست لنا فحسب بل لكل مكلف من ملك وجن وإنس، فيدخل فيها كل التكاليف التي كلف الله بها ملائكته في السموات منذ خلق الملائكة وأمرهم بالاشتغال بالعبادات والطاعات، فهي مشتملة على التكاليف المتوجهة لأعمال الجوارح، والتكاليف المتوجة لأعمال القلوب، وهي التي تشتمل عليها «كتب الأخلاق»، و «كتب الفقه» وإذا اعتبر الإنسان مجموع هذه التكاليف وجميع هذه التصانيف وعلم أنها بأسرها داخلة تحت قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) علم حينئذٍ أن الأمر الذي اشتملت هذه الآية عليه جد خطير فهو كالبحر الخضم الذي لا تصل العقول والأفكار إلا إلى القليل منه.

ثانيا: الإيمان:

الإيمان يؤسس له بتخلي العبد عن كل ما هو باطل، والالتصاق بكل ما هو حق، وهذا يجعل الإنسان يرفض كل ما يناقض العقل فيتحرر من تعدد الباطل المتمثل في (أسماء آلهة وأرباب) مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}18، وقوله تعالى:

---

[17] مصنف عبد الرزاق - ج 11 ص 182.
[18] النجم 23.

{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[19] وينفى الباطل بكلمة واحدة:(لا إله).

ثم يدخل الإنسان حصن الحق الذي لا يأتيه الباطل بكلمة تُثبِّت الحق: (إلا الله) اقتداء وإئتساءً بـ(محمد رسول الله). فتجتمع شهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فينفى الإنسان باطلا لا أساس له، ويثبت حقّا هو الأساس، ليثبت به في الدنيا والآخرة باجتماع نفيه واستثنائه (لا إله إلا الله) ولا يكتمل تحقق ذلك إلا بإغلاق باب النبوة على خاتمها (محمد رسول الله) فلا إله إلا الله مفتاحها محمد رسول الله، ولا إله إلا الله حصن المؤمن، وهذا الحصن إن دُخل أمن من فيه بمن فيه، قال الله تعالى في كلمة الثبات والإخلاص الكلمة الطيبة: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[20]، فكلمة الإيمان تنبت أحسن الشجر و تثمر أطيب الثمر، وتصل بين العبد وربه وتدخله مدخل الصدق في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أما كلمة الكفر فهي خبيثة لا أصل لها تُجتثُ، وصاحبها ليس لها في الأرض قرار إنما قرارها جهنم وبئس المصير.

{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}[21].

أثر الكلمة الطيبة:

{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}[22]، ففيها الثبات والأمان وهذا ما أكده النبي صلى الله عليه وسلم فعن علي بن

[19] يوسف 40.
[20] إبراهيم 24-25.
[21] إبراهيم 26.
[22] إبراهيم 27.

أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقول الله تعالى: لا إله إلا الله حصني فمن دخله أمن عذابي"23 .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا معاذ بن جبل ما من احد يشهد أن لا اله إلا الله وأنى رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار قال يا رسول الله أفلا اخبر الناس فيستبشروا قال إذاً يتكلوا"24.

فهذه الكلمة التي تصلح وتثمر لأنها زرعت في قلب خصب رضي بالتوحيد أصلا وبالإيمان يقينا وبالإسلام عملا وشريعة، أمّا من مال وغيّر فهو كالأرض البور التي لا تصلح لأنها بور لا يثمر فيها إلا الخبيث وقد صورهم الله بقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارِ}25.

لماذا يدخلون النار؟

لأنهم كما قال الله تعالى: {جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ} فأهل البور كفروا وأثبتوا المنفي وادعوا أن هناك أندادا لله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فيقول الله لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: {قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ}26.

والإيمان بالله يتبعه سلسلة من الإيمان كلها غيب، ومن يؤمن بعلّام الغيوب الله جل وعلا وما أمرنا أن نؤمن به يدخل في فريق (المؤمنون المتقون المفلحون) الذين بالله ورسوله وكتابه المنزل على نبيه عن طريق الملك جبريل قال الله تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}27 .

23 مسند الشهاب القضاعي ج 5 ص 167.
24 كنز العمال - ج 1 ص 47.
25 إبراهيم 28-29.
26 إبراهيم 30.
27 البقرة 1-5.

وهذا الغيب هو شهادة عند الله ، أشهدها لبعض خلقه، وأشهدهم عليها، قال الله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}28

وبعد اليقين بالغيب يأتي الإيمان، يقول الله تعالى: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرِ}29.

ومن هنا يمكن أن نبيّن مراتب الغيب:

الملائكة.

كتبه.

رسله.

وزاد النبي صلى الله عيه وسلم بقوله:

"أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ

وَمَلَائِكَتِهِ

وَكُتُبِهِ

وَرُسُلِهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"

وهذا ورد في الحديث الذي يؤكد أن جبريل وهو من عالم الغيب قد جاء إلى عالم الشهادة على مرأى ومسمع من الصحابة ليعلمهم دينهم .

فعَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ فَوَفَّقَ اللَّهُ لَنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ دَاخِلًا فِي الْمَسْجِدِ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ

28 آل عمران18.

29 البقرة285.

فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ وَالْأَمْرَ أُنُفٌ فَقَالَ إِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَهُمْ بُرَآءُ مِنِّي وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ قَالَ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ:"بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا نَعْرِفُهُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا قَالَ أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ يَا عُمَرُ هَلْ تَدْرِي مَنْ السَّائِلُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ"[30] .

ثالثا: الأساس العملي (الإسلام):

ونقصد بالأساس العملي الجانب التطبيقي لما آمن به الإنسان ويظهر ذلك في العبادات التي هي أركان الإسلام، لأنه في العقيدة لا إيمان بلا إسلام وعليه فلا يظهر الإيمان إلا أركان الإسلام، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"[31]

---

[30] سنن أبي داود ج 12 ص 306.

[31] صحيح البخاري ج 1 ص 11.

وأركان الإسلام هي التي لابد من إقامتها ليتحقق الإيمان في قلب الإنسان، وعليه فالإسلام يسبق الإيمان عند البعض، والإيمان يسبق الإسلام عند بعض آخر، وقد يتوحدا في آن واحد، لأنهما في دائرة واحدة يمكن أن تبدأ من أي نقطة فيها فتكون هي البداية في الوقت نفسه يمكن أن تكون هي النهاية، مثل المسبحة فأي حبة فيها يمكن أن تكون البداية والنهاية في آن واحد، ونعتقد أنه من المهم الوقوف مع هذا الموضوع لنتساءل:

هل الإسلام يسبق الإيمان؟

أم الإيمان يسبق الإسلام؟

أم الإيمان والإسلام متلازمان؟

كل هذه التساؤلات صحيحة، فالإسلام يسبق الإيمان في حالة من يدخل الدين استسلاما، ثم يدخل الإيمان في قلبه إرادة، وهذا الأمر متحقق في حالة الأعراب الذين دخلوا الإسلام بعد أن انتشر واشتد عوده، فأسلموا وامتنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم دخلوا الإسلام، وزاد الأمر على ذلك بأنهم قالوا آمنا، ولكن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فأوضح الأمر لنبيه ورد عليهم في الحالتين بقوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[32].

ويمكن تقسيم الآيات السابقة إلى أربعة محاور:

الأول: قول الأعراب (آمنا)

الثاني: الرد عليهم:

[32] الحجرات-14-18

الثالث: الامتنان بالإسلام، ورد منَّهم عليهم.
الرابع: التعريف بالمؤمنين.
الأول: مفاده أن الأعراب قالوا (آمنا) من الأمان وليس من الإيمان ليأمنوا على أموالهم وأنفسهم.
الثاني: رد الله عليهم بأن طلب الأمان غير الإيمان.
وتوضيح ذلك في الآتي:
(قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ) نزلت في أعراب جهينة، ومزينة، وأسلم، وغفار وأشجع كانت منازلهم بين مكة والمدينة، فكانوا إذا مرت بهم سرية من سرايا النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : آمنا ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، وكان يومئذ من قال : لا إله إلا الله يأمن على نفسه وماله، فمر بهم خالد بن الوليد في سرية النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: آمنا، فلم يعرض لهم، ولا لأموالهم، فلما سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية واستنفرهم معه، فقال بعضهم لبعض: إن محمداً وأصحابه أكلة رأس لأهل مكة، وأنهم كلفوا شيئاً لا يرجعون عنه أبداً فأين تذهبون تقتلون أنفسكم؟ انتظروا حتى ننظر ما يكون من أمره، فذلك قوله في الفتح: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً}[33].
فنزلت فيهم: (قَالَتِ الأعراب آمَنَّا) يعنى صدّقنا، (قُل لَّمْ) يا محمد: (قُل لَّمْ) لم تصدقوا (تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا) يعنى قولوا أقررنا باللسان، واستسلمنا لتسلم لنا أموالنا (وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان) يعنى ولما يدخل التصديق (فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ) في قتال أهل اليمامة[34].
قوله تعالى: (قَالَتِ الأعراب آمَنَّا) لما قال الله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ}[35]، والاتّقاء لا يكون إلا بعد حصُول التقوى وأصله الإيمان والاتِّقاء من الشِّرك قالت الأعراب يكون لنا النسب الشريف يكون لنا الشرف، قال الله تعالى ليس الإيمان بالقول إنما بالقلب، فما آمنتم فإن الله خبير بعلم ما في الصدور ولكن قولوا أسلمنا أي أنْقَدْنَا وأَسْلَمْنَا. قيل: نزلت في نَفَرٍ

---
[33] الفتح 12.
34 تفسير مقاتل ج 3 ص 359.
[35] الحجرات 13.

من بني أسد بن خزيمة، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سَنةٍ مُجَدِبَةٍ، فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر طالبين الصدقة فأفسدوا طرق المدينة بالقاذورات وكانوا يغتدون وَيُروحُون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: أَتَتْكَ العرب بأنفسها على ظهور رَوَاحِلِهَا، وجئناك بالأثقال والعِيَال والذَّرارِي ولم نُقاتِلكَ كما قاتَلَكَ بنُو فلان يَمُنُّون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويريدون الصدقة، ويقولون أَعْطِنَا ، فانزل الله تعالى فيهم هذه الآية .

وقال السدّي: نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الفتح وهم جُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ وأَسْلَمُ، وأَشْجَعُ وغِفَار وكانوا يقولون: آمنَّا ليأمَنُوا على أنفسهم وأموالهم فلما استنفروا إلى الحديبية تخلفوا فأنزل الله تعالى: (قَالَتِ الأعراب آمَنَّا) صدقنا (قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا) أنقَذْنا واسْتَسْلَمْنَا مخافَة القتل والسَّبْي36.

الثالث: الامتنان بالإسلام والرد عليه:

رد المنة عليهم (بل الله يمن عليكم) لأن النعمة من الله والفضل يعود إليه لهدايتهم إلى الإسلام وعدم محاربة النبي صلى الله عليه وسلم.

أما المؤمنون فيعرفهم الله بقوله:

1- {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}37.

2- {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}38.

3- {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ

36 تفسير اللباب لابن عادل ج 14 ص 328.
36 المؤمنون1 -11 .
37 الأنفال4.
38 الأنفال 74.

غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }39.

4-{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }40، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}41.

5- {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}42 .

لذا فالصلاة وهي من أركان الإسلام تأتي بعد الإيمان بالله لقوله تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}43، وكذلك بقية الفرائض، مع العلم بأن الفروض من أركان الإسلام، بدليل أن الإنسان لو لم يفعل أي منها لا يسقط عنه الإسلام إلا إذا أنكرها كالمرتدين الذين أرادوا أن يمتنعوا عن الزكاة.

- ومن المعلوم أن القاعدة: (الإيمان بالله ثم الإسلام لله) فالإنسان يسلم لمن آمن به وليس العكس.

أما المنافقون فهم يدعون كذبا فلا إسلام لديهم ولا إيمان فهم منافقون وهم الذين قال الله فيهم: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}44 قال قتادة: هذه الآية نعت المنافق، يعرف بلسانه، وينكر بقلبه، و يصدق بلسانه ويخالف بعمله، ويصبح على حالٍ ويمسي على غيرها، ويتكفأ تكفأ السفينة، كلما هبت ريح هب معها45.

- والإسلام يسبق الإيمان في حال من أسلم استسلاما لا إسلاما، ومن يفعل ذلك يقل أنا مؤمن مثل حالة الأعراب لأنهم لم يدخلوا الإسلام بل أسلموا خوفا على الأموال والأولاد، وليس

---

40 النور62.
41 الحجرات 10 .
42 الحجرات 15.
43 النساء 103.
44 البقرة 8.
45 زاد المسير ج 1 ص 16.

انقيادا وطاعة لله لأنهم لم يؤمنوا به، وأما فأبناء المسلمين قبل سن التكليف فإنهم مسلمون قبل أن يدخل الإيمان إلى قلوبهم.

-والإيمان يسبق الإسلام في حالة مثل حالة سيدنا عمر لمّا سمع كلام الله تصدّع قلبه لقول الحق فآمن ثم ذهب للنبي ليعلن إسلامه. وكذلك من بعده الكثيرين وهم الذين يقرؤوا القرآن فيؤمنوا بما جاء فيه ثم يتجهوا لإعلان إسلامهم به، أي هم الذين آمنوا بأنه الحق تم قرروا إيمانا اتباع الحق، ولذا فمن يؤمن بأن العدل حق ما عليه إلا اتباعه، ومن يؤمن أن الشورى حق فما عليه إلا اتباعها، ومن يؤمن بأن الصلاة حق فما عليه إلا إقامتها، وهكذا من يؤمن بأن الزكاة حق فما عليه إلا إخراجها، وعليه من يؤمن بأن القرآن حق ليس عليه إلا الاهتداء به في كل سبيل، ولذا لو لم يؤمن العباد ما أعلنوا إسلامهم، ولهذا فالإسلام هو اتباع الحق قولا وسلوكا إما الإيمان فهو التسليم بالحق.

-وقد يتزامن الإسلام مع الإيمان والعكس في حالة مثل الأنبياء فهم مؤمنون مسلمون ومسلمون مؤمنون في آن واحد، وحتى قبل إعلان نبوتهم والأمر بالتبليغ بها فقال الله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}46.

وعليه فالقاعدة: (الإيمان هو التسليم بالحق، والإسلام هو اتباع الحق)، ولذا فلا مسلمات موروثة من أن الإسلام سابق على الإيمان أو غير ذلك، فالنص القرآني بحر علم وما أخذ منه إلا كوضع المخيط في الماء فلا أخذ المخيط ولا نقص الماء.

وعليه فالعلم بأسماء الله يؤسس على الإيمان الحق والإسلام الحق، والعقيدة الراسخة، ويفتح طريقا للمعرفة للوصول إلى الحق، ولكن هناك من الحُجُب التي تَحْجُبُ رؤية طريق معرفة الحق للوصول إليه ومنها: القصور في فهم أسمائه تعالى، فكيف نصل إليه دون معرفته؟ ولإسفار ما حُجِبَ وجب علينا فهم أسمائه وصفاته للوصول إلى معرفته ومعرفة مراده فينا وفي خلقه، ومنا جميعًا.

---

46 آل عمران 39.

ولعل من الواجب ذكر الدافع الحقيقي لتأليف هذا الكتاب، فقد استثار الفكر وحرك رغبة البحث ودفعنا إلى الولوج في مكامن دلالات الأسماء الحسنى نظرة في قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}47، نظرة أثارت ركود الظن وفكت قيد الغفلة فأنطقت لسان التساؤلات ليقول:

أيتفق مطلق اليقين (جاعل) مع عموم التنكير (خليفة)؟

أيمكن أن تقوم النكرة (خليفة) بتمام الدلالة عن الماهية؟

أتضفي النكرة (خليفة) إيحاءً معرفيا لليقين (جاعل)؟

أيأتلف إشراق اليقين (جاعل) مع ضبابية التنكير(خليفة)؟

لاشك أنها تساؤلات موجبة للبحث والاستقصاء للوصول إلى أقواس الحقيقة، وسعينا سعياً حثيثاً لبلوغ أبعد مديات المعرفة ما مكننا الله، وقد وفقنا الله سبحانه وتعالى في تحقيق ما كنا نصبو إليه من توضيح الإعجاز في اختياره الله سبحانه للفظة خليفة في سياق اليقين (جاعل) من خلال التعريف بملامح الخليفة المعني بالاستخلاف في الأرض، كما تَوضحَ جليا بعض ملامح الإعجاز في لفظة خليفة، ففي تنكير خليفة إثارة لعقل المؤمن وقلبه للبحث عن المعرفة والوصول إلى حقيقتها حتى تتحقق الخلافة الحق، فالخليفة يُعرف بصفاته، وصفاته لا تلتصق به إلا إذا استمدها من خالقه، وقد توصلنا بحمد الله ومن خلال البحث في الأسماء الحسنى إلى الصفات التي تفضي إلى التعريف بالخليفة.

ونستشعر موقنين أن التنكير مقصود لغاية إعجازية تتمثل في معادلة مفادها أن باب الاستخلاف مفتوح بالمطلق لكل العباد (عموم)، لكن الدخول مقتصر على من شاء، فهو مسألة إرادية (لا إكراه في الدين)، فالإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم خصه بالمقدرة على التمييز الذي يتيح الاختيار بين موقع الاستخلاف وضياع الإفساد.

---

[47] البقرة 30.

ومن دلالات التنكير أن مهمة الاستخلاف عامة، فهي غير محصورة بالخليفة الأول (آدم)، وإنما هي مهمة كُلف بها آدم ومن بعده ممن يسعى للتخلق بصفات الأسماء الحسنى، فالمستهدف المجموع وليس الفرد، فمن جميل التناسب ورائع الانسياب أن تأتي اللفظة مُنكّرة لتناسب السياق المعجز.

كما أن النكرة آية من العليم سبحانه وتعالى، فهو يعلم جل شأنه أن هناك من بني آدم من سينتهج سبيل الخلافة وهناك من يتركها ليعمل بعمل الشيطان وهؤلاء لا يمكن لهم أن يتصفوا بصفات خلائفية، فالنكرة في هذا السياق تعبر عن ائتلاف مطلق بين اليقين (جاعل) والتنكير (خليفة).

وحتى نصل مطمحنا ألزمنا أنفسنا بالنظر تحليليا لا تفسيريا في آيات الله المنبثقة عن أسمائه في خارج النفس (الآفاق) وفي داخل النفس (الْخَلْقِ، والأخلاق) بمعنى أن ننظر في أفعال الله الكونية (في الخارج) والتكوينية في (الداخل) ولنُبصرَ لأنفسنا طريقا للحق لنجلوَ رؤيةً.. ونحدد هدفاً .. ونسلك سلوكاً، ولنبصر لجوارحنا عملاً بمنهج. لنحقق خلافةً.

ونفي بعهدٍ _ عُبَاداً لرب وعُمَّاراً لأرض _ وننظر مصيراً نرث فيه ثمرة ما أسلفنا من خلافة في الخوالي لنبقى في الخلد الذي وعدنا الله إياه.

ونقدِّم لغيرنا أنموذجا أمثل، ومثالاً أفضل، وحلاً أشمل، وصدقا في تغيير إلى ما ترنو إليه الأنفس والأرواح.

والله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته، وكماله عين ماهيته، وماهيته غير قابلة للإدراك والغاية، فهو سبحانه يدرك ماهيته ويُدْرِكُ أنها لا تُدْرَكُ لغيره، فهذا ما يليق بكبريائه وعظيم شأنه وعدم انتهائه وقدره الذي لا يُرَامُ، فلا يُدْرِكُ ذَاتَه إلا ذاتُه، لأن له كمال الإدراك والإحاطة، وهذا ما يقتضيه علمه وينتفي فيه الجهل الذي يثبت لغيره، ففي حال غيره يستحيل الإحاطة والإدراك لما لا نهاية له، فإدراك ما لا نهاية له محال، حيث إن إدراكه سبحانه لماهيته حكمي لاستحقاقه شمول العلم وعدم الجهل بنفسه، وهذا يعني أن ماهيته لا تقبل الإدراك من غيره بوجه من الوجوه.

فالله سبحانه وتعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}48 سواء ذلك في المشاهدة أو الإحاطة، فالبصر حاسة النظر التي تشاهد الأشياء، والإدراك هو الوصول إلى الشيء من حيث الإحاطة به، ولهذا لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به، وهو يدركها و يحيط بها علما وقدرة، والإدراك غير الرؤية البصرية، لأن الإدراك هو الوقوف على حقيقة الأشياء وكنهها وطبيعتها مع الإحاطة بها، وأما أن الإنسان يدرك الخالق عز وجل، فإنما يدركه لا من حيث الإحاطة، وإنما هو إدراك لصفات الله تعالى من خلال آياته في الخلق، فهنا تصبح المسألة معرفة لإثبات وجود الخالق بدلائل الخلق لا عن طريق البصر ولا من جهة الإدراك، وإنما يكون إدراكه بالوسيلة التي أمر بها بقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}49، فيكون الإدراك عن طريق العقل عند التأمل في عِظَم خلق السماوات والأرض، والذي أدرك عِظَم خلقهما عن طريق عقله، وعجز عن الإحاطة بهما، فلا بدَّ أنه عن الإحاطة بخالقهما أعجز من باب الإدراك، ويدخل في ذلك جميع البشر لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}50، فإن كان كلام الله تعالى للبشر كفاحاً محال في الدنيا، فإنّ الرؤية والإدراك أشدّ استحالة، ونحن الخلق من جنسٍ واحدٍ هي المادة، لا يستطيع أن يكلم نوع، نوعا آخر من جنس خلقه أو يفهم عنه إلا بسلطان، والسلطان هو النبوة مثل ما أوتي سليمان عليه الصلاة والسلام، وكذلك ما أوتي الملكان هاروت وماروت مصداقا لقول الله تعالى: {وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[51]، وذلك لأن المخلوق يخضع لقوانين الخالق في الخلق العام في الجنس، من العدم والإيجاد، والميلاد

---

48 - الأنعام 103.

49 - آل عمران 190

50 - الشورى 51

51 البقرة 102.

والحياة والموت والفناء والبعث والنشور، وقوانين الخلق الخاص في النوع من الشكل والهيئة والتصرف والطباع، فما بالك عندما اختلفت الماهية فأنّى للمقارنة بين الخالق والمخلوق؟، واختلفت التصورات في الواجب والممكن والمستحيل. ولما كان ذلك كذلك، استحال على الممكن أن يدرك الواجب.

الواجب: هو خالق الخلق ومالك الملك: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}52.

الممكن، الذي يستوي فيه الوجود والعدم: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}53، فخلق السماوات والأرض مستوٍ مع إعدام خلق مثلهم، لذلك يكون الممكن للواجب وجوده وعدمه سواء.

المستحيل: الذي لا يمكن وجوده: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}54.

ونحن نضيف إلى هذه التصورات، تصورا آخر وهو الممكن المستحيل، فكيف يكون ممكناً؟ وكيف يكون مستحيلاً في آنٍ معاً؟

نقول: إنه ممكن في دائرة القدرة، ومستحيل في قضاء المشيئة حيث قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}55 وكذلك قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}56 فأفعال المشيئة ليست مانعة للقدرة، ولا تتعارض معها، وإنما هي مؤكدة لوجودها بالقوة مع قيد قضاء المشيئة عليها بعدم إخراجها إلى الفعل، لوجود فعل العدم في المشيئة، وعلى هذا فالممكن موجود بالقوة في دائرة القدرة، والمستحيل وجود بالفعل في دائرة المشيئة، وقضاء المشيئة لا ينافي القدرة، لذلك بقي الممكن قدرة بالقوة والمستحيل مشيئة بالفعل.

---

[52] - الحشر 24

[53] - يس 81.

[54] - الأنبياء 22.

[55] - المائدة 48.

[56] - يونس 99.

فالله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته، منزه عن إدراك خلقه له أو رؤيتهم إياه، وقد ورد ذلك في أحاديث كثيرة، فعن مسروق رضي الله عنه قال: "كنت متكئا عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت ما هن قالت: من زعم أن محمدا -صلى الله عليه وسلم- رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال وكنت متكئا فجلست فقلت يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل (ولقد رآه بالأفق المبين) (ولقد رآه نزلة أخرى). فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض، فقالت أولم تسمع أن الله يقول (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) أولم تسمع أن الله يقول (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه على حكيم) قالت: ومن زعم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته). قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله)57.

وعلى هذا يدخل الرسول عليه الصلاة والسلام في عدم رؤية ربه لقوله تعالى: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}58

ولما كان للذات الإلهية الكمال المطلق، كذلك كانت صفاته وأفعاله، فإن كان المخلوق له بداية ونهاية، فالخالق تبارك وتعالى منزه عن ذلك لأنه قبل البدء وبعد الانتهاء، ولما كانت ذاته كذلك، استوجبت الذات أسماء تماثلها في الإطلاق، فالسلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الحق العدل، هي مطابقة الاسم للمسمى إحاطة، ولا يمكن احتمال النقص لأنها ليست صفات، ذلك أن الاسم أشمل وأثبت في الدلالة على المسمى من الصفة.

---

[57] - صحيح مسلم ج1 ص110

[58] - الإسراء 93

وعلى هذا فالحق والعدل هما بالمطلق، ولذلك يمكن أن نرى العادل ونتعرف عليه لأنه يمارس جزءً من العدل، فالعادل نسبي والعدل مطلق، وكون العادل نسبياً، استوجب أن يكون له أطراف بداية ونهاية، وعلى هذا فهو مخلوق وإنسان يمكن أن تجامله، ويمكن أن تنافق له، على العكس من العدل الذي لا يحتمل ذلك، لأنه العدل بذاته، والعدل بعينه، ولذلك فالعدل المطلق ليس طرفا ولا يمكن أن يكون كذلك.

أمُا على المستوى البشري، فيكون عادلا وليس عدلاً، وعلى مستوى التفكير البشري يداخله خلل في العدالة لوجود العاطفة والاتصاف بالنسبية، أمُا أسماء الله تعالى فيلازمها الإطلاق الذي يوجب عدم دخول الضد والمؤثر، ولذلك فالعدل لا يدخله ظلم ولا يداخله، ولا يقبل التناقض ولا الاختلاف، ولا يستوجب أن يكون اختلافاً معه، فإن كان خلاف، فإنه يفقده إمكانية الفاعل المطلق ويتحول إلى نسبي تكون مفعولاته غير متساوية، ولهذا فهي خصائص بشرية تتصف بالنسبية.

والله له الغنى المطلق والكمال التام، والمستوعَبُ من هذا الكمال ليس هو الكمال، بمعنى أن المُستوعَبَ عن الموصوف يقتضي أن يكون قابلا للقسمة والعدد، وهذا في حق المخلوق لا في حق الخالق، فالاستيعاب ليس هو نفس المُسْتَوعَبِ (في حق الله) وهذا لله وليس لسواه لأن الانقسام والتركيب في حقه سبحانه محال.

فصفاته لا يقال إنها ليست عينه وليست غير ذاته إلا من حيث ما نعقله نحن ونستوعبه من تعدد الصفات والأسماء أو ما يُتَوَهَمُ من تضاد.

فصفاتَ الله لا تدرك على حقيقتها الإلهية إطلاقا، فهو سبحانه كما وصف نفسَه في كتابه واحداً أحداً لا تَجْزُؤْه صفاتُه ولا تعدّدُهُ أسماؤه فهو: {اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا}59 و{هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}60 وهو{اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}61 و {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ

59 الكهف38.
60 سبأ 27.
61 الزمر 4.

الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}62 وهو كما أُمِرَ النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}63 فالفاعل واحد والفعل متعدد، وتعدد الفعل لا يعني تعدد الفاعل بل يعني أحديته المطلقة، وهذا هو عين التوحيد لا التعديد.

والدليل على ذلك قوله تعالى: (له الأسماء الحسنى)، والأسماء جمع، والحسنى صفتها وهي واحدة 64. لأن الذات واحدة وصفاتها متعددة وأصلها واحد (الله) لا إله إلا هو، فالمعروف أن الصفة تتبع الموصوف في العدد وفي هذه الحالة الموصف جمع والصفة مفرد (الحسنى) وليست الحسنيات أو الأحاسن، لأن أسماء الله للتوحيد وليست للتعديد.

والمعاني التي نريد إثباتها في أسماء الله لابد لها من قوالب فيها تصب، وقوالبها اللغة التي لا تفي لما يراد قوله وعما يستحق المقول فيه:

إن في التوحيد إحكام المثاني   عالم التوحيد بغيته المعاني

والمعاني في أكنتها رموز   فالمباني فيه صارت كالأواني

كلُّ معنى كلُّ مبنى فيه يفنى   صار أعلى ما علمنا عنه داني65

إن العلم الكلي في أسمائه وصفاته محال لأننا في دائرة البداية والنهاية، وهو سبحانه لا تحتويه بدايات ولا تحوطه نهايات، ولله در القائل:

ما البداياتُ والخواتمُ؟ سَلْنِي   أو فامْسِكْ فكلُّهنَّ ابتداءُ

عندما كان في البدءِ بدءٌ   حينها كانَ ما يكونُ انتهاءُ

فاستوى البدءُ والنهايةُ فيها   واستوى أمرها وذا الاستواءُ66

---

62 الحشر 24-22 .

63 الإخلاص1 4.

64 تفسير الطبري - ج 18 ص 275.

65 من ديوان شراب الوصل للإمام فخر الدين ص 190

66 السابق ص236

فاللغة من هذا المنطلق وعاء للمعنى وقد يكون الوعاء قادرا على استيعاب ما يوضع فيه، ولكن في حالة مثل بحثنا هذا في (أسماء الله) فهل من الممكن أن تستوعب اللغة معاني أسماء الله الحسنى؟ وهل من الممكن أن تستوعب اللغة المخلوقة خالقها؟

الإجابة بالطبع معروفة، ونحيلها إلى كل ذي عقل رشيد وفكر سديد.

فلا يصح أن نقول إن الرحمن مشتق من الرحمة، لأن الرحمن خالق الرحمة، فهذا إن صحَّ عند البعض على مستوى اللفظ لا يصحُّ على مستوى المعنى، وكذلك القدوس مشتق من القدس، والقدوس من القدس مع إنه من البديهي أن القدوس خالق القدس، وهذا في الأسماء التي هي من حيث البنية اللفظية مشتقات، أمّا ما يؤكد رؤيتنا أن هناك أسما لله قد جاءت بصيغة المصدر مثل (الحق) فهو سبحانه الحق، ولو كان الأمر أمر اشتقاق لجاء هذا الاسم مثلا (المحق) ولن لأنه لا حق غيره، ولأنه فاعل الحق جاء الاسم مصدرا. وهذا صورة معجزة للتطابق المطلق بين الاسم والذات.

وكذلك الاسم (العدل) مصدر وهذا لأن العدل في حق الله دائم في كل وقت، أمّا على مستوى الإنسان لو قلنا: إن هناك إنسان عادل، فلا يجزم أحد أيّا من كان أن يقرر أن هذا الإنسان يمكن أن يكون عادلا طوال حياته ماديا ومعنويا، ولكن الله لأنه العادل المطلق فقد سمّى نفسه العدل، فهذه صفة لم ولن يكن لأي أحد نصيب منها إلا على وجه النقص لأن العدل المطلق له وحده مصداقا لقوله تعالى:

{وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا}67 ليس مع النساء فقط كما يعتقد البعض، أو لنسأل إذا كنا مع النساء لا نستطيع العدل فكيف بنا مع غيرهم؟ فنحن في جميع المواقف لا نقدر على الإتيان بالعدل المطلق، وإلا ما فعل أخوة يوسف ما فعلوه وهم أبناء نبي، ولكن سيدنا يعقوب قد آثره عليهم، وهذا بالطبع معنويا وليس ماديا، أي فيما يملك من ماديات فقد عدل، أمّا في الجانب المعنوي فلا يمكن أن يتحقق العدل، ولكن نقول ميل وليس ظلم لأن الأنبياء لا يظلمون.

---

[67] النساء 129.

وقال الله تعالى: {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً}68 وهذا العدل المعنوي الذي لن يتحقق، مع إباحة التعدد في الآية نفسها بقوله تعالى: {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} وملك اليمين ليس له عدد.

وقال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}69.

وكذلك اسمه النور، فالنور مصدر، والنور الخالق الإلهي غير مشتق ولا يضرب له المثل، أمّا النور المخلوق فهو ما يمكن أن يضرب له المثل، وكذلك اسمه السلام مصدر وليس مشتق من حيث اللغة.

وعليه فأسماء الله الخالق أصل وليست مشتقة، ومسألة اشتقاق أسماء الله من الناحية المعنوية لا تستقيم لأن الله الخالق واللغة مخلوقة فلا يسع المخلوق الخالق.

وهذا ما ورد في كتب المعاجم، وما نعزو إليه إن كتب اللغة تتحدث عل مستوى العلاقة اللفظية، ونحن ملنا إلى العلاقة الخَلْقِيَّةِ، فرددنا اللغة إلى خالقها، مع إجلالنا للعلماء السابقين واللاحقين والمعاصرين في اللغة.

وكما أننا لم نأخذ بما ورد في كتب المعاجم من أن أسماء الله مشتقات، فأننا لم نأخذ بحكم اللغة في وصف الأسماء والصفات بأن ما جاء منها على صيغة المبالغة للمبالغة في أداء الفعل، وكأن فعل الله يحتاج للمبالغة لنقص فيه (حاشا لله) مع يقيننا أن علماء اللغة لم يقصدوا ذلك، ولا الذين أخذوا عنهم غير أننا نوهنا إلى ذلك من باب الأخذ بالأولى فيما يليق بأسماء الله الحسنى، فلا يليق أن نقول الشهيد للمبالغة في الشهادة والعليم مبالغة في العلم وغير ذلك، لأن الله له الكمال المطلق في كل ما ورد إلينا من أسمائه الحسنى، وإن سأل سائل وما دليلك من القرآن قلنا قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}70 فأفعاله بقدر ما تحتاجه المفعولات بالوجه الأكمل المطلق لأنه قد أحاط بكل شيء

---

68 النساء 3.
69 المائدة 8
70 الطلاق 3.

علما، قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}71 فبلوغ علمه وإحاطة قدرته لا يجب فيهما أن يقال: إن من أسمائه مشتق للمبالغة فإن الله بالغ أمره، أي منفذ أمره وممض في خلقه ما قضاه (قد جعل الله لكل شيء قدراً) جعل لكل شيء من شدة أو رخاء أجلاً ينتهي إليه72، فبلوغ أمره بأمره لا بصيغ المبالغة.

ولهذا نرى وجوب تعطيل دلالات اللغة البشرية في التعاطي مع أسماء الله الحسنى، لأن البشري لا يسري على الإلهي بأي حال من الأحوال، ومن المعروف فطريا إن الذي وضعه الخالق يسري على المخلوق، وما وضعه المخلوق لا يسري على الخالق.

وفي بحثنا في أصول الأسماء والصفات من حيث ورودها في النصوص، ولأن البحث في أسماء الله وصفاته الحسنى لابد له من مستند يستند عليه بالإضافة إلى ما ورد في القرآن الكريم، فكان هذا المستند دليلا نقليا مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، اعتمدنا على ما جاء في حديث الأسماء الحسنى مرتبا عند الترمذي الوارد في (سنن الترمذي) "حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَعْقُوبَ الْجُوزَجَانِيُّ حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ صَالِحٍ حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً غَيْرَ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيظُ الْمُقِيتُ الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ

---

71 الطلاق 12.

72 تفسير الخازن - ج 6 ص 117.

وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ".

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ حَدَّثَنَا بِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ صَالِحٍ وَلَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ صَالِحٍ وَهُوَ ثِقَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا نَعْلَمُ فِي كَبِيرِ شَيْءٍ مِنْ الرِّوَايَاتِ لَهُ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ ذِكْرَ الْأَسْمَاءِ إِلَّا فِي هَذَا الْحَدِيثِ.73 كما روي الحديث في كتب الحديث الآتية: السنن الكبرى للبيهقي74 ، المستدرك على الصحيحين للحاكم75 ، شعب الإيمان للبيهقي76، صحيح ابن حبان77، وورد في كتب التفاسير الآتية:

- تفسير ابن كثير – بقول ابن كثير: "وجاء تعدادها في رواية الترمذي"78 .

{وَلِلَّهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}79، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعا وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر".

أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه رواه البخاري، عن أبى اليمان، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد به وأخرجه الترمذي، عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: "يحب الوتر": هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير،

---

73 سنن الترمذي- ج 11 ص 412 حديث رقم3429.
74 السنن الكبرى للبيهقي ج 10 ص 27.
75 المستدرك على الصحيحين للحاكم ج 1 ص 45.
76 شعب الإيمان للبيهقي ج 1 ص 113.
77 صحيح ابن حبان ج 4 ص 108.
78 تفسير ابن كثير ج 1 ص 122.
79 الأعراف 180.

الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر،"إلى آخر الحديث"80.

وفي التفسير نفسه في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}81 ، "وسرد الحافظ ابن كثير الحديث" وقال: قال الترمذي: هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ورواه ابن حبان في صحيحه، من طريق صفوان، قد رواه ابن ماجه في سننه، من طريق آخر عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعا فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان.

والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم82 .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أعلمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا". فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: "بلى، ينبغي لكل من

---

80 تفسير ابن كثير ج 3 ص 515.

81 الأعراف 180.

82 تفسير ابن كثير ج 3 ص 514.

سمعها أن يتعلمها". وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه: "الأحوذي في شرح الترمذي"؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم83.

و قال الشوكاني في فتح القدير في تفسيره للآية: {له الأسماء الحسنى} مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنى، وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح84، فالأسماء المذكور في نص الحديث إنما تمثل الحد الأدنى من أسماء الله سبحانه وتعالى والتي تقوم فكرة تحقيق العبودية لله، وتحقيق العبودية لله هي بالاستخلاف في الأرض.

إن الله جل جلاله هو الأول والآخر فلا يمكن أن نحصي صفاته وأسماءه لأنه قبل بدء البدء وبعد الانتهاء، فلا أحد قبله ولا أحد بعده فهو المهيمن على العدد والعاد، فنعمه لا حصر لها، فكيف الحال بالمنعم الذي خلقها ويعلمها {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}85 ، فإذا كنا لا نستطيع أن نحصي نعمه فكيف نستطيع أن نحصي أسماءه؟!

وفي أثناء البحث الموسوعي في الاسم المنتقم وجدنا نفي الاسم (المنتقم) ثم نفي الحديث وورد ذلك عند الإمام ابن تيمية وكذلك عند إمام العصر في الحديث (الألباني) فضلا عن وجود الحديث واعتماده عند جلِّ المحدثين والمفسرين الذين رووا الحديث ناهيك عن كتب اللغة.

وقد ورد في جامع الرسائل لابن تيمية ما نصه:

"في أسماء اللّه تعالى (المُنْتَقِم) هو المُبالغ في العقوبة لمن يشاء" وليس في أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر وإنما يذكر الشر في مفعولا ته كقوله (نبئ عبادي إني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم) وقوله (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) وقوله (اعلموا أن الله شديد العقاب) وقوله (إن بطش ربك لشديد، إنه هو يبديء ويعيد، وهو الغفور الودود) فبين سبحانه أن بطشه شديد، وأنه هو الغفور الودود"86 .

83 السابق .
84 فتح القدير ج 4 ص 488.
85 إبراهيم 34 .
86 جامع الرسائل-ج1-ص356.
*" لم يذكر الإمام من هم أهل المعرفة"!!
*بالرغم من إننا ذكرنا من الكتب المشهورة قبل الإمام بن تيمية.!!

ونفي شيخ الإسلام ابن تيمية أن يكون – المنتقم – من أسماء الله تعالى فقال: "اسم المنتقم: ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما جاء في القرآن مقيداً كقوله تعالى (إنا من المجرمين منتقمون) وقوله (إن الله عزيز ذو انتقام) والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى الذي يذكر فيه المنتقم وذكر في سياقه (البر التواب المنتقم العفو الرءوف) ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي صلى الله عليه وسلم بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن بعض شيوخه ولهذا لم يروه أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي*، رواه من طريق الوليد بن مسلم بسياقه، ورواه غيره باختلاف في الأسماء وفي ترتيبها يبين أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. وسائر من روى هذا الحديث عن أبي هريرة ثم عن الأعرج ثم عن أبي الزناد لم يذكروا أعيان الأسماء، بل ذكروا قوله صلى الله عليه وسلم (إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة) وهكذا أخرجه أهل الصحيح كالبخاري ومسلم وغيرهما، ولكن روي عدد الأسماء من طريق أخرى من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة ورواه ابن ماجه وإسناده ضعيف يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وليس في عدد الأسماء عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذان الحديثان كلاهما مروي من طريق أبي هريرة وهذا مبسوط في موضعه87.

وقد ضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي88 ، وكذلك في صحيح وضعيف الجامع الصغير89 ، وقال: ضعيف انظر حديث رقم: 1945 في ضعيف الجامع.

وهنا كانت وقفة بحثية في إثبات الاسم (المنتقم) ثم بعد ذلك لإثبات الحديث.

فقد اعتمدنا في إثبات الاسم (المنتقم) وفي تقوية الحديث بالسير على نهج أئمتنا من السلف الصالح متعلمين منهم مقتدين بهم راجين النفع والهداية فإن أصبنا فلله الحمد وإن كانت الأخرى فنسأل الله المغفرة.

أولا من حيث المعنى:

---

87 جامع الرسائل - ج 1 ص 356.

88 - ينظر صحيح وضعيف سنن الترمذي 87.

89 - ينظر صحيح وضعيف الجامع الصغير 11202.

الاسم (المنتقم) لله يخلو من معاني الشر ودلالاته فالانتقام من المجرمين خير، لأن عدم الانتقام منهم في حد ذاته شر، وقس على ذلك (المانع الضار) فالله بمنعه لفعل الشر هو عين الخير، ولا منع بالمطلق إلا له وإن توهم البعض إن صفة المنع شر فهذا من حيث الفهم السلبي لها، أما بالمفهوم الإيجابي فنرى أن المنع الإيجابي دحرٌ لأعداء الله ومنعٌ لأوليائه، فالله منع أعداءه من أداء فعل يسيء لأوليائه، قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}90، وقد يتوهم أعداء الله أنهم يمتنعون بما لديهم من عقاب الله لهم، وهذا غاية الوهم ومنتهاه لأنه المانع المطلق الذي لا تمنعه موانع ولا يرد أمرَه حصونٌ، ومنْعُه لعزة من يواليه ولذلة من يعاديه، وفي هذا وذاك حكمة بالغة تدفع الخلائق لتسبحه وتنزهه لأنه العزيز بمنعه الحكيم بفعله الذي لا يمنع من منعه أولياءه مانع، ولا يدفعُ منعَهُ لأعدائه عن أذى المؤمنين دافع، فسبحان العزيز الحكيم المانع القائل في كتابه: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}91.

والله (شديد العقاب) بمن يحرم حلاله ويحلل حرامه، وإلّا فكيف يكون مصير الكافرين المفسدين؟لا يكون إلا بعقابهم بما يليق بما فعلوه من جرائم، وأليق عقاب لهم جهنم التي أعدها الله للكاذبين المفسدين المجرمين فيقول أعز قائل: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ}92 ويقول تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ}93، فشديد العقاب صفة من الصفات التي يصلح بها المجتمع إذ لو لم يكن الله شديد العقاب لفعل كل إنسان من مفاسد

---

90 الفيل1-5 .
91 الحشر 1-2 .
92 العنكبوت 68.
93 الزمر 32.

دون أدنى خوف، لهذا -على الجانب الإنساني- وضعت القوانين الصارمة التي تقوم بردع المفسدين وعقابهم دون أن يقول أحدٌ لماذا وضعتم هذا القانون المبالغ في الشدة؟ لأن الإجابة ستكون (للصالح العام في الأمة أو الجماعة التي وضعت هذا القانون)، فما بالنا بالصالح العام للبشر والحجر والشجر على الأرض ،أضف إلى ذلك المخلوقات جواً وبحراً.

ومن المعاني التي لابد من توجيه النظر إليها بالشكل الموجب قوله تعالى: (وإن بطش ربك لشديد)، (ويمكرون ويمكر الله)، فبطش الله شديد بالمفسدين الضالين حتى تتهيأ الظروف المناسبة لخلافة الله على الأرض وتعميرها، وهذا المعنى يتفق مع (شديد العقاب)، وكذلك قوله تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)94 فمكره تعالى خير لدحض مكر الكفار الذين أرادوا حبس النبي، أو قتله، أو طرده، فلمنع مفاسدهم الماكرة كان لابد من مكر بالخير لنصرة الخير على الشر.

مع التأكيد على إننا لا نقول إن من أسمائه تعالى: الماكر لما ورد في الآية السابقة أو الباني، والمسوي والمغطش، والمخرج، والداحي لقوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا}95.

وربما يذهب البعض إلى القول أنه (لا يجوز أن يقال على الله الطاوي والباني وحتى المسيطر) إذا اجزنا ذلك فإن الأمر يفتح باب الاجتهاد ويسمح لنا كما يسمح لآخرين بمداورة الأفكار للبحث والتقصي عما يجوز ونحن انطلقنا من ذلك.

فعند تفكيك القول (لا يجوز) نجد أن (لا) هي للنفي وليست للنهي فهي غير جازمة وليس لها محل من الإعراب، فاللفظ هنا لا يتشابه مع القول بـ(لا تقربوا) فهنا يتطلب النهي عن هذا الفعل بتاتا، أما (لا) في القول السابق (لا يجوز) فان عملها لا يغلق باب الإجازة، ولو كان يقصد النفي مطلقا لجاء بـ(لا) النافية للجنس وقال (لا جائز). من ذلك قوله تعالى: {لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ} ونوح عليه الصلاة والسلام حيث {قَالَ لاَ عَاصِمَ اليوم

---

94 الأنفال 30.

95 النازعات3228.

مِنْ أَمْرِ اللهِ} سلك طريقةَ نفي الجنسِ المنتظِمِ لنفي جميعِ أفرادِ العاصمِ ذاتاً وصفةً كما في قولهم: ليس فيه داعٍ ولا مجيبٌ أي أحدٌ من الناس للمبالغة في نفي كونِ الجبلِ عاصماً بالوجهين المذكورَين96.

ثانيا من حيث الدليل النقلي:

لما بحثنا في كتب الصحاح وجدنا الاسم (المنتقم) مذكورا عند غير واحد من رجال جمع الحديث ومن هؤلاء الترمذي97 (الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ) وعند البيهقي في سننه98، (البر التواب المنتقم العفو)، وقد أنصف الحاكم في مستدركه هذا الحديث الذي أُخذ عليه تفرد الوليد بن مسلم مع طول الحديث وذكره للاسم– المنتقم– مع عدم ذكره في أحاديث أخرى فقال ما نصه:

"هذا حديث قد خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه، والعلة فيه عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله، وذَكَرَ الأسامي فيه ولم يذكرها غيره، وليس هذا بعلة فإني لا أعلم اختلافا بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب، ثم نظرنا فوجدنا الحديث قد « رواه عبد العزيز بن الحصين، عن أيوب السختياني وهشام بن حسان جميعا، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم بطوله"99. وقد ورد عند البيهقي في كتابه شعب الإيمان في أكثر من موضع100، ونؤكد على ما جاء في باب أسامي صفات الذات بقوله: "ومنها المنتقم ويختص بعقاب الناكثين"101، وفي صحيح ابن حبان "المنتقم، العفو"102.

---

[96] - تفسير أبي السعود ج 3 ص 352

97 - ينظر سنن الترمذي 11 412.

98 - ينظر سنن البيهقي 10 27.

99 - المستدرك للحاكم 1 45.

100 - شعب الإيمان 1113.

101 - المصدر نفسه 1 115.

102 - صحيح ابن حبان 4108.

فإذا كان الوليد بن مسلم متهما، فكيف أورد البخاري في صحيحه ثمانية عشر حديثا في سندها الوليد بن مسلم. وفي صحيح مسلم تسعة وثلاثون حديثا في سندها الوليد بن مسلم، وعلى الإجمال فقد أورد الموطأ ومسند أحمد والصحاح الستة له ثلاثمائة وسبعة أحاديث.

ومما تقدّم نحن نعتمد هذا الحديث في ترتيب أسماء الله الحسنى حسب ما ورد في ترتيب الأسماء.

إذا فعدد الأسماء الحسنى التي وردت في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم تسعة وتسعون اسما وإن اختلفت الروايات في بعض الأسماء، غير أن الإجماع على العدد متفق عليه إذا أخذنا كل رواية على حدة، فعندما تُضم هذه الروايات إلى بعضها مع حذف المكرر من كل رواية، فإن العدد يصل إلى أكثر من مائة وعشرين اسما، ولكن جميع الروايات اتفقت على العدد تسعة وتسعين، وهذا يعني أن عدة العدد هو قطب الرحى الذي تدور حوله الأسماء وتقوم عليه، لأن الله سبحانه وتعالى كل شيء عنده بحسبان، وعندما حدد الرسول عليه الصلاة والسلام عدد الأسماء وأكّد عليها، فإن المقصود هو حصر العدد إضافة إلى خصوصية الاسم في الفعل المراد لقوله عليه الصلاة والسلام: "لله تسعة وتسعون اسما، مائة إلا واحدا لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر"103 (والحفظ القيام بأفعالها والتصرف فيها على ما جاء في الشرع) وهذا تأكيد على خصوصية العدد وقيمته عندما ذكر التسعة والتسعين، ثم أكّد على أنها مائة إلا واحدا، وعلى هذا وإن اعتمدنا نحن رواية بعينها فهو لا ينافي بقية الروايات وإن اختلفت بعض الأسماء فيما بينها من رواية لأخرى لأن القصد هو حصر العدد وسنبرهن على ذلك من الأدلة النقلية والعقلية.

فالأدلة النقلية جاء بها الكتاب والسنة النبوية، فالله سبحانه وتعالى ذكر أسماءه الحسنى في القرآن الكريم وجعلها مطلقة غير مقيدة، ومجملة غير مفصلة حيث قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}104 فكل اسم حسن هو من أسماء الله تعالى، شأنها في ذلك شأن كثير

---

103 - صحيح البخاري 2028.

104 - الأعراف 180.

مما جاء في القرآن الكريم مجملا، كالصوم والصلاة والحج والزكاة، التي فصلها رسول الله عليه الصلاة والسلام.

والدليل النقلي الآخر: أن الأسماء مطلقة بصفة الفعل ومقيدة بخصوصية العدد هو قوله صلى الله عليه وسلم: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك"105 فنحن لا نستطيع أن نحصر أسماءه جل جلاله، ولكننا نستطيع أن نقول إنها أسماء جمال وجلال وكمال، وتنقسم على ثلاثة أقسام:

الأول:

وهو ما علّمه الله لأحد من خلقه، أي لأحد دون أحد، وهنا تكمن خصوصية الاسم مع العدد بما يناسب قدرة التحمل العقلية والنفسية على المتحمل للفعل المراد إنفاذه في الإرادة، فسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام نبي من عند الله تعالى يقول للعبد الصالح: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}106، فالعبد الصالح بما أوتي من علم، هو مدرك أن موسى عليه الصلاة والسلام لا يستطيع صبرا على ما سيراه من أفعاله وتصرفاته، وهذا يعني أن العبد الصالح يتحرك ويعمل عن معرفة بينما لا تزال هذه المعرفة بالنسبة لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام غيباً، وهذا يعني وجود أسماء مختصة بأفعال معينة تنحصر ضمن العدد في خصوصية حاملها والقدرة على التصرف بها.

الثاني:

وهو الذي أنزله الله في القرآن الكريم هي القاعدة التي يُؤسس عليها العلم بأسماء الله الحسنى وحفظها، ثم أن هناك اثنا عشر اسما أطلقنا عليها المتممات التي ليست بأعيانها، أي أنها تختلف من رواية إلى أخرى. وهذه الأسماء الاثنا عشر المتممة للقاعدة التي يؤسس عليها، هي التي تحمل الخصوصية التي يعلّمها الله تعالى لأحد دون آخر، ذلك أن القدرات العقلية والطاقات التحمّلية في الإدراك والاستيعاب متفاوتة من شخص لآخر، وليس بالضرورة أن

105 - مسند أحمد 863.
106 - الكهف 66.

تكون المتممات هي اثنا عشر بأعيانها، ففي رواية يكون فيها الدائم العالم القائم الصادق من هذه الاثني عشر، وفي رواية أخرى يكون فيها مثل السيد الراشد الجميل، وفي رواية ثالثة لا هذه ولا تلك، مثل الحنان المنان ذو الطول ذو المعارج، وجميعها جاءتنا عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

والذي نراه أن اختلاف بعض الأسماء من رواية إلى أخرى يندرج تحت خصوصية الأسماء بما يناسب المخلوق في احتمال الصفة أو الاسم من أجل الفعل المكلف به لإنفاذ إرادة المشيئة، في فعل معين يختص به اسم معين في شخص معين هيّأه الخالق بقدرات تحتمل الاسم وتناسب الفعل.

الثالث:

الأسماء التي استأثر بها سبحانه وتعالى في علم الغيب ولم يُطْلِعْ عليها أحدا، أو يُعلِّم بعضا منها لبعض خلقه لخارقة من الخوارق، أو أنه استأثر بها لليوم الآخر بما يناسب الحياة الآخرة لما ثبت في الأدلة النقلية من الكتاب والسنة أن الحياة الآخرة لا تخضع للقوانين الطبيعية، فاستئثاره بها لأمور خارجة عن العادة وتدخل في مجال الخوارق والمعجزات التي لا نستطيع تحملها في حياتنا الدنيا، أما في حياة غير حياتنا الدنيا، كالبرزخ والبعث والنشور ثم الحساب والخلود، تنتفي الخوارق والمعجزات لأننا نقف على حقائق كنا نؤمن بها ولا ندركها لأنها في عالم الغيب الذي فيه الاستئثار بأسماء تختص بالغيب.

فإن كان الله تعالى يرزق العباد باسم الرزاق، وبالمغيث يغيثهم، فبأي اسم يطوي السماء حيث قال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}107، وبأي اسم يزلزل الساعة فقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}108، من هنا نستطيع أن نقول إنّ لله أسماء حسنى كثيرة توزعت على الدنيا والآخرة لم نقف عليها وإنما وقفنا على معانيها من خلال النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة فصفات مثل الإنزال والبثّ

107 - الأنبياء 104.

108 - الحج 1.

والاستقرار والاستقلال والإرساء والإظلام لا ينطبق عليها أي اسم من الأسماء التي وردت في جميع روايات حديث الأسماء، كونها لا تخص المخلوقين مع وجود أدلة لها.

أمّا خصوصية العدد فيكمن سر أسماء الله الحسنى في خصوصية العدد المحدد مع ما ذكر من الأسماء التي لا يعلمها إلا الله، والتزام العدد هو بمثابة درء تعارض العقل مع النقل مما جاء من الزيادة على العدد المخصوص.

ولقائل أن يقول: ما دليلك على خصوصية العدد دون كثرة الأسماء؟

فنقول: الشرع، فإن قام دليل من الشرع درأ ما يتعارض مع العقل، وسوف نعمد إلى كتاب الله تعالى ونأخذ أدلة ونقيس عليها.

قال الله تعالى في محكم التنزيل: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}109، والقرآن الكريم افتتح بالبسملة التي عدد حروفها تسعة عشر حرفا، وأول ما قال أهل العلم في ذلك أن المؤمن يدفع عنه بكل حرف منها، ملكا من ملائكة جهنم فيكون من الناجين بإذن الله.

وأما من جهة ثانية، فإن العدد تسعة عشر أو مضاعفاته له شأن عجيب في القرآن الكريم نستطيع من خلاله أن نقف على خصوصية العدد وإن جهلنا السر في ذلك.

إن تعيين العدد وحصره إنما هو سر من الأسرار الإلهية سواء ما ورد حصره في القرآن الكريم أو الأسماء الحسنى أو التسابيح والأذكار التي وردت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، فهي جميعها معينة ومحصورة برقم محدد دون زيادة أو نقصان للوصول إلى النتيجة التي حُددت من أجلها، وكذلك عدد الصلوات في اليوم والليلة وعدد الركعات فهي محددة بعدد محدد لها من الخصوصية التي لا يعلمها إلا الله، والصيام في الفرض أيام معدودات محددة بعدد قيده الرسول صلى الله عليه وسلم تنفيذا لأمر ربه قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}110، وكذلك الحج فالطواف محدد

---

109 - المدثر 30.

110 البقرة 183 -184.

بعدد والسعي بعدد، وقس على ذلك، فالعدد إمّا حدده الله أو بينه النبي صلى الله عليه وسلم، وإلّا فليقل لنا قائل من أين عرفنا عدد ركعات كل صلاة من المفروضة؟ الإجابة من النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي نفذّ وطبّق في حيز العدد المخصوص والذي أجمعت عليه الأمة ولم تختلف فيه من بعده، أما النوافل فمتروكة لمن أراد أن يزيد أو ينقص على قدر طاقته من صلاة وصيام وعمرة وصدقة وغير ذلك.

فالأسماء التسعة والتسعون حددها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث، والأسماء الأخرى يمكن الوصول إليها من خلال النص القرآني دون إلحاد في أسمائه تعالى {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}111،

ومعنى الإلحاد في أسماء اللَّه عزَّ وجلَّ: أنْ يسمُّوا اللاَّتَ نظيرَ اسم اللَّه تعالى؛ قاله ابن عباس، والعُزَّى نظيرَ العزيزِ؛ قاله مجاهد، ويسمُّون اللَّه أباً، ويسمُّون أوثانهم أرْباباً112. وفي هذا العصر من ينسب اسما لله ليس له أصل في الكتاب ولا السنة، أعاذنا الله من هذا وذاك.

ولهذا فإن القاعدة هي السبعة والثمانون التي جاءت في القرآن الكريم، ويبنى عليها اثنا عشر لخصوصية العدد بصرف النظر عمّا ذكرنا من تباين في الروايات (فهو تباين تنوع لا اختلاف)، وإن أي زيادة لا تكون تعطيلا، أو نقصاً، أو تشويها، فهي تسعة وتسعون اسما.

إن خصوصية تحمّل الصفات من أسماء الله الحسنى والتصرف بها بالنسبة للمخلوقين إنما تنسجم مع القدرات المؤهِلة للمخلوق في احتمالها عندما يتم له الكشف عنها، بدليل أن أولي العزم من الرسل هم خمسة فقط (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)113 .

وقد استأثر الله تعالى بقسم من الأسماء الحسنى لا يعلمها إلا هو، واستئثاره هذا لسبب أراده عز وجل في أمر يظهره عندما يريد، فيلهم من عباده من هو أهل ليطلعه على اسم من أسمائه تجري به مشيئته على يد من شاء له.

---

111 الأعراف-180.

112 تفسير الثعالبي ج 2 ص 82.

113 - الأحقاف30.

لهذه الأسباب التي ذكرناها نعتقد بخصوصية ما لأناس مخصوصين يتصفون بصفات مخصوصة في تحمل صفة مخصوصة من تلك الأسماء لإنفاذ الإرادة، مع التأكيد على أن العقل وحده لا يكفي للوقوف على حقيقة علم الإلهيات لترسيخ قناعة معينة في أمر ما، غير أن طريق العقل هو المدخل إلى الإيمان الذي يتجاوز العقل وصولا إلى المسلمات عن طريق الحكمة التي تسلم بالخوارق، إذ أن المعجزات تتجاوز العقل في قدراته الإدراكية.

إن الله جل جلاله هو الأول والآخر، وهذا يدل على أنه أحاط بالأزل والأبد، لأنه تعالى قبل البدء و بعد الانتهاء، فالأزل والأبد بالنسبة لنا هو غير متناه، والذات الإلهية أحاطت بهما وهيمنت عليهما، فمن هنا يكون اسم المهيمن قد استوعبت كل الأسماء الحسنى، ولأن الله تعالى هيمن على الأزل والأبد وتصرف بهما وفق مشيئته فبالضرورة ترتبط الأسماء الحسنى بعلاقة احتواء الواحد للكل والكل للواحد ودون انفكاك.

فالله عز وجل واحد أحد لا شريك له، له كل الأسماء والصفات الحسان مجتمعة فالله هو الرحمن، الرحيم، الخالق، المصور، البارئ، الكريم، الرزاق، العليم، الحليم، الخبير، القوي، العزيز، المهيمن، قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}114 وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}115 وقال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}116.

وكل هذه الأسماء الحسنى في دلالتها تدل على الله الواحد الأحد.

---

114 البقرة 163.

115 الإسراء 110.

116 الحشر 22، 24.

فعندما نسمع اسما من هذه الأسماء الحسنى، أو نقرأه فإن الذهن ينصرف دائما إلى الله تعالى، فلحظة سماع اسم (الواحد) مثلا لا ننتظر الثاني لأن الواحد في الذهن هو الذي لا ثاني له وهو الله.

أما لو سمعنا (واحد) فبالضرورة أن ننتظر (اثنان وثلاثة....وهكذا) ومثله باقي الأسماء الحسنى فالرزاق واحد بالمطلق لا تنتهي صفته لأن رزقه لا ينتهي ولا ينفد، قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[117] وقد يكون في دائرة النسبية أكثر من رزاق تنتهي صفته بانتهاء ما يرزق منه والذي هو في حقيقته رزق من الرزاق المطلق.

وعليه فالواحد أصل الأشياء والموجودات منه تكون بدايتها وإليه تصير نهايتها وبيده وحده مصيرها بداية ونهاية.

كل اسم من أسماء الله الحسنى هو واحد ويحتوي في طياته معاني الكل ولكن ظهرت فيه خصوصية الصفة فغلبت عليه دون باقي الصفات .

فاسم الله (الغفور) يحمل كل الصفات فيه، فلأنه غفور فهو رحيم ولأنه رحيم فهو كريم، وهل يكون كريما إذا لم يكن غنيا قويا قادرا ملكا مهيمنا؟

وعليه فكل الصفات الحسان متجسدة في اسم واحد من أسمائه الحسان ولكنه اصطبغ بالصفة الأكثر ظهورا فيه، فالصفة الظاهرة في اسم الغفور هي المغفرة، والرحمة في الرحمن، والجبر في الجبار، والرزق في الرزاق، والعدل في العادل، والقوة في القوي، والقدرة في القادر، والصبر في الصبور، والهيمنة في المهيمن، وهكذا.

وبالتالي فكونه الأول بلا بداية أزلاً والآخر بلا نهاية أبداً وقد هيمن عليهما فهو مهيمن على ما انحصر بينهما وجوباً، لأنه الأول بلا بداية وبأمره كانت البداية، وهو الآخر بلا نهاية وبأمره تكون النهاية، وبين البداية والنهاية من المخلوقات ما لا يعلمه إلا الأول قبل البداية

---

117 النحل 96.

والباقي بعد النهاية، (الله) فالبداية والنهاية منحصرتان بين الأول والباقي، وعملية الحصر هذه تؤدي بالنتيجة إلى الإحصاء، فطالما أنه حصرها فقد أحصاها ضرورة، إذاً فهو المحصي.

والمحصى في أسماء الله الحسنى هو الذي أحصى كل شيء بعلمه فلا يفوته دقيق منها ولا جليل118.

والإحصاء في المفهوم البشري: العَدُّ والحفْظ والإحاطة والإطاقة وبه فسر حديث الأسماء (إنَّ لله تسعة وتسعين اسْماً من أحْصاها دخل الجنَّة) أي من أحصاها عِلْماً بها و إيماناً وأطاق العمل بمقتضاها119.

والإحصاء في حق الله تعالى لا يتوقف عند إحصاء كل شيء من الأشياء المخلوقة، ولكن يتمثل في إحصائه تعالى لكل الصفات الحسنى في آن واحد دون عوائق الزمان والمكان، ولا تأثير لحواجز القدرة.

فالله تعالى في الآن الذي يكون فيه رحيما بعباده المؤمنين يكون في نفس الآن غفوراً للمستغفرين، صبورا على المجرمين، توابا على التائبين النادمين، رزاقا كريما على المحتاجين، منتقما من الظالمين، نصيرا للمظلومين، ويدل هذا على كمال القدرة وإطلاقها، فالله عز وجل قادر على فعل ما يشاء في آن واحد فهو يرى كل أعمال العباد في كل مكان دون أن يغفل عن أحد من عباده أو يحجبه عنه ساتر زمني أو مكاني قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}120 وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا

---

118 تاج العروس: ج1، ص8347.
119 النهاية في غريب الأثر: ج1، ص985.
120 يونس 61.

فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}121، كما أنه قادر على حسابهم في آن واحد وكأنهم نفس واحدة.

وبين اسمي المهيمن والمحصي (خارج الزمان والمكان) تعددت أسماء وصفات الله الحسنى، فإن قدّم (الرحمن الرحيم الملك القدوس) فهو من باب كرم الله ورحمته عز وجل. وهذا التعدد في أسمائه تعالى يفتح أمام العباد باباً من الكرم الرباني اللا محدود، فكل إنسان يمكنه أن يدعو الله متضرعا إليه بالاسم الذي يتناسب مع حاجته ومسألته، فالفقير يدعو الله باسمه الغني والمعطي والكريم، والمريض يدعوه باسمه الشافي والرافع، والمظلوم يدعوه باسمه المنتقم العدل والحق، والعاصي التائب يدعوه باسمه العفو والغفور، والخائف يدعوه باسمه السلام والمهيمن، وكل هذه الأسماء للواحد الأحد لا شريك له .

وتعدد الأسماء والصفات لا يدل على تعدد الذات، فالموصوف واحد والصفات متعددة وهذا لا يخرج عن قواعد العقل والمنطق الذي يقبل به الإنسان؛ فمن البشر من يتصف بصفات متعددة فقد يكون الشخص الواحد عالما وطبيبا وتاجرا ومتسامحا ومحبوبا ومُجِدّاً، وكل هذه الصفات يقبلها العقل البشري مجتمعة في الشخص الواحد دون جدال فلماذا الجدال في صفات الله وتعددها.

ونحن في كلامنا هذا لم نخالف أسس العقيدة في سبر أغوار البحث في الأسماء الحسنى متمسكين بأصول التوحيد وقواعد الاستنباط، معتمدين الدليل النقلي الذي جاء به الشارع، واستنبطنا منه دليلاً عقلياً يدعم رأينا فيما نذهب إليه بالصفات النسبية للخليفة.

ونرى ضرورة توضيح نقطة هامة للقارئ الكريم عندما يدخل في صلب هذا البحث وهي: أن ينحي الزمن جانباً بالنسبة للذات الإلهية لأن الله تعالى هو المهيمن والمحصي والخالق والرزاق والقابض والباسط والمحيّ والمميت والنافع والضار في آنٍ معاً خارج الزمان والمكان.

علاقة النعم بالأسماء وتعددها:

---

121 سبأ 3-5.

العقل يقبل اتصاف الشخص بصفات عديدة تتعدد وفقا لتعدد أفعاله، فيوصف رحيما من كان رحيما بالآخرين، وكريما من كان كريما معهم، والمدافع عن الحق عادلا، والصادق في القول والفعل صادقا، فكل صفة من صفاته لها فعل يرتبط به، وهذا هو الحال بالنسبة لمن يفعل أفعالاً على غير الإطلاق بل أفعاله كلها نسبية وليست على وجه الكمال، فما بالك بالفاعل المطلق والمنعم المطلق الذي لا تنفذ خزائنه مهما أعطى منها ولا ينقص ملكه كثرة الإنفاق كما في الحديث القدسي: "يَا عبادي إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عبادي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِى وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِى يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِى إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ"122.

ونعم الله تعالى كثيرة لا تحصى ولا تعد كما في قوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}123، وكل نعمةٍ فعل يرتبط باسم من الأسماء الحسنى، وعليه فإحصاء الأسماء الحسنى والوقوف على عدد نهائي لها هو ضرب من المستحيل، وذلك لاستحالة إحصاء نعم الله عز وجل فما بالك بأسماء وصفات منعم تلك النعم؟

ومن هذه الأسماء توالت النعم على الخلق، إنما هي ناتجة عن فعل أو صفة، وهذه النعم منها ما هو مادي ملموس كالأموال والأولاد والمتاع، ومنها ما هو شعور إدراكي ينتاب النفس

122 صحيح مسلم : جـ8 ص16.

123 النحل 18.

الإنسانية مثل الإيمان والأمن والفرح، ومنها ما هو قيم جمالية وأخلاقية، وكل فعل لله نعمة، وإن تُصوِرَ أن في هذا الفعل ضررا أو شرا بالمفهوم البشري القاصر.

فاسمه تعالى (المميت) اسم حسن وصفة حسنى لا يدل إلا على خير؛ لأن إماتة الشر على الأرض خير، وإماتة الكبرياء والكفر والشرك في نفوس العباد هو أيضا خير من أجل أن نتوجه إلى التوحيد والتواضع بنفوس خالية من الأمراض المضرة بالمجتمع وأخلاقياته .

وعليه فإماتة الذين يرتكبون الكبائر التي أوجب الله فيها القصاص كالقتل العمد، والزاني المحصن؛ لأن قتل القاتل على يد من ينفذ القصاص، وإماتته بفعل الله المميت هو خير لكل من:

المجتمع: حيث يتحقق فيه بإماتة القاتل والمنتهك لأعراض الناس الأمن والطمأنينة ويكون مجتمعا خاليا من الجريمة.

القاتل نفسه: حيث إن إقراره بذنبه وندمه عليه ولو في قرارة نفسه هو اعتراف داخلي بقدرة الله تعالى على عقابه وقدرته على التخفيف عنه في الآخرة إن كان قد ندم على ما وقع منه.

من هم على شاكلة هذا القاتل: ممن لديهم الاستعداد للقتل بأن يعتبروا من قتله فلا يقدمون على قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

وأيضا اسمه تعالى (الضار) لا يحمل في طياته إلا كل خير فالله سبحانه وتعالى ليس بظلام ولا يحب الظالمين قال تعالى: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}124 وقال تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}125 فالإضرار بالضرر هو في حد ذاته نفع وخير كبير بأن رفع الضرر عمن وقع عليه، وخير بمن أضر فيوقفه عن الاستمرار في ضرره فاتحا أمامه باباً للتوبة إن ندم واستغفر.

---

124 ق: 29.
125 آل عمران: 140.

وأيضا الإضرار بالمرض والفقر نعمة والإضرار بالكبرياء والغرور والجهل هو من أعظم النعم التي بها يسود العادل والتواضع والتسامح والتعاون والتكافل، فأي ضرر؟ وأي شر في اسمه تعالى (الضار)؟

وكذلك فالانتقام نعمة مفضية إلى الخير لأنها صادرة عن المنتقم الذي لا تدل أسماؤه إلا على الخير وعلى الموجب بالمطلق، فالانتقام من الظلم عدل والانتقام ممن ينتقم من الآخرين بغير حق خير كبير.

أنواع الانتقام: هناك فرق كبير بين الانتقام على المستوى البشري، والانتقام الإلهي.

-الانتقام الإلهي: يكون انتقام الله تعالى حق ولإحقاق حق مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}126 وقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}127 فانتقام الله تعالى لا يكون لغضب أو أغراض ذاتية فالله عز وجل لا ينفعه إيمان من آمن، ولا يضره كفر من كفر، بل إنه تعالى ينتقم ممن يظلم العباد وينتهك حرماتهم ويتعدى حدود الله و ممن يجاهر الله والمسلمين العداء.

الانتقام على المستوى البشري: ومنه نوعان.

- النقمة: وهي الكراهية سواء كانت نتاجا لفعل سيء أو غيره كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}128 وقوله تعالى: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}129 وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}130 والانتقام على المستوى البشري هو

126 الدخان: 16.
127 السجدة: 22.
128 المائدة:59.
129 البروج:8.
130 التوبة: 73- 75.

الانتصار لأخذ الحق، وعليه فالانتقام في حق البشر يحتمل أن يكون فيه شر لأنه قد يكون ناتجا عن نقمة، والنقمة تكون بسبب الحسد والكراهية المتولدة في النفس البشرية. فالانتقام نعمة على من تقع عليه من المؤمنين ومن غير المؤمنين، فهو للمؤمن تزكية من ذنب لأجل مغفرة بعد توبة وندم فهو موجب، وهو لغير المؤمن موجب لأنه يفضي بالنهاية إلى إدراك الحقيقة ثم الإيمان بالله الذي قد يؤدي به إلى الفوز بمغفرة الله وبرحمته بعد أن يمر بمراحل منها:

لحظة القبض: في هذه اللحظة حيث لا يزال غير المؤمن على قيد الحياة تبدأ أولى خطوات الإدراك، حيث يشعر أن الوعد الذي كذّب به من قبل قد تحقق فيطلب مزيدا من الوقت للتراجع عن الإنكار كما يذكرنا قول الحق سبحانه وتعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ}131. وهذا التراجع في اللحظات التي لا ينفع فيها الندم هو اعتراف ضمني بخطئهم فيما كانوا فيه قبل أن يأتيهم الموت من كفر وإشراك، وإنكار للبعث والحساب وغيره.

فهم قد رأوا أن ما كذبوا به في حياتهم الدنيا أصبح واقعا ملموسا لهم، وهذا الاعتراف هو خير لهم فخرجوا به من دائرة المنكرين الجاحدين إلى دائرة المعترفين النادمين، والذي قد يكون سببا في مغفرة الله لهم أو التخفيف عنهم فلا يكونون في الدرك الأسفل من النار مع الشياطين والمفسدين في الأرض المصرين على كفرهم وإفسادهم.

وكذلك قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ}132.

فالقائلون (رَبَّنَا أَرِنَا اللذين أضلانا): هم عامّةُ المشركين، كما يدل عليه قوله: (اللذَيْنِ أَضَلاَّنَا).

ومعنى (أَرِنَا) عيّن لنا، وهو كناية عن إرادة انتقامهم منهم ولذلك جُزم (نَجْعَلْهُمَا) في جواب الطلب على تقدير: إن ترناهما نجعلهما تحت أقدامنا.

131 المؤمنون 99-100.
132 فصلت: 29.

والجعل تحت الأقدام، الوطء بالأقدام والرفسُ، أي نجعل آحادهم تحت أقدام آحاد جماعتنا، وكان الوطء بالأرجل من كيفيات الانتقام والامتهان133. والرغبة في الانتقام ممن أضلوهم في الدنيا ناتجة عن شعور بالندم على تكذيبهم بما جاء به الرسل والأنبياء عندما وجدوا ما وعدوا حقا وأنهم كانوا في ضلال كبير باتباعهم سبل الضلال.

لحظة الندم والأمل، وفيها يترسخ الإدراك بحقيقة الله وصدق وعده فيقوى الإيمان بالله وتبدأ عبارات الندم كما يخبر عنهم مولاهم الحق: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}134، فهم إلى جانب ندهم موقنون آملون في الله الذي أدركوا صدق وعده لأن يعيدهم ليعملوا الخير والصالح من الأعمال.

لحظة الإيجاب، وفيها يحصل الإدراك التام والمطلق بالله سبحانه وتعالى فيبدأ رجاء العارف برحمة الله وعطفه يتصاعد من أفواه جحدت ربها، {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}135.

فالنتيجة إذا لفعل الانتقام خير حيث ترسخ الإدراك والإيمان بالله سبحانه وتعالى في نفوس تملكها الشك في غابر أيامها، وليس أدل على هذا من صورة فرعون وقد حل به الانتقام، يقول المنتقم سبحانه وتعالى: {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}136.

ومن هنا تعاظمت النعم من حيث الكم والعدد فخرجت عن الحصر والإحصاء، وطالما أننا لا نستطيع أن نحصي نعمه تعالى التي هي أصلاً صادرة عن صفة ذات أو صفة فعل من الأسماء الحسنى، فبالضرورة أن أسماء الله الحسنى لا يعلمها إلا هو من حيث الكثرة والعدد، وبالتالي فإن المخلوق أعجز من أن يحصي أسماء الخالق.

---

133 التحرير والتنور: ج13، ص33.
134 السجدة 12.
135 الأعراف 50.
136 يونس 90.

قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}137 فمهما وصل المخلوق إلى درجات من العلم والتقدم في علم الحساب والإحصاء لا يمكنه من أن يحصي كل نعم الله المادية والمعنوية والخلقية الجمالية وغيرها وبالتالي يستحيل إحصاء الأسماء الحسان التي تتعلق النعم بها.

وينبغي أن يكون واضحاً للقارئ الكريم أننا بشر من خلق الله نفكر على قدر ما أوتينا من عقل، والذي هو عبارة عن سلسلة من الأفكار، كما أن الإرادة عبارة عن سلسلة الأفعال الصادرة عنا، وبين سلسلة الأفكار وسلسلة الأفعال تكون ملكات العقل الخمس محدودة، وهي الإدراك والحافظة والاستنتاج والذاكرة والإرادة.

وبما أن الإدراك متفاوت بين الخلق من جانب، وكذلك المدركات منها ما هو مدرك ومنها ما هو غير مدرك وبعضها محال من جانب آخر، بسبب حدود الملكات المتناهية، وبما أن الإدراك محدود، فبالضرورة ستكون المدركات محدودة، وهذا ينسحب على بقية ملكات العقل من الحفظ والاستنتاج والتذكر والإرادة. فنحن لا نحصي من نعمه تعالى إلا بقدر عقولنا، مما يترتب على ذلك أننا لا نحصي من أسمائه إلا بقدر هذه العقول، ويكفينا من ذلك أدلة الخلق وأدلة العناية مما جاء في القران الكريم ونأخذ مثلا واحدا جمع الدليلين في قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}138، هذه الآية وحدها دليل خلق وعناية ورعاية وتدبير، وهو كثير في القران الكريم، وكذلك قوله تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}139، وقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}140، هذه الأدلة تتضمن كل ما عداها من أدلة قديمة كانت أم حديثة رغم اختلاف أساليب التعبير والتسميات بحسب اختلاف البيئة والزمان، ففي صورتها السهلة

---

137 الإسراء85.
138 - البقرة 164.
139 - الروم 19.
140 - الروم 21.

البسيطة يدل الأثر على المؤثر، وفي صورتها الكلامية اللفظية كل حادث لابد له من مُحدِث، وفي صورتها الفلسفية القديمة الممكن والواجب، وفي صورتها الفلسفية الحديثة شعور الوجدان أو فكرة الكمال. ونحن نستغني عن كل هذا بقوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}141، فلم يقل (سوى) ولم يقل (غير) حتى لا يُتوهم أن هناك إله سواه، فقد جاءت (إلا) أداةُ حصر للإلوهية في ذات الله ونفيّها عمن سواه، صورة منطقية في منتهى القناعة من حيث تصوير الخلق والعناية به وتدبير أموره، على تفاوت هذا الخلق من ناطق وجامد ونامٍ، وكذلك اختلافه في الحجم والشكل والصورة، وفي الأخلاق والطبع والفطرة، فلو كان إله مع الله (لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) من هنا نقول أن وحدة الصنع وشمول العناية وحكمة التدبير دليل على وحدانية الإلوهية، وهذا يعني أن اسما من أسماء الله الحسنى يشمل أكثر من صفة، فالرحمن رحيم، والرحيم لطيف، واللطيف خبير، والخبير معين، والمعين رؤوف، والرءوف حفيظ، والحفيظ عليم، والعليم محيط، والمحيط محصٍ، والمحصي مبديء، والمبديء معيد وهكذا، فلو تأملت الذات التي جمعت هذه الأسماء لوقفت على التداخل العجيب بين أسمائها وصفاتها بحيث أن الصفة الواحدة تتداخل مع غيرها بشكل لا يسمح انفكاك بعضها عن بعض، ولا يطغى بعضها على بعض، لأنها تصدر عن ذات واحدة، وهذا دليل على وحدانية الله ومصداق قوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}142 وهذا هو المضمون الامتدادي الذي يشمل جميع أسماء الله تعالى وصفاته بدءاً من لفظ الجلالة الذي هو اسم علم للذات الإلهية ومن ثَمّ ينتهي إليه.

---

141 - الأنبياء 23.

142 - الحشر 22- 24.

وبهذا نخلص إلى مصداق قوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}143 فبالضرورة أنكم لا تحصون صفات الذات الإلهية التي صدرت عنها تلك النعم.

وأما أن كل صفات الله تعالى قد تضمنها القرآن الكريم فهذا أمر فيه نظر وتدقيق، حيث أن الله تعالى استأثر بقسم من هذه الأسماء في علم الغيب لا نعلمه كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان عليه الصلاة والسلام عَلِمَ أن الله تعالى استأثر في علم الغيب بأسماء حجبها عن خلقه في الحياة الدنيا وأخبرنا بهذا الاستئثار، فنحن نأخذ بما آتانا رسول الله عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: {وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}144، لأن ما أخبر به الرسول هو الحق في نفسه، لا يختلف باختلاف عقائد البشر وأحوالهم، ولا يتغير بتقادم الزمان، فهو الحق الذي لا يقبل النقيض، ولهذا كل ما عارضه فهو باطل.

إذ من المعلوم أن الأمة أجمعت على ما جاء به الشرع من دلائل الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته، وكل ما عارض الشرع فالعقل يعلم فساده وإن كان معقولا، فالكفر والإيمان من المعقولات، والعقل يظهر فساد الكفر وصلاح الإيمان بأدلة عقلية على هذه المعقولات، وفوق ذلك إن ما جاءنا من أسماء الله الحسنى هو منقول بالتواتر كحروف القرآن والصلوات وما إلى ذلك من الأقوال والأعمال عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، أي الألفاظ والأفعال، فلكل لفظ معنى ولكل فعل مقصد، فجاءت ألفاظه وأفعاله، ومعاني ألفاظه ومقاصد أفعاله متواترة عند الأمة، منها ما هو عام مشهور بين الناس كالعبادات، ومنها ما هو خاص بأهل الذكر كالعقائد والإلهيات، فإن كان مجهولا للعامة فهو معلوم للخاصة بالتواتر.

لقد ثبت أن الاعتماد على العقل وحده للوصول إلى حقائق علم الإلهيات لم يجدِ نفعا، بدليل أن المتكلمين من أهل الرأي والنظر، والفلاسفة الذين يعمدون إلى المنطق والبرهان في سياق الأدلة، لم يزعم أحد منهم أنه اتصل بالذات الإلهية أو تم له الكشف، والسبب في ذلك أن هذا الطريق مدخله اليقينيات عن طريق القلب، وجميع هؤلاء اتخذوا العقل سبيلا إلى مبتغاهم فعجزوا.

---

143 - إبراهيم 34.
144 - الحشر 7.

وننبه إلى أن كتابنا في أسماء الله الحسنى توجه لأصناف عدة منهم علماء الدين والفلاسفة وطلاب العلم وخاصة المسلمين وعامتهم وأهل الفكر والرأي وأهل الديانات الأخرى، فمن وجد شيئا أغلق عليه، فهو لغيره لا ينكره حتى يتبين مخرجا لنفسه أو مدخلا يلج منه إلينا، فمعاني الأسماء الحسنى منها ما يعود على الله، ومنها ما يعود على الخلق، ونعلم أن الكلمة تأتي بمعنى حقيقي ومجازي أو تنصرف إلى دلالة أخرى لا علاقة لها بما نبحثه.

إن البحث العقلي في علم الإلهيات وما وراء الطبيعة، أمر طبيعي للمفكرين الذين نشئوا في بيئة خالية من الدليل النقلي، أما بالنسبة للبيئة التي وجد فيها النص دليلا نقليا، فإن البحث العقلي والضرورات العقلية تقوم على خدمة النص الإلهي بالبراهين العقلية لدرء معارضة العقل للنقل، وهذا ما سلمت به العقول الحكيمة.

وأما عن علاقة الإنسان بأسماء الله الحسنى واستخلافه في الأرض دون غيره، فإن الله تعالى خلق خلقه واختص من بين هذا الخلق الإنسان ليستخلفه في الأرض، لذلك خلقه في أحسن تقويم.

وقد يتساءل البعض: لماذا الإنسانُ دون غيره من المخلوقات؟ وما علاقة أسماء الله الحسنى بذلك؟ نقول:

إن الله خلق الملائكة من نور، فالملائكة لم يُخْتَلَفْ في أصل خلقها، وليس يخفى على أحد من نعمة الله في خلق الملائكة لتبليغ الوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أجل هداية الناس، وليسوا مقتصرين في أفعالهم على ذلك القدر، وطبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية والسماوية وحملة العرش، وكلٌّ مكلف بعمل مخصوص لا يتعداه ولا يطلب منه غيره، فمنهم أهل التسبيح ومنهم الحفظة ومنهم الكتبة ومنهم ما لا يعلم تكليفه إلا الله. أي إنه خلق الملائكة الغيبيين ليباشروا مهمة غيبية محددة في الحياة.

و خلق الجانّ من مارج من نار، والجان الذي هو من المارج لا استقرار له، كما أن المارج لا يستقر.

وأما الإنسان اختلف خلقه على أربعة أنواع من الخلق فخلق آدم لا يشبه خلق حواء وخلق حواء لا يشبه خلق سائر بني آدم وخلق عيسى عليه الصلاة والسلام لا يشبه خلق أحد مما ذكر، وإن كانت أنواع الخلق تعود إلى أصل واحد، والأصل الذي منه خلق الإنسان وهو التراب والماء والنار والهواء، وذكر الله تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه الصلاة والسلام ونبَّه على أنه جعله إنساناً في سبع مراحل، وأشار إلى ذلك في مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة، فقال في موضع خَلَقَه من تراب إشارةِ إلى المبدأ الأول، وفي آخر من طين إشارة إلى الجمع بين التراب والماء، وفي آخر من حمأٍ مسنون إشارة إلى الطين المتغير بالهواء أدنى تغير، وفي آخر من طين لازب إشارة إلى الطين المستقر على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة، وفي آخر من صلصال من حماٍ مسنون إشارة إلى يبسه وسماع صلصلة منه، وفي آخر من صلصال كالفخار، وهو الذي قد أُصلح بأَثر من النار فصار كالزخرف، وبهذه القوة النارية حصل في الإنسان أثر من النارية وعلى هذا المعنى دلَّ بقوله: (خلق الإنسان من صلصال كالفخَّار). فنبه على أن الإنسان فيه من القوة النارية بقدر ما في الفخار من أثر النار. ثم نبه الله على تكميل الإنسان بنفخ الروح فيه فقال: (إني خالق بشراً من طين فإذا سوَّيتُه ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين). فهذه سبع مراحل نبّه عليها بقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ}145.

ثم دلَّ على تكميل نفسه بالعلوم والآداب بقوله تعالى: (وعلَّم آدم الأسماءَ كلَّها) ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم التي أوجدها حالةً بعد حالة، فنبه على أنه جعلهم أناساً في سبع مراحل، وأشار إلى ما جعل له من قوة العقل والفكر والنطق ولإرادة.

145 - المؤمنون 11- 14 .

ولم يذكر في غير نشأة الإنسان قط تسوية ولا تعديلا، لأن التسوية والتعديل لا يكونان معا إلا للإنسان، ولم يكن ذلك لغيره من المخلوقين من العناصر، ثم قال له بعد التسوية والتعديل: (كن) فكان الإنسان.

وبسبب اختلاف خلق الإنسان عن الجن والملائكة بما يحمل من العناصر المتباينة تميّز بهذه التقلبات والأهواء والتغايرات بين الرضا والغضب والحزن والفرح والقناعة والطمع والإيمان والكفر والحزم والتردد والكرم والبخل والشجاعة والجبن والخوف والحرص وما إلى ذلك من التناقضات التي يحملها بين جوانحه، إذ أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يواجهك بموقف يختلف عن سابقه وعن لاحقه في لحظة واحدة بموجب هذه التناقضات، فكل خصيصة من هذه الخصائص النفسية تحتاج إلى نوع من العلاج في موقف ما لا يجدي معها غيره أبدا.

ولما كان الإنسان يحمل هذه التغايرات التي أودعها الله به، فقد جعله مفكرا عاقلا مختارا، وجاءت الأسماء الحسنى على ما نعتقد بهذا التعدد وفق اختصاص الاسم لمواجهة موقف أو نيل طلب أو إنفاذ أمر شاءه الله بإرادته.

إن حقيقة فهم الأسماء الحسنى تؤدى إلى ربط تأثير دلالاتها بالأخلاق الإنسانية وبالحضارات على مستوى البشرية جمعاء.

ولمعرفة حقيقة هذا الأثر يجب أن نُقر بحقيقة مفادها أن الله سبحانه وتعالى رب العالمين جميعا فهو الخالق لكل ذات، ولأنه خالق كل ذات فهذا يفضي إلى نتيجة هي أنه سبحانه أثر في كل ذات، لاسيما الإنسان الذي تتجلى في صورة خلقه وأخلاقه أعظم آيات الخالق عز وجل، وقبل الشروع في بيان أثر أسمائه الحسنى في الأخلاق الإنسانية نذكّر ببعض الثوابت وهي:

1- الله رب العالمين بالمطلق، {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}146.

---

146 الشعراء 23-24.

2–الله سبحانه خالق كل شيء، {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}147.

3–الله أحسن خلق المخلوقات جميعا، {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}148.

4– الله خص الإنسان بحسن التقويم، {قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}149.

وهذه الثوابت تفضي ولاشك إلى حقيقة وجود الله سبحانه وتعالى في يقين كل ذات آمنت أم كفرت، فالمؤمن يؤمن بوجود الله، والكافر ينفي وجود موجود، ولو لم يكن موجودا لما احتاج الكافر إلى نفي وجوده تنزه سبحانه عما ينفون ويشركون.

من هنا نقول أن أسماء الله الحسنى التي لا تدل إلا على الخير والموجب بالمطلق لابد لها أن تكون قد أثرت في صيرورة الأخلاق الإنسانية وتشكلها في هيئة المثل العليا.

فقد قامت المجتمعات الإنسانية على أخلاق الفضيلة والخير وبلغت أرقى مستويات تطورها عندما نهجت مسارا تطبيقيا لمضامين الخير التي تدل عليه الأسماء الحسنى أكمل دلالة، حتى وإن لم تنخرط في عبادة الواحد الأحد، وانهارت هذه المجتمعات عندما اختارت ترك الفضائل والعمل بالرذائل.

فكلما اختارت المجتمعات مضامين الخير والفضيلة المجسدة في أسماء الخالق عز وجل ارتقت، وليس أدل على ذلك من حركة التحول من الهمجية إلى المدنية المتحضرة، فالمدنية في الحقيقة هي انتهاج واضح لمعاني الخير والفضيلة التي لا تدل عليها إلا الأسماء الحسنى التي تشع بالخير والفضائل لتنير طريق الإنسانية جمعاء.

والفرد في منظومة المجتمع المتحضر يتصرف في إطار دلالات الأسماء الحسنى بشكل إرادي ولا إرادي، بشكل إرادي عند المؤمن لأنها قائمة في وعيه فهو دائم التحري لمعانيها وشديد الحرص على العمل بمضامينها، وعند غير المؤمن الخاضع للمجتمع بشكل لا إرادي إلا إذا اختار عدم الانتماء إلا لذاته، وعند ذاك يصبح حالة شاذة لا يقاس عليها.

---

147 الزمر 62.
148 السجدة 7.
149 التين 4.

فسلوك الفرد في أي مجتمع ينطلق من الوعي الجمعي لأنه لا يمكن للفرد إنشاء كيان مستقل بقيم فردية، فالأفراد يخضعون لنظم المجتمع.

وفي قراءة شاملة لاختيارات المجتمعات الإنسانية لنظمها نجد أثر الأسماء الحسنى واضح وجلي في مسيرة هذه المجتمعات، فالعدل مثلا نظام اختارته المجتمعات الإنسانية شعار ودليل في كل بقاع الأرض وباتفاق جمعي في الوعي واللاوعي، في الوعي من خلال النظم التي أقرتها المجتمعات، وفي اللاوعي من خلال تشكل صورة مشوهة وقبيحة للظلم، وهنا نسأل ما هو مصدر هذا العدل؟ أليس اسم الله العدل، وهذا مثال لبقية واسعة من القيم الأخلاقية التي تسود المجتمعات الإنسانية وتدل عليها أكمل دلالة أسماء الله الحسنى.

إن قراءة في ماهية الأخلاق الإنسانية وطبيعة استمدادها للقيم وتوحدها في المجتمعات المختلفة تاريخيا وفكريا وعقديا تؤدي إلى نتيجة مؤداها أن مصدر هذه القيم واحد، ولاشك أنها الأسماء الحسنى.

فقد توحدت اختيارات الإنسان في مرحلته المدنية بانتقاء قيم الفضيلة لأنه أدرك من خلال التأمل في مبدأه ومنتهاه ومصيره وسعادته وشقاه وعلاقته بمن حوله وبالكون صلاحيتها للقيام بأمر إعمار الأرض، ولو تأملنا طبيعة الاختيار لوجدناه متطابق عمليا مع مضامين الأسماء الحسنى، مطلقا أحيانا ونسبيا أحيانا أخرى وذلك عائد إلى طبيعة المجتمعات ونوع عقائدها والى الفهم التام لمضامين الخير التي تدل عليها الأسماء الحسنى، فنحن لا يمكن أن نبحث عن تطبيق المضامين في مجتمع مستغلق، بل نجدها في كل مجتمع اختار الانفتاح في البحث عن مضامين الخير والفضيلة.

وقد أثرت الأسماء الحسنى في الأخلاق الإنسانية بطريقين أساسيين:

الأول: إيماني وتطبيقي، وذلك بجعل مضامين الأسماء حاضرة في وجدان المؤمن وفي لحظة التطبيق في آن واحد وهذا يمكن تلمسه في المجتمعات المؤمنة بالله سبحانه وتعالى والواعية بأسمائه وصفاته.

الثاني: تطبيقي وذلك في المجتمعات غير المؤمنة، فأي نظرة فاحصة إلى مسيرة هذه المجتمعات تدلك بلا شك إلى تأثير الأسماء الحسنى فيها من خلال النهج الذي تنهجه في تسير شؤون حياتها بتحري قيم العدل والحق والرحمة والمساواة لأنها الأصلح لها في تسير شؤون حياتها، فطبيعة الاختيار لم يكن خياراً تفضيلاً وإنما خيارا حتميا تبعاً لتجربة متحققة، فمضامين الأسماء الحسنى هي وحدها تصلح للقيام بأمر تسير الحياة وأمر الأعمار ومن ثم الاستخلاف لما فيها من الفضائل والخير والموجب بالمطلق.

فعندما يتصف الإنسان بصفات الخالق فإنه يكون قد أقام علاقته مع المجتمع على دعائم قوية ثابتة، لأنه امتثل لأمر ربه، فعلاقة الإنسان بالعدل المطلق والاتصاف النسبي بهذا الاسم له أثر إيجابي على من يتصف به في الدنيا والآخرة، فالعدل بين الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم من السجايا التي تقوم عليها إعمار الأرض وإصلاحها. والعدل صفة خلقية كريمة تعني التزام الحق والإنصاف في كل أمر من أمور الحياة، والبعد عن الظلم والبغي والعدوان والعدل هو مما يكمل أخلاق الإنسان لما فيه من اعتدال واستقامة وحب للحق وهو كذلك صفة خلقية محمودة تدل على شهامة ومروءة من يتحلى بها وعلى كرامته واستقامته، ورحمته وصفاء قلبه، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ}150 وهو نهي عن الظلم وأمر في أداء الحقوق، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}151 ومن أجل إزالة الظلم وتوطيد العدل الكامل بين الناس، قيَّد الله سبحانه وتعالى أهواء بني البشر ببعض القيود حتى لا تنتشر المظالم وهي الحدود الشرعية التي جعلها واجبة التنفيذ. فقد قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}152

إن في توطيد العدل ومحاربة الظلم والحيلولة دون وقوعه إقرار للأمن وتحقيق للمساواة بين أفراد المجتمع، فهو الأمر الذي يمكن لكل فرد الوصول إلى حقه دون مشقة وعناء، وإذا فقد

---

150 - النحل 90
151 - النساء 58
152 - البقرة 229

العدل أكل الناس بعضهم حق بعض، وسادت الفتن، وكثرت الجرائم والمنكرات وأصبح كل فرد من أفراد المجتمع عرضة لاعتداء الأشرار، وضعاف النفوس، فتفقد الحياة بهجتها وجمالها.

مبدأ العدل في حقيقة الحياة ينظم العلاقات بين الأفراد في جميع شؤون حياتهم الدنيوية، وعلاقتهم بخالقهم في الدنيا والآخرة. ومن هنا صار العدل التزاماً في كل ميادين الحياة الروحية والمادية، ومناطا للثواب على صالح الأعمال، فالعدل على وجه التمام لا يكتمل إلا إذا كان مستمدا من العدل على وجه الكمال المطلق.

فالاتصاف في دائرة النسبية بصفات الله تعالى له هدف من ورائه غرض ومن ورائه غاية:

فالهدف هو الإنسان وإعمار الأرض.

والغرض هو بلوغ اللجنة.

والغاية هي إرضاء الله تعالى في نيل المبتغى.

وعلى ما تقدم فإن المتصف بصفات الله بدائرة النسبية يكون قد حقق الهدف والغرض والغاية في وقت واحد في الدنيا والآخرة.

فالله كرَّم الإنسان، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة، وسخَّر له ما في السماوات، وما في الأرض جميعا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

فإن كان مصدر هذه النعم إلهيا فإن الإنسان هو الذي يدرك هذا المصدر، ويستنبط منه ما يجب عليه القيام به، ويجتهد على ضوئه، ويحوله إلى فعل ملموس، عندما يتصف بتلك الصفات الحسان من العدل والرحمة والعفو والغفران والحكمة.

إن الإنسان مهما أوتى من الذكاء والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج، فقدرته محدودة بحدود الطاقة البشرية، ومقيدة بقيود المكان والزمان والوراثة والبيئة، فلا غنى له عن سند ومعين، يسدده إذا أخطأ، ويهديه إذا ضل، ويرده إلى الصواب إذا شرد، وهذا السند هو العلاقة الإيجابية بينه وبين نصيبه من الاتصاف بالأسماء الحسان لله تعالى.

نخلص إلى القول أن أسماء الله الحسنى أثرت في مسيرة الأخلاق الإنسانية وذلك لسببين رئيسيين هما:

الأول: حتمية الاختيار وذلك يرجع إلى مضامين الأسماء الحسنى فلا خيار تفضيلي يمكن أن يدفع بالبعض إلى اختيار مؤثر آخر يكون مورداً ننهل منه قيمنا في كل العصور.

الثاني: الانجذاب السلوكي لمفاهيم الأسماء الحسنى لما فيها من كمال، وهي بالتالي قادرة على منحنا القيم التي نحتاج إليها في تحقيق الخلافة على الأرض.

ولا يشك الباحث العاقل فضلاً عن الباحث العالم أن في هذا الكون محاور ثابتة وأسس راسخة ومبادئ قائمة استعصى على سائر البشر سبل البحث العلمي في الوصول إلى حقيقة ماهيتها عن طريق التجربة والمشاهدة على مر الأزمنة والعصور، ولم يستطع أيّ من البشر إلحاق النسخ بها أو إدخال أي تعديل عليها، حتى تكوّن في هذا الاتجاه منهج من الاستقراء التام أصبح دليلا بديهيا لدى الجميع، على أنها نواميس ثابتة راسخة ليس من شأنها أن تتطور أو تتبدل، تلك هي فطرة الله التي فطر عليها خلقه.

قال الله تعالى في محكم التنزيل: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}153

وفطرة الله تعالى التي فطر عليها الناس والكون هي التوحيد الذي هو رأس العقل ومدار الخير في الدنيا والآخرة، بالرغم مما أوجد فيها من الخير والشر.

وقد يتساءل البعض: لماذا شاءت إرادة الله تعالى أن يجعل هذه الحياة الدنيا مزيجا من الخير والشر والإنعام والحرمان والصحة والآلام والأفراح والأحزان، وقد كان قادراً على أن يجعلها مزدانة بأسباب اللذة والسرور والصحة والعافية وحدها صافية عن الأكدار والآلام؟

بل لماذا كلّف الإنسان بحمل هذه الأثقال والأعباء كلها، حتى أصبح يعيش مهيضاً حائراً تحت وطأتها، ولم يكن مستحيلاً على الله تعالى أن يحمّله نعمة العقل دون أن يربط به ذيولاً من النتائج المؤلمة. بل لماذا كانت المعرفة مقرونة بنكد الحياة ومصائبها؟

نقول: إن إرادة الله تعالى شاءت أن يكون الإنسان من أعظم مظاهر إلوهيته سبحانه وتعالى، وأبين لسان ناطق بسر الوجود كله. والشكل الذي شاءت حكمة الله أن يظهر فيه ذلك كله،

---

153 - الروم 30.

هو عمارة الأرض باستخلافه فيها، من خلال الاتصاف النسبي للإنسان بالأخلاق التي أمر بها سبحانه وتعالى والمتمثلة في أسمائه الحسنى جل جلاله.

ثم إن قوام مشقات الحياة التي تقوم بإعمار الأرض، وتنهض التكاليف الإلهية على أساسها، هما أمران اثنان: مغريات يراد من الإنسان الصمود لها والصبر عليها، وخيرات يراد منه الشكر عليها والكف عن الاستغراق فيها. وكلاهما يدخل تحت قاسم مشترك من مشقات الابتلاء والامتحان والاختبار لمقياس التخلق بأخلاق الله في هذه الحياة وشدائدها. فقد قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}154، فليس معنى الشكر ما قد يظنه البعض من تحريك اللسان بالحمد والثناء، وإنما إضافة إلى ذلك، بل وقبل ذلك أيضا، هو أن يسخّر الإنسان جميع ما أنعم الله به عليه لما قد خلق من أجله، أي أن لا يستعمل شيئاً من تلك النعم في أمر غير مشروع نهى الله عنه عباده، وليس هذا فقط بل عليه أن يستخدمه في سبيل المبدأ الذي خلق من أجله الاستخلاف)، فإن لم يفعل ذلك وانحرف في الاستفادة من تلك النعم عن هذا الصراط الذي ألزمه الله به انقلبت النعمة كلها وبالاً وشقاء عليه فيما بعد.

وعرض الدنيا وكل ما فيها من مظاهر الغنى والترف والزخرف والفنون والمفاخر الدنيوية المختلفة هي من المباحات للمؤمن وغير المؤمن. فقد يمنحها الله تعالى عباده الصالحين وأعداءه الجاحدين، وإنما العبرة بتلك الحالة التي إذا ارتقى إليها العبد، وجعل من كل ما تطوله يداه من الدنيا وأسبابها سلماً لبلوغ مرضاة الله عز وجل وذلك بإتباع أوامر الله والامتناع عن مناهيه، لأنه تخلّق بأخلاق الله تعالى واتصف بالصفات الحسان فجُعل خليفة.

والعبد الذي وصل إلى هذه الحال هو سعيد وإن رأيته يعاني . فيما تظن . ألواناً من المصائب والمآسي، وهو قوي وإن رأيته . في وهمك . ضعيفاً لا يملك ما يخيف منه أحداً أو يدفع عنه عدواً، وهو غني وإن تبدّى لك في ظاهر حاله أنه فقير مهين.

---

154 - الملك 1- 2.

وعلى هذه المبادئ والقيم والأخلاق المستمدة من صفات أسماء الله الحسنى يمتد الأمر على ذلك في إعمار الأرض لمن استمسك بتلك القيم، فتساق إليه الدنيا، ويخضعها لحكم الله ومنهج دينه وسلطان شريعته، دون أن تتعلق منه بنفس أو تسيطر له على فؤاد.

فإذا اختلف الأمر وتراخت القيم، وتسلل حب الدنيا إلى قلوب البشر، انطلقوا يتنافسون فيها، ويتباهون بزخرفها، ويضعونها من حياتهم في موضع الصدارة من الاهتمام، تقلصت القوة من حياتهم، ونزعت الرهبة التي كانت تخيف الآخرين منهم، فيتفرق أمرهم بعد تآلف ويتشتت جمعهم بعد اتحاد. فما علاقة ذلك في بناء الحضارات وانهيارها؟

إن جملة القيم الأخلاقية تنضوي تحت مسميين اثنين هما: الخير والشر، فما كان من باب الخير يندرج في القيم الأخلاقية السامية، وما كان من باب الشر فهو من القيم الأخلاقية المتدنية، وعلى هذا تنقسم إلى ما هو أخلاقي وغير أخلاقي، والأخلاقي هو ما ألفته النفس الإنسانية واطمأنت إليها وإن لم تفعله، وغير أخلاقي هو ما أنفت منها وإن فعلته، وهذه فطرة الإنسان التي جُبل عليها بصرف النظر عن سلوكه وممارساته.

ويبقى أمر مهم لا بدّ من الإشارة إليه في عملية البناء الحضاري لأي مجتمع، ألا وهو الذات، فلابد لأي تجمُّع إنساني يتطلع إلى بناء حضارة من الاهتداء إلى الذات، وتحقيق مقومات هذه الذات، وطبيعي أننا لا نعني الذات البشرية التي تتكون من مقومات الإنسانية العامة التي يتساوى فيها الناس جميعاً. وإنما نعني المقومات الفكرية والاعتقادية، ومن ثم السلوكية التي تنسج الذات الحضارية وتورث لدى التمسك بها كل ما يمكن تملكه من مقومات الاستمرار، وهذه المقومات بالنسبة لنا تتمثل في أصول اعتقادية تشرح لنا حقيقة الكون والإنسان والحياة، وتملأ بذلك ساحة الفراغ الفكري والنفسي، من خلال هذه الأصول، ثم إن وحدة الاعتقاد لابد لها أن تثمر وحدة السلوك المنسجم مع واقع كل من الكون والإنسان والحياة، والتخلق والتحلي بصفات الأسماء الحسنى يحقق هذه العلاقة بشكل متوازن يفضي بالنتيجة إلى الغاية المرجوة في تحقيق خلافة الإنسان.

إن الله تعالى الذي أراد للإنسان أن يكون خليفة له في الأرض أوضح له السبل وبين له المقاصد وسخر له الأدوات والوسائل وفق فطرته وجبلته التي خلقه عليها، من أجل إنجاز ما هو مكلف به من الخلافة والإعمار فشرع له قانون الخير حيث قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}155 فهذه جوامع قوانين الحق والعدل، دعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فهو منهج الله وشريعته إلى خلقه من أجل الوصول إلى السعادة، ونقصد بالسعادة: الموائمة بين متطلبات الدنيا ومرجوات الآخرة وصولاً إلى التحلي بما أمر الله به، والتخلي عما نهى الله عنه، فإذا ترقَّع الإنسان عن هذه الأخلاق المتدنية، أصبح عمله مجردا عن التنافس خالصا لله، وبذلك يخلق بصفات الأسماء الحسنى التي أمر بها الخالق عز وجل من الحق والعدل والرحمة واللطف وما إلى ذلك. وطالما أن الإنسان وصل إلى هذه المرحلة واستمسك بهذه الخلاق، فقد وصل إلى البناء الفكري الحضاري، فالحضارة أصبحت لديه وجود قوة، وهي مجموعة العوامل المعنوية (قيم أخلاقية سامية) والمادية (الأشياء الحسية) التي تنتج حضارة وتخرجها إلى وجود الفعل.

ونحن عندما نتكلم عن الحضارة وفق منهجنا، نقصد الحضارة التي تنتج عن أثر اتصاف الخليفة بالأسماء الحسنى وفق هذه الأسس، ولا نعني بها التجمعات العمرانية المجردة عن أثر الروحانيات، تلك التي تصل إلى أوج عظمتها من التقدم في الصناعة والزراعة والعمران والخدمات، ومباهج الحياة المادية من الترف والبذخ، ولكن كما قال الله تعالى في محكم التنزيل: {وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}156، فهذا هو الأساس القويم في الوصول إلى حضارة يكون نتاجها المدنية الإنسانية التي يكون أثر الأسماء الحسنى أساسها والخلافة غايتها.

وبصرف النظر عن الأسباب التي ساقها ابن خلدون في مقدمته، والتي تركزت في جملتها على القضايا المادية ومجموعة من القيم العلمية في (الصنائع) تنتج العمران والمأكل والمشرب والملبس وهو الأساس العام لأي حضارة إنسانية.

---

155 - آل عمران 104.

156 - القصص 77.

غير أن هذه الأسباب والأسس التي تقوم عليها الحضارات، هي نفسها مدعاة لانهيارها وأُفولها حال فقدان التوازن الناتج عن فائض الحاجة الذي يؤدي إلى البذخ والترف واللهو والفساد في الأرض، حيث تُهمل الأساسيات وينصب الاهتمام على القشور (الكماليات) من التباهي والتفاخر الناتج عن الشعور بالعظمة والكمال وفائض الحاجة المؤدي إلى التبذير وشراء الذمم مع مفاسد الخلاق، فتبدأ عملية الانحدار فالأُفول ثم التلاشي.

وأما الذي نراه، أن النظر في الوجود المطلق مما هو وراء الحس من الروحانيات، وهو التحلي بصفات الأسماء الحسنى، يعطي الحضارة التي تتمسك بهذه الخصائص، أسسا قوية في الاستمرار أكثر من غيرها، ونقول أكثر من غيرها احترازا، لأنه لا يمكن لأيّة حضارة أن تستمر إلى ما لا نهاية، ولكن تبقى القضية نسبية، إذ أن الأجيال المتعاقبة لا تبقى على أخلاق أسلافها. وبتبدل الأخلاق تتبدل القيم، وإذا تبدلت القيم تغيرت العلاقات وأصبحت النظرة إليها نظرة جديدة، وبالتالي يصبح التعامل معها وفق المفهوم الجديد مما يؤدي إلى رفض الماضي على أنه قيم بالية، ويتوجه الاندفاع للتعلق بما هو جديد.

وإذا أردنا أن ندرك معنى إعمار الأرض على حقيقته بما أمر به الله تبارك وتعالى، فأول شيء وجب على الإنسان الخليفة الذي يريد أن يعمر الأرض، أن يتصف بصفات الله في دائرة النسبية حتى يكون إنساناً حضارياً من داخله لأجل إقامة حضارة خارجية، وأن يتصف بإنسانيته التي خاطبه بها ربه بقوله تعالى: {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}157 وهذا تكريم لإنسانيته، فالإنسانية أرفع درجة من البشرية، لأن البشرية تؤطّر الشكل الخارجي للمخلوق العاقل، بينما الإنسانية أشمل وأعمق من البشرية، ذلك أنها تعني الإنسان بشكله الخارجي وما يحمل من قيم فضيلة في داخله تدفع به إلى الخير، فإذا امتلأ إنسانية فتشرب بها ترتب على ذلك شعور بالمسؤولية الإنسانية التي تنبثق عنها الحضارة في إدراك ماله من حقوق، وما عليه من واجبات اتجاه الآخر وما ينبغي أن يحمله من مسؤوليات.

157 ـ العلق 5

إن الإحساس بالآخر هو أول شروط الإعمار وبناء الحضارة، وذلك بالمشاركة في الفرح والحزن في جلب المنفعة ودفع الضرر ومدّ يد العون والمساعدة، وهذا من شروط الإيمان التي تجعل الإنسان خليفة في الأرض من أجل إعمارها، ولا يكون ذلك إلا بالاتصاف وفقا لدائرة النسبية لصفات الخالق عز وجل من الحق والعدل والرحمة وما إلى ذلك.

فالاتصاف بهذه الصفات سيفضي ضرورة إلى تفادي المجابهة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبمعنى آخر هو تفادي الصراع ومن ثم الصدام الحضاري، ذلك أن من يحمل هذه القيم من صفات أسماء الله الحسنى، يستند إلى مرجعية أخلاقية تمنع الظلم والجور والعسف والاستعباد، وتقر الحق والعدل والاعتراف بالآخر وحقوقه.

إن الأسس التي تبنى عليها الحضارة البشرية _احترازاً عن الإنسانية _ إنما هي نظم اجتماعية يدرك قيمتها صاحب السطوة الذي يحاول تقنين النظم الاجتماعية عندما تكون له مصلحة فيها تعود عليه بفائدة، بصرف النظر عن الحق والباطل، وعن العدل والظلم، فهو لم يبنِ بنيانه على التقوى، وإنما على شفا جرف هارٍ.

والذين يعمدون إلى ترسيخ أسس حضارية وفق هذه المفاهيم إنما يؤسسون لصراع حضاري يفضي بالنتيجة إلى صدام يؤدي إلى الانهيار كما قال تعالى: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[158] لأن البناء الذي يقوم على قاعدة متصدعة، فإنها سرعان ما تتهاوى عند أول اختبار حقيقي لقوة تحملها، فعندما تتخلى الأسس عن قيم الفضائل الإلهية التي يجب أن تتبع، باستمدادها من الأسماء الحسان، ويستعاض عنها بقيم وضعية لا يراد بها وجه الله تعالى، فإنها تحمل بذور انهيارها في أسسها التي أسست عليها، فتنهار في الدنيا بحيث تكون مجلبة للمصائب والكوارث، وتنهار بصاحبها في نار جهنم في الآخرة، وقد نبّه الله تعالى على هذا النوع من الحضارات والعمران بقوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي

[158] - التوبة 109

الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}159 فهذه حضارات قامت على الظلم، ولم تؤسس على التقوى، ومعنى ذلك أنها كانت مدعاة للإفساد في الأرض، وهذا مخالف للقانون الإلهي، حيث إن الله تعالى خلق الأرض مهيأة للإعمار فقد قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}160 فهنا نهي عن الإفساد، وأمر بالإعمار، لأن الله تعالى أصلحها لذلك، وأمر المحسنين بإعمارها كونهم يتصفون بصفاته تعالى ولذلك فالمصلحون هم العاملون فيها والعاملون عليها أما أولئك المستهلكون فهم عبء على جهود العاملين فيها.

نحن ندرك قيمة النظم الاجتماعية الناتجة عن ثقافة المجتمع التي ولّدتها الحاجة واعترف بها الآخرون، كونها تخدم مصلحة المجتمع في حينها، غير أن الطامحين الذين تصب هذه النظم فوائد في مصالحهم، يجعلون منها تشريعاً وقانوناً ثابتاً لا يتغير إلا وفقاً لما تقتضيه مصالحهم.

إنُ الفكرة الحضارية التي يتقبلها أي مجتمع يجب أن تكون متكاملة بحيث تتطابق مع الجانب الإنساني للإنسان، مما يعطيها اطراداٍ ً وثباتاً يقتضي سمة التغيير الحضاري من أجل الاندماج في السمات الأصيلة للحضارة التي يتكيف ويتوافق معها أي مجتمع أخلاقياً من حيث الفضائل، واقتصادياً واجتماعياً فتصل إلى المدنية عندما تتجاوز المادية بحيث يكون هدفها الإنسان.

وعلى هذا فإن الإنسان الذي يتصف بالصفات الحسان يكون قد بُنيَ أخلاقيا وحضارياً مما يعكس ذلك على تصرفاته وأفعاله في إعمار الأرض، وكلما زادت الصفات الحسان في الإنسان ظهر أثر ذلك في العمارة والبناء والتنظيم والأخلاق والعلاقات الاجتماعية، فهذه السمات هي التي تترك أثراً قيمّياً، فمن يستمد نظمه وأعماله وصفاته من الأسماء الحسان يترك حضارة يقتدى بها، ذلك أن الحضارة هي صفات محبة وبناء إنسان إيمانياً وأخلاقياً ينتج عنه حضارة مادية تعمر الأرض خدمة للإنسان، وتكون حضارة باقية لأنها تستمد من صفات الباقي، فان

---

159 - الفجر

160 - الأعراف 56

انتهت ماديا فلا بُدَّ أن تبقى النواة المولدة لها في داخل الإنسان الخليفة الذي خلق لهذه المهمة وكُلِّف بها.

ولاشك أن تعدد الأسماء والصفات مثير لمكامن الفكر وهو يسبر أغوار الحقيقة الباحثة عن ماهية الذات، وموجبات تعدد أسمائها وصفاتها، فقد أنكر البعض وجود التعدد أصلا مخافة شبهة الإشراك، وذهبوا في ذلك مذاهب متعددة منها:

1- إن تعدد الصفات يعني تعدد الذات، وكان الذي زين لهم ذلك الحرص على توحيد الله تعالى وتنزيهه عن العدد والكثرة فكان نزغة من نزغات الشيطان وإلا فمن يقول إن تعدد الصفات تدل على تعدد الذات أيا كانت تلك الصفات161 .

2- إن الصفة عين الموصوف، وإن كل صفة عين الصفة الأخرى وهذا موجب للتعدد، وهذه مكابرة في المعقولات، فإن من المعلوم بضرورة العقل، والحس أن الصفة غير الموصوف، وأن كل صفة غير الصفة الأخرى فالعلم غير العالم، والقدرة غير القادر، والكلام غير المتكلم، كما أن العلم والقدرة، والكلام صفات متغايرة.

قولهم : "إن إثبات صفات متغايرة مغايرة للموصوف يستلزم التعدد .." قول باطل مخالف للمعقول، والمحسوس فإنه لا يلزم من تعدد الصفات تعدد الموصوف فها هو الإنسان الواحد يوصف بأنه حي، سميع بصير، عاقل، متكلم إلى غير ذلك من صفاته ولا يلزم من ذلك تعدد ذاته"162.

قولهم : "في الأسماء إن إثباتها يستلزم أن يكون متصفاً بمعنى الاسم فيقتضي أن يكون إثباتها تشبيهاً" جوابه: أن المعاني التي تلزم من إثبات الأسماء صفات لائقة بالله تعالى غير مستحيلة عليه، والمشاركة في الاسم أو الصفة لا تستلزم تماثل المسميات والموصوفات163.

وقد ردّ كثير من العلماء على هذه التناقضات الفكرية، وتناولوها بالنقد والتحليل، فالإنكار يرفضه العقل ولا ندري ماذا يقولون في أنفسهم؟. فالواحدُ منهم يوصفُ بأنه عالمٌ، وغنيٌّ،

---

161 محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، 136.

162 ابن عثيمين، المجلي شرح القواعد المثلي من شرح القواعد المثلي في الأسماء والصفات الحسنى، 107.

163 المرجع السابق 107.

وصـــانعٌ، وتـــاجرٌ. والواحــدُ مــنهم لـــه عِــدَّةُ صــفاتٍ، هــل معنـــى ذلــك أن يكــونَ عِــدَّةَ أشخاصٍ؟؟!!.هذه مكابرةٌ للعقولِ؛ فلا يلزمُ من تعددِ الأسماءِ والصفاتِ تعدُّدَ الآلهةِ، ولهذا لمَّا قال المشركون من قبلُ لَمَّا سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (يا رحمن، يا رحيم) قالوا: هذا يزعم أنه يعبدُ إلهًا واحدًا، وهو يدعو آلهةً متعددةً، فأنزل الله – سبحانه وتعالى – قوله: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}164، فأسماء الله كثيرة، وهي تُدلُّ على كمالِه وعظمتِه سبحانه وتعالى ولا تدلُّ على تعدُّدِ الآلهةِ – كما يقولون –، بل تدلُّ على العظمة والكمالِ لله وحده165.

"إن وصف الله تعالى بصفات الإثبات أدل على الكمال من وصفه بصفات النفي، لأن الإثبات أمر وجودي يقتضي تنوع الكمالات في حقه، وأما النفي فأمر عدمي لا يقتضي كمالاً إلا إذا تضمن إثباتاً وهؤلاء النفاة لا يقولون بنفي يقتضي الإثبات"166 .

ويذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى "أن اتصاف الذات بالصفات اللازمة لها توحيدٌ في الحقيقة"167.

أما الذاتُ المجرَّدةُ التي ليس لها صفاتٌ فهذهِ لا وجودَ لها، مستحيلٌ وليس له صفاتٌ، أبدًا، ولو على الأقل صفة الوجود168.

وربما يمكن لنا أن نناقش قضية تعدد الأسماء والصفات من جانب عقلي لمعرفة حقيقة التعدد وموجباته للذات الواحدة، أو لا يجب البحث في ماهية الذات، ولابد لهذا النمط المعرفي من سلسلة افتراضات هي:

هل الذات جزء لكل؟

هل الذات كل لأجزاء؟

هل الذات مطلق؟

---

164 الإسراء 110.

165 المناهج والفرق 232..

166 ابن عثيمين، المجلي شرح القواعد المثلي من شرح القواعد المثلي في الأسماء والصفات الحسنى، 107.

167 أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الرسالة التدمرية 118.

168 كتب المناهج والفرق232.

لمناقشة الافتراض الأول نقول لا يمكن أن تكون الذات جزءاً لكل لأن ذلك يقتضي وجود كلٍّ يتجزأ منه بفعل إرادي أو لا إرادي وبزمن استغراقي يتمخض لا محالة عن وجود أجزاء مكملة.

والذات منتفٍ عنها هذا، فلا توالد أوجدها ولا أوجد لها، {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}169، فالإيجاد (لم يولد) معناه حدوث وإقرار بأسبقية سواه عز وجل، والتوالد (لم يلد) معناه الاشتراك في الصفة والحكم والفعل وهو ما ذهب إليه أصحاب الثالوث، {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}170.

وهذا ادعاء مج لا يقبله العقل لان الاشتراك يوجب أن تكون الأجزاء المكونة للكل بذات القدرة على الإتيان بفعل واحد في برهة واحدة وبجودة متطابقة كليةً، وهذا وهم وقع فيه أصحاب هذا الادعاء لأن الله سبحانه وتعالى يفوق عيسى عليه الصلاة والسلام بالمطلق، ويعجز عيسى عن أن يكون بعض ذات الله بالمطلق وهو ما أقر به لسانه صلى الله عليه وسلم كما يخبرنا العليم عز وجل فيقول: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}171 ولذا فإن الخالق لا يقارن بالمخلوق وذلك لانعدام التماثل، وهذا مرتبط بخلق عيسى صلى الله عليه وسلم فهو يمرض ويجوع ويغضب ويهلع ويضعف ثم بعد ذلك هو يموت، فمن أين جاء الاشتراك مع الله في صفة أو حكم أو فعل؟

فالذات ليست جزءاً وهذه الأسماء والصفات لم تكن أسماءَ وصفاتٍ لأجزائها.

169 الإخلاص 3.
170 النساء 171 .
171 المائدة 116-117.

فهل تكون كلا لأجزاء كما في الافتراض الثاني؟

هذا غير ممكن أيضا لأن الكل قابل للتجزئة بكل حال من الأحوال، مما يفضي إلى وجود أجزاء متحدة للتكوين، وهو يستلزم وجود قوة رابطة للأجزاء وكل ذلك محتاج ولابد من استغراق الزمن للتكون والاتحاد، ثم بعد ذلك يتوجب اتفاق الأجزاء، وهو أمر مستحيل كما يخبرنا الخبير عز وجل: {أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ}172 .

بقي الفرض الثالث (المطلق) وهو يليق بوصف الذات لأن المطلق يدل على الماهية بلا قيد173، أي ينتفي عن الوصف بالمطلق البداية والنهاية، والزمن واستغراقه، كما أن المطلق لا يحتويه الحيز وهو محتويه.

والمطلق يوجب اتصاف الذات بإطلاقية الفعل، فإذا كان الفعل مطلقاً تعددت الأسماء والصفات الدالة على الذات ومختلف فعلها.

فما هي طبيعة التعدد ؟ وما هو تفسيره؟

للإجابة نقف عند حقائق التعدد وهي:

1- إن هذه الأسماء والصفات لا تدل على متعدد لمختلف، فكل هذه الأسماء والصفات تدل على ذات واحدة هي ذات الله سبحانه وتعالى، وقد أكسبها تعددية الصفة الفعل المختص المطلق، وهو الفعل الذي لا يمكن لمخلوق الإتيان به بالمطلق، فكل الصفات يقابلها فعل مخصوص مطلق للذات، فلو قلت الكريم صفة لله دل ذلك على كرم مطلق لم يرتق إلى مرتبة فعله أحد وإن سعى لأن فعل الإكرام منه سبحانه عام ودائم فهو مطلق، بينما إكرام البشر للبشر منقطع فلا يليق أن يكون الإطلاق وصفا له لانقطاعه.

---

172 الأنبياء 21-24.

173 محمد عبد الرءوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف 1663.

ومن أمثلة ذلك المعجزات فقد دلت المعجزات الإلهية على الفعل المطلق المخصوص به وحده جل في علاه وهي كثيرة أكبر من قدرتنا على الإحصاء ولكن نذكر خلق السموات والأرض وخلق الإنسان فهما يكفيان العاقل لبيان مفهوم الفعل المخصوص المطلق.

والمعجزات هي فعل مختص على وجهين:

الأول: الأداء.

الثاني: التفرد.

وفعل الله معجزة بالنسبة لنا وليس بالنسبة للفاعل، لأنه صاحب الفعل.

وعليه فإن امتلاك الذات للفعل المختص المطلق أكسبها عديد الأسماء والصفات التي تدل عليها وعلى فعلها، فهي متعدد لواحد.

2- لا تدل الأسماء الحسنى على الترادف، لأن الترادف يعني التكرار ويقبل الاستغناء ويسمح بالاستبدال، وهو بعيد كل البعد عن حقيقة الذات وطبيعة فعلها، فالرحمن والرحيم والرءوف تدل على محتوى متقارب غير متطابق بفعل المضمون الامتلائي لدلالاتها، ولو كانت متطابقة لكانت عبارة عن مترادفات تعاني من الخواء المضموني تنزه في علاه عن ذلك، وكان هذا الأمر من أحد أهداف هذا الكتاب حيث سيتجلى للقارئ الدلالات الخاصة لكل اسم وصفة بما يميز بين كل منها.

3- وهي لا تدل على التضاد، فحين نقرأ في الأسماء والصفات (المانع والمعطي، النافع والضار، والمنتقم والرؤوف) نعلم أنه لا تضاد في هذه الأسماء والصفات لأن الضد يوجب التناقض والله منزه عنه جل شأنه.

فكيف نفسرها؟

نقول: إن هذه الصفات حق ومن حق ولحق، فالنافع هو الذي يفعل ما ينفع المخلوقات بالإيجاب والسلب فهو بالحياة ينفع وبالموت ينفع، وكذلك الضار بفعل الضرر يضر وينفع وهذا هو التوازن الحاصل في الصفة الواحدة بما يمنع التناقض في داخلها، وكذلك الأمر

بالنسبة للصفات المتعددة حيث ترتبط بعلاقة التئام لا علاقة انفصام تفضي بها إلى التضاد لأنها دالة على ذات واحدة غايتها الحق وإحقاقه فإذا توحدت الغاية انتفى التناقض بالفعل.

فالضد إذاً مصطلح لا يتسع دلاليا لاحتواء أسماء الله وصفاته، ذلك أن مطلقية الصفة المفردة يمنحها الاتساع الدلالي المعبر عن تنوع أجزاء الفعل واختلاف طرق أدائه.

فكل اسم من أسماء الله الحسنى هو كمال مطلق في ذاته، مكتفٍ بدلالاته لبيان المضامين والصفات التي يشع بها الاسم الحسن، فاسم الله كمال بذاته لا يحتاج إلى ما يتم به معناه، فلا موجب لذكر اسم النافع عندما يذكر اسم الضار، لان في كل من الضار والنافع دلالاته التي تؤدي معناه بشكل تام، فمسألة الاقتران الشرطي لاسم بآخر فيها من الإيحاء بحاجة الاسم إلى غيره لبيان معناه وهي إشارة غير مباشرة إلى وجود نقص من نوع ما في اسم وآخر (حاشا لله)، ونعتقد أن هذا أمر لا يليق بالأسماء الحسنى، فقد ذهب الإمام الجليل ابن تيمية إلى شرط اقتران اسم باسم في الذكر والدعاء فقال: "إذا ذكر باسمه الخاص قرن بالخير كقوله في أسمائه الحسنى الضار النافع المعطي المانع الخافض الرافع المعز المذل فجمع بين الأسمين لما فيه من العموم والشمول الدال على وحدانيته وأنه وحده يفعل جميع هذه الأشياء ولهذا لا يدعى بأحد الاسمين كالضار والنافع والخافض والرافع بل يذكران جميعا"174.

ثم يفصل القول مدللا على ذلك بقوله: "وكذلك الأسماء التي فيها ذكر الشر*، لا تذكر إلا مقرونة، كقولنا: "الضار النافع، المعطى المانع، المعز المذل" أو مقيدة، كقوله: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ }175، وكل ما خلقه . مما فيه شر جزئي إضافي . ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك، مثل إرسال موسى إلى فرعون، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه، وذلك شر بالإضافة إليهم، لكن حصل به . من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة، والاعتبار بقصة فرعون . ما هو خير عام، فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضر به، كما قال تعالى: {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا

174 منهاج السنة النبوية ابن تيمية 5410.

* ناقشنا قضية الخير المطلق في أسماء الله الحسنى في عرضنا لاسم المنتقم ودلالاته في المقدمة وفي متن الكتاب.

175 السجدة 22.

لِلْآخِرِينَ}176، وقال تعالى بعد ذكر قصته: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ}177، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم، شقي برسالته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب، وهم الذين كذبوه، وأهلكهم الله تعالى بسببه، ولكن سعد بها أضعاف أضعاف هؤلاء"178 .

وتابعه كثير من المحدثين في عرضهم للأسماء الحسنى باقتران شرطي، فهم يتحدثون عن اسم المعز واسم المذل في آن واحد، كأنهم يقولون أنه لا يمكن الحديث عن اسم المعز دون اسم المذل، ونعتقد أن هذا غير دقيق فكل اسم من الأسماء الحسنى له كمال الدلالة الذي يوضح معانيه ويبرز الصفة الأكمل له والصفات الحسان الأُخر، فكل أسماء الله الحسنى هي كمال في ذاتها، إلا أن ورود بعضها بشكل ثنائيات يظن البعض أن كمالها لا يتحقق إلا بهذا النسق، وكأن هذه الأسماء لا تنفك عن هذا الارتباط الذي لا بد أن يتحقق حتى يتحقق المعنى المراد، من ذلك قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}179 سياق الآية العام هنا قائم على أمر مهم ألا وهو الملك الذي يدور حوله كثير من المعاني التي تتعلق به، وقد لا تتعلق به فقط بل تكون على ارتباط كبير معه، فتحققها مرتبط به، فقوله تعالى: {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ}، السياق هنا يحيل إلى اسمي الله تعالى المعز والمذل، ونحن نذهب إلى القول بأن كل اسم له استقلاليته الخاصة ومطلقيته، إذن لماذا الورود هنا بهذا الشكل؟ إن الورود بهذا الشكل جاء ضمن سياق إيضاح ملك الله تعالى المتحقق، فاسم المعز والمذل يشكلان صورة العزة للمؤمن، وصورة الذلة للكافر، فضلا عن ذلك أن كل صورة تزيد الأخرى وضوحا، فالذي يرى العز أولا ثم يرى الذل ثانيا، تتحقق له الصورتان تحققا واضحا دون أن يفكر ولو لبرهة أن يكون بين الاسمين ترابط حتمي، بل يجد

176 الزخرف 55.

177 النازعات 26.

178 مجموع فتاوى ابن تيمية 223 115.

179 - أل عمران 26

أن كل صورة إنما هي مستقلة عن الأخرى، لكن هذا الجمع يزيد من قوة التأثير والإيضاح والبيان.

ولا نتصور أن العز والذل التي هي بيد (الله تعالى) مقصور على الأمور الحسية المادية، بل أن العزة والذل يكون بالإيمان والكفر، فالمؤمن عزيز وان كان فقيرا، والكافر ذليل وان كان غنيا، إذ يقول تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}180 وهذه الآية نزلت في مكة والمسلمون بأضعف حال وأشد عازه، فأين العزة إذن؟ إنها عزة الإيمان وتوحيد الله تعالى والثبات على القيم والمبادئ الفاضلة، ويمكن ملاحظ كيف أن الله تعالى يعلمنا أن نكون أذلاء مع بعضنا البعض أي الخليفة مع الخليفة الآخر بينما يكون عزيزا مع الكافر والمشرك، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}181. فصورتا العز والذل المتحققتان بالوجهين المادي والمعنوي هما ليست حالة واحدة إنما هما حالتان اثنتان كل واحدة توضح الأخرى وتزيدها إيضاحا، وهنا يمكن القول أن فلسفة النص تحيل إلى تداعيات معرفية تنير الفكر وتستبطن دلالته ضمن رؤية حية قابلة لتعدد دلالات مختلفة تثير تساؤلات متجددة، تكون حاضنة لثنائيات مختلفة تدور في فلك واحد يحققها، ويحقق انفصالها التام ضمن إظهار دلالتها الكاملة التي تحيل إلى اسم الله تعالى.

أما اسم الضار والنافع فهما يشكلان ترددا عاليا عند الأصوات التي تقول عند ذكر الضار لابد من ذكر النافع، وهذا يحيلنا إلى القول أن الضار اسم وحده لا يتعلق ولا يرتبط بأي اسم أخر، فمن خلال السياقات المختلفة التي ورد بها النص القرآني نجد أن الضر جاء لغرض ينساق خلفه قراءات متعددة، من ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا

[180] - المنافقون 8

[181] - المائدة 54

كَانُوا يَعْمَلُونَ}182، وقوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}183 السياق في هذه الآيات يدور حول الإنسان في قضية مهمة تحدد توجهه العقائدي، فبعد تعرضه إلى ضر لا يفكر في أي شيء إلا الله تعالى داعيا له ليكشف ما به من ضر، وبعد كشف العذاب نسي ما كان فيه من الشدة والبلاء، وترك الشكر لربه الذي فرَّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء، كما زُيِّن لهذا الإنسان استمراره على جحوده وعناده بعد كشف الله عنه ما كان فيه من الضر، زُيِّن للذين أسرفوا في الكذب على الله وعلى أنبيائه ما كانوا يعملون من معاصي الله والشرك به.

وهنا اتضحت صورة الضر التي تحيل إلى اللجوء إلى الله تعالى بمعنى أن الضر هنا ليس ضرا في حد ذاته إنما هو صورة من صور الرحمة الربانية للتفكر والتبصر والرجوع إلى الله تعالى، وحتى من باب الاختبار، فمن الأمثلة الشاخصة في هذا المضمار قصة سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}184 إن النبي أيوب عليه الصلاة والسلام كان ذا ثروة واسعة وعائلة صالحة متواصلة، ثم ابتلي بإصابات لحقت أمواله متتابعة فأتت عليها، وفقد أبناءه السبعة وبناته الثلاثَ في يوم واحد، فتلقى ذلك بالصبر والتسليم. ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده، وتلقى ذلك كله بصبر وحكمة وهو يبْتهل إلى الله بالتمجيد والدعاء بكشف الضر. وتلقى رثاءَ أصحابه لحاله بكلام عزيز الحكمة والمعرفة بالله، وأوحى الله إليه بمواعظ. ثم أعاد عليه صحته وأخلفه مالاً أكثر من ماله وولدت له زوجه أولاداً وبنات بعدد من هَلكوا له من قبلُ185.

إن كل السياقات التي وردت تدلل على الضر الذي يتعرض له العبد ضمن صور متتابعة قد تتحقق في البحر وفي البر، ثم كانت الصورة الأخيرة صورة الضر الذي تعرض له النبي

182 - يونس 12
183 - النحل 53 - 54
184 - الأنبياء 83 - 84
185 - التحرير والتنوير ج 9 ص 195

أيوب عليه الصلاة والسلام، إذن أين النفع؟ ضمن التصورات الإنسانية أن كل هذه الحالات هي ضر وليس فيها نفع، لان صورتها المتحققة تثير أمر الهلاك والذي بدوره لا يقدم شيء للإنسان سوى رسم الآلام التي قد تؤدي إلى النهاية في أكثر الأحيان، لكن عند ربط الضر بالعقيدة الإسلامية، نجد أن الضر لا يكون ضرا في حد ذاته، إنما هو صورة ممهدة للنفع الذي يتحقق بعد زوال الضر، فصورة الضر الذي تعرض له النبي أيوب عليه الصلاة والسلام نجدها شغلت حيزا كبيرا ضمن صفة لم تتحقق عند كثير من الخلق ألا وهي الصبر، فالصبر صفة نفعية اكتسبت نفعها من الضر الذي ظهر بشكل كبير ومؤثر في السياق القرآني، أما النفع فيكون في الدنيا والآخرة، لان ثمرة الصبر منبعثة من الضر، وهنا يبرز اسم النافع ليدل على صورة معبرة ومستقلة عن اسم الضار. وفي السياق نفسه إن الضر الذي تعرض له فرعون وقارون الدال على صورة الهلاك هو ضر بالضر الذي يحقق عدالة السماء في الأرض، ففي فرعون يقول الله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}186. وفي قارون قال الله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}187 فالضر المتحقق هنا هو ضر للضر نفسه، ففرعون وقارون شخصيتان متحقق منهما الضر، وهذا الضر لا بد أن ينتهي من خلال ضر يضربه فيحقق نفعا، فيكونان عبرة وعظة لكل الخلق، ففي فرعون قال الله تعالى: {فَكَذَّبَ

186 - يونس 90 - 92
187 - القصص 79 - 83

وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}188 والعبرة تشكل امتداد معرفي ينساق خلف قراءات متعددة، تكون منهجاً للفكر الإنساني على مدى زمن طويل ينتهي بنهاية الحياة.

وعليه فإن كل اسم مستقل بإظهار صفة محددة يدل عليها أكثر من صفة أخرى وإن تضمن ذات الاسم عديد الصفات لكن تبقى هناك في كل اسم صفة أساسية يدل عليها، فاسم الرحمن يدل على مطلق الرحمة بشكل أساسي ويحمل في دلالاته صفات أخرى كالرأفة واللطف والمغفرة والرزق وغير ذلك مما يليق بالله وبأسمائه الحسنى.

وهذا دفعنا إلى الكتابة عن كل اسم من الأسماء الحسنى بشكل مستقل، مستهدين ومؤمنين بما توصلنا إليه من حجج واضحة في مناقشة قضية الاقتران الشرطي للأسماء.

4- تدل على الفعل الظاهر، فالأسماء والصفات تدلنا على الفعل الظاهر له سبحانه وتعالى فتقول رزاق لأنه يرزق من يشاء وهو فعل ظاهر، وتقول التواب لأنه أخبر عن نفسه بذلك فقال: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}189، فإذا وضح الفعل غاب الترميز فكانت معرفتنا بهذه الأسماء والصفات وإيماننا بها للظهور أو الإخبار، أما الفعل الباطن فنحن لا ندرك كنهه، بل نعرف الفعل البين الظاهر ونؤمن بالقدرة على الإتيان بالفعل الباطن لأننا نعرف أن من أسمائه سبحانه وتعالى (الباطن) فوجب على ذلك وجود فعل باطن لا نعرفه اختص به سبحانه وتعالى لنفسه أو لمن اصطفى من خلقه، وهو ما أخبر عنه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فقال: "اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمِكَ، نَافِذٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلِمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ غَمِّي".

---

188 - النازعات 21 - 26

189 البقرة 160.

5- ذات مضمون امتدادي، سبق القول بالمطلقية وتم تأكيد ذلك فيما سبق، والمطلقية تعنى الامتداد اللامنتهي، فكل صفة من الصفات ذات مضمون امتدادي، وعلمنا به ينتهي في لحظة انتهاء القدرة، أما لحظة التجاوز إلى المساحة المحجبة عنا فمقرونة بإرادة الذات.

فعند النظر في النص القرآني نرى أن أسماء الله الحسنى تحمل أكثر من صفة، من ذلك قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}190 فقد جاء اسم الله تعالى (الرزاق) ضمن نسق تتابعي، إذ كانت البداية باسم (الرزاق) ثم جاءت بعدها صفات تدور في فلك الاسم المتحقق، لترسم صورة قوية وموحية أن الرزق لا يكون إلا من صاحب القوة المتين وليس من غيره، فضلا عن ذلك أن الذي يرزق لا بد أن يكون ذو قدرة وأن يكون متينا، فإذا لم يكن كذلك فهل يستطيع أن يرزق؟ هذا السياق فيه إحالة إلى المشركين الذين يعبدون الأصنام ابتغاء الرزق، إذ يقول تعالى: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}191. فالتداخل بين هذه الصفات هنا يتشكل مع الخطاب الخاص المراد تحقيقه على مستوى التأثير، وعلى مستوى بيان طبيعة ما يحمله فكر المخاطب ضمن دائرة محددة يراد لها الإيضاح التام كي تتحقق الصورة النهائية المطلوبة، وهي أن الله صفته رزاق فالرزق منه وحده سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ}192 كما ذهبنا إلى القول أن أسماء الله تحمل أكثر من صفة، وأسم الله تعالى (القادر) يحمل أكثر من صفة، ومن بين الصفات التي يحملها هي صفة (البعث)، والتي بنيت عليها الآية هنا ضمن رسم صورة التهديد الذي تتحقق بإرسال العذاب الذي من فوق مثل الصواعق والريح، والذي من تحت الأرجل مثل الزلازل والخسف والطوفان وغيرها كثير. فضلا عن ذلك أن الله تعالى قادر أن يخلطهم وهذا الخلط يؤدي إلى الفتنة وقتل البعض البعض الأخر. والله تعالى قادر

---

190 - الذاريات 58

191 - العنكبوت 17

192 - الأنعام 65

على ذلك كله، فلابد من الحذر من الإقامة على المعصية، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك. ولكن من رحمته أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب، ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالخسف. عَنْ جَابِرٍ – رضي الله عنه – قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». قَالَ (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قَالَ « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – «هَذَا أَهْوَنُ». أَوْ «هَذَا أَيْسَرُ»[193].

إن ورود الأسماء وبعدها الصفات المتعددة يأتي متشكلا مع سياق الآية، فينضح ما ترمي إليه وفق صورة واضحة المعالم تستبطن وتكشف خبايا النص العام، من ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}[194] فمن دلائل قدرة الله تعالى، وعظيم شانه أنه ينزل المطر من السماء فتخضر الأرض فترتسم الحياة عليها ضمن صور متتابعة تبدأ من باطن الأرض، إذ تتحرك النباتات في باطن الأرض ثم تشقها وتخرج منها، وهنا نجد قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} "في موقع التعليل للإنزال، أي أنزل الماء المتفرّع عليه الاخضرار لأنه لطيف، أي رفيق بمخلوقاته، ولأنه عليم بترتيب المسببات على أسبابها"[195].

وقوله تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[196] هنا السياق العام للآية فيه ترابط من بدايته إلى نهايته، فالبداية كانت مع التوبة التي جاءت بعد الظلم المتحقق، ثم تبع التوبة الإصلاح، وهنا النص ينفتح على صفات الله تعالى التي تتعلق بالسياق العام للآية لتكون خاتمتها، بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فالغفران والرحمة صفتان تتوافقان مع سياق التوبة المراد في الآية.

---

[193] - صحيح البخاري ج 15 ص 208

[194] - الحج 63

[195] - التحرير والتنوير ج 9 ص 306

[196] - المائدة 39

وقوله تعالى: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}197 في هاتين الآيتين يرد اسم الله تعالى، ثم بعده ترد الصفات المتعددة، وهذه الصفات تثير في القارئ العودة إلى بداية الآية، ذلك أن تعدد الصفات يفتح ملف التساؤلات عن سبب تعداد الصفات دون تكرارها في آيات أخرى، فسميع عليم فيها إحالة إلى أن الله سميع لمن دعاه، فلا يفوته قول من أقوال من يجهر بالسوء، وهو عليم بالبواعث التي أدت إليه. أما قوله تعالى: (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا) فالصفتان هنا تحيلان إلى القول إن عملتم خيرا في الجهر أو في السر، أو عفوتم عمن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله، ويجزل ثوابكم لديه، فيتجاوز عن سيئاتكم، لأنه تعالى يجزي العباد من جنس أعمالهم. ومن صفاته تعالى الصفح عن عباده، مع قدرته على عقابهم198. وفي هذا السياق يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما نَقَصَ مال من صدقة – أو ما نقصتْ صدقة من مال – وما زاد اللهُ عبدا بعفْو إلا عزّا، وما تواضَعَ عبد لِلهِ إلا رَفَعَهُ اللهُ"199

والمتتبع لكل السياقات لتي وردت فيها الصفات بعد الأسماء، سواء أكانت صفة واحدة أو أكثر من صفة، فان كل ورود جاء يتناسب مع سياق النص القرآني وفي ضوء المضمون الامتدادي للاسم أو الصفة.

وبعد هذا العرض يبدو جليا أن التعدد مصدره تعدد فعل ذات واحدة مما قابل ذلك أسماء وصفات تدل على فعل الذات الواحدة وصفاتها.

أنماط ورود لأسماء الله:

قد قمنا بعملية إحصاء استدلالي لهذه الأسماء والصفات في القران الكريم نهدف من خلاله إلقاء الضوء على أنماط ورودها، وهي كالآتي :

197 - النساء 148 - 149

198 - أيسر التفاسير ، أسعد حومد ج 1 ص 462

199 - جامع الأصول من أحاديث الرسول ، ج 1 ص 4719

أولاً: الذكر نصاً: ورد في القران الكريم خمس وخمسون اسماً من أسمائه الحسان بالنص هي: (الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصوّر الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم السميع البصير اللطيف الخبير العظيم الغفور العلي الكبير الكريم الرقيب الحكيم الودود المجيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد الحي القيوم الواحد الصمد القادر الأول الآخر الظاهر الباطن المتعال البر التوّاب مالك الملك ذو الجلال والإكرام الغني الوارث)، ويظهر اسم (الله) بما يفوق كل الأسماء الأخرى فقد ورد في ألفين وسبع وخمسين آية كريمة تلاه اسم العليم ثم الرحيم ثم الحكيم ثم العزيز ثم الغفور ثم الرحمن ثم السميع فالبصير والخبير وهكذا تأتي بقية الأسماء متفاوتة في عدد مرات الذكر في آيات القران الكريم.

ثانياً : الذكر الدلالي: أي أن يرد في آيات القران الكريم ما يدل على الاسم وهو على نمطين:

1- الصفة الدالة على الاسم، وذلك بأن تتضمن الآيات الصفة الدالة على الاسم وبما يدل على ستة عشر اسماً وهي على النحو الآتي:

-الشكور، {إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}[200].

- الحفيظ ، {إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ }[201].

- الْمُقِيتُ، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا}[202] .

- الْحَسِيبُ، {وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}[203].

-الْمُجِيبُ، {إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}[204] .

-الواسع، {وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا}[205] .

-الشهيد، {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا}[206].

---

200 فاطر 30.

201 هود 57.

202 النساء 85.

203 النساء 6.

204 هود 61.

205 النساء 130.

-المقتدر ، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}[207].

-الحليم، {وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[208].

-الْعَفُوّ، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا}[209].

-المنتقم، {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[210].

-الرءوف، {وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}[211] .

-الجامع، {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}[212].

-النور ، {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[213] .

-الوالي، {وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}[214] .

-البديع، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[215] .

2- الفعل الدال على الاسم، وبما يدل على ستة عشر اسماً وهي على النحو الآتي:

-القابض، {وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[216].

-الباسط، {وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[217] .

-الرافع، {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[218].

-الْمُعِزُّ، {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[219].

---

206 النساء 33.
207 الكهف 45.
208 البقرة 225.
209 النساء 43.
210 الأعراف 136.
211 البقرة 207.
212 آل عمران 9.
213 النور 35.
214 الرعد 11.
215 البقرة 117.
216 البقرة 245.
217 البقرة 245.
218 المجادلة 11.
219 آل عمران 26.

–الْمُذِلُّ، {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[220].

–الحكم، {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}[221].

–الْبَاعِثُ، {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[222].

–المؤخر، {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[223].

–الْمُحْصِي، {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[224] .

–الْمُبْدِئُ، {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ}[225].

–الْمُعِيدُ، {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ}[226].

–الْمُحْيِي، {إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}[227].

–الْمُمِيتُ، {إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}[228].

– الْمُقْسِطُ، {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[229].

–الهادي، {يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[230].

–الباقي، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }[231] .

---

220 آل عمران 26.
221 الأنعام 62.
222 المائدة 164.
223 المنافقون 11.
224 المجادلة 6.
225 البروج 13.
226 البروج 13.
227 التوبة 116.
228 التوبة 116.
229 يونس 54.
230 البقرة 142.
231 الرحمن 26-27.

ثالثاً–ما لم يذكر في القران من الأسماء، وإنما ورد بنص الحديث الشريف وهي على النحو الآتي:

(الخافض، العدل، الجليل، الواجد، الماجد، المقدّم، المغني، المانع، الضار، النافع، الرشيد، الصبور).

بقي أن نثير فيك سؤالاً حتمياً أيها القارئ مفاده، ما الفرق بين الاسم والصفة؟ وما هي أسماء الله جل في علاه؟ وما هي صفاته؟

لابد للإجابة على هذا السؤال من تقرير حقائق لا يمكن إغفالها لكي يتحصل المعلوم غير المدرك وهي:

أولا: إن ذات الله لها أسماء ولها صفات، وهي غير متطابقة في دلالتها، فالاسم دال على الذات، والصفة دالة على بعض أحوالها232، ولو كان الاسم والصفة بذات المعنى لأمكن الاستغناء عن أحدها والاكتفاء بالآخر، وسيكون الاسم بالتأكيد باقياً لان الله اختاره فقال عز وجل: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}233.

ثانيا: ذكر الله جل وعلا في كتابه الحق أن له أسماء حسنى في كل الآيات المحكمات التي ذكّرنا فيها سبحانه وتعالى بأسمائه على سبيل الجمع (الأسماء)، وعلى سبيل الإفراد (اسم)، وهي على النحو الآتي:

أولاً: ذكر الأسماء الحسنى بصيغة الجمع دلالة قاطعة على تعددها:

-{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}234 .

- {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}235 .

- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}236.

---

232 التعريفات ، الشريف الجرجاني 143.

233 طه 8.

234 الأعراف 180

235 الإسراء 110.

– {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}237.

ثانياً: ذكر الاسم بدلالة المفرد تذكيرا وتعليماً بسبل دعوته سبحانه وتعالى، فأولى الذكر والدعاء ما كان بأسمائه:

– {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}238 .

– {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا}239 .

– {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}240 .

– {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}241 .

– {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}242 .

وفي مقابل ذلك لم تذكر الصفات ولا في آية واحدة بالنص، مما يوجب أن تُعرف بالتأويل.

ثالثاً: إن ما تعارف عليه البعض من وصف الأسماء بأنها صفات مخالف لقول الله سبحانه وتعالى، فربما توهم البعض بأن الرحمن صفة لله، وهو غير ذلك بنص الرحمن جل شأنه، يقول عز من قائل: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}243، فالرحمن اسمه جل في علاه كما تدل الآية وهي حجة قاطعة لكل اجتهاد، وليس صفة من صفاته وإن غلبت عليه صفة الرحمة فاصطبغ بها.

إذا عرفنا هذا فكيف نفرق بين الأسماء والصفات؟

اعلم أن "الاسم هو ما دل على معنى في نفسه دلالة مجردة عن الإقتران"244، وهو كل كلمة دلت على معنى في نفسها ولم تقترن بزمن245، أما الصفة فهي المشتق للدلالة على

---

236 طه 8.
237 الحشر 24.
238 الرحمن 78.
239 المزمل 8.
240 الإنسان 25.
241 الأعلى 1.
242 الواقعة 74.
243 الإسراء 110.
244 المفصل في صنعة الإعراب ، الزمخشري 11 .
245 شرح متن الاجرومية 122.

معنى246، وهي ما دل على بعض أحوال الذات247، فأنت حين تقول عن إنسان أنه كريم فأنت لا تقصد بهذه الصفة كل أحوال الذات، لان الصفة عبرت عن بعض أحوال الذات، فهو إلى جانب كرمه يمكن أن يكون شجاعا وهو أيضا يمكن أن يكون صادقا وغير ذلك، فالصفة لا تعبر عن كل أحوال الذات، فإذا عرفنا هذا وجب القول بأن الاسم غير الصفة (ولله المثل الأعلى).

فما هي أسماء الله وما هي صفاته؟

لاشك أن أسماء الله هي ما أخبر عنها هو سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بالنص فقال: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}248 ، ثم ما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم "الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ"، وقد سبق تناول الحديث بإسهاب.

ويمكن ملاحظة أن الأسماء في النص القرآني وفي متن الحديث جاءت بذات المبني اللفظي أي على سبيل اقتران الـ (أل) في كل الأسماء، ونعتقد أن (أل) هذه من أصل الاسم وليس مضافة إليه لان الله سبحانه وتعالى معرفة لا يحتاج إلى من يعرفه أو إلى ما يكسب اسمه صفة المعرفة، عليه نجزم أنها ليست أداة تعريف وإنما هي من أصل الاسم واليك الدليل، {هُوَ

246 المذكِّرَات النَّحْوِيَّهْ شَرْح الأَلْفيَّهْ الدّكتور عبدالرَّحمن بن عبدالرَّحمن شُمَيْلَة الأَهدل 145.
247 التعريفات 143.
248 الحشر 22-24.

اللَّهُ} فحاول إذا كنت تعتقد أنها مزيدة للتعريف يمكن الاستغناء عنها أن تستغني عنها في اسم (الله)، فإذا عجزت فاعلم أن ما ينطبق على اسم الله ينطبق على بقية أسمائه الحسنى.

أما إذا قيل هكذا قواعد اللغة! نقول إن قواعد اللغة لا تنطبق على أسماء الله لأنها هي الأصل فهو الذي علّم اللغة، والبشر هم الذين وضعوا قواعد لها فعلمه مطلق، وأحكام البشر نسبية، وقد عالجنا هذا الموضوع في قضية اشتقاق أسماء الله فرددنا كل قول يقول أن اسم الله مشتق وقلنا أنه أصل وكل ما بعده مشتق منه، ولو أخذنا بما يقول علماء اللغة الأجلاء وطبقناه على الأسماء الحسان لوقعنا في محظور خطير فهم يقولون: الشيء لا تعرفه نفسه، لأنه لو كان بنفسه، لما احتيج إلى تعريفه بـ(أل) أو بالإضافة249، فهل يمكن لعاقل أن يطبق هذا الحكم على أسماء الله وصفاته؟! وهل يليق بالذات الإلهية أن تكون نكرة تحتاج إلى ما يعرفها؟!

وذهب بعض الكوفيين إلى جعل الألف واللام في اسم الله تعالى جاءتا للتفخيم والتعظيم. نُقل عن سيبويه، أن الألف واللام في هذا الاسم الشريف للتعظيم كما تقدم عن بعض الكوفيين250.

هنا لنسأل أصحاب العقول أيهما أقوى في تعظيم الله الاسم المقترن بـ(أل) أم ما جاء بدونه؟ والإجابة بالتأكيد ستكون ما نسبه الله سبحانه إليه من أسماء في الآيات الكريمة أو في أحاديث الرسول الأكرم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وكلها معرَّف لا تحتاج إلى ما يعرفها فالألف واللام من أصل الاسم.

وقد ذهبنا إلى اختيار الدعاء بأسمائه الحسنى بنصها الذي ورد في القران الكريم وفي الحديث الشريف، إيمانا منا بأن الواجب أن ندعو الله بأسمائه كما أمرنا (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن)، ولم نخالف في ذلك حتى قواعد اللغة، فقد أجمع عدد من علماء اللغة على جواز الجمع بين

---

249 المحكم والمحيط الأعظم المؤلف ابن سيده1118.

250 الجنى الداني في حروف المعاني ، ابن أُمّ قَاسِم المرادي 133.

يا وأل من غير الضرورة251، والكوفيون يجيزون الجمع بين يا و أل مطلقا252، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

أن (أل) جزء من الاسم وليس للتعريف لأن أسماءه تعالى معارف، ودخول (أل) لا يزيد التعريف بقدر ما يفيد التوجه للمنادى بالدعاء فكيف نعرّف أسماء الله وهو سبحانه أصل المعارف، ولمّا بحثنا في كتب النحو رأينا أن النحو البصري يجيز دخول (يا) على (أل) في الضرورات، ومن الكتب التي أيدت ذلك الاتجاه كتب ابن مالك والشروح عليها، مع وجود رأي يخالف ما ذهب إليه البصريون، ويعضد ما ذهبنا إليه وهو رأي الكوفيين الذين يجيزون الجمع مطلقا بين (يا)و(أل)، كما يقوي ذلك الرأي السيوطي في همع الهوامع253.

وقد تتبعنا القضية بتأن حتى نصل إلى الحجَّة الواضحة التي تبيّن أن ما رأيناه في الدعاء من دون حذف (أل) من الأسماء الحسنى ليس ابتداعا ولكنه يستند على مستند له أصل في التراث اللغوي والنحوي، والمسألة جاءت مسطرة فيما يلي:

لا يجوز نداء ما فيه (أل) إلا في أربع صور:

-إحداها: اسم الله تعالى، أجمعوا على ذلك، تقول: (يا ألله) بإثبات الألفين، و(يَا لله) بحذفهما، ويا الله، بحذف الثانية فقط والأكثر أن يحذف حرف النداء ويعوّض عنه الميم المشددة فتقول: (اللهم)، وقد يجمع بينهما في الضرورة النادرة كقوله من الرجز:

إنِّي إذا حدثٌ ألمّا   أقول يا اللَّهم يا اللَّهُمَّا

الشاهد: قوله: (يا اللهم) حيث جمع بين يا والميم المشددة التي تأتي عوضا عنها، وذلك ضرورة نادرة.

– الثانية: الجمل المحكية نحو: (يا المنطلقُ زيدٌ) في من سمي بذلك، نص على ذلك سيبويه، وزاد عليه المبرد ما سمِّي به من موصول مبدوء بـ(أل)، نحو: الذي (و التي) وصوبه الناظم.

– الثالثة: اسم الجنس المشبه به، كقولك: "يا الخليفةُ هيبةٌ" نص على ذلك ابن سعدان.

251 النحو الوافي ، عباس حسن ج4 ، ص36 .
252 السابق ج4، ص34.
253 انظر همع الهوامع ص45، 46 وما بعدها تحقيق عبالحميد الهنداوي

- الرابعة: ضرورة الشعر، كقوله:

عباس يا الملكُ المتوج والذي عرَفتْ له بيتَ العلى عدنانُ

والشاهد فيه: قوله: "يا الملك" حيث أدخل "يا" التي للنداء على الاسم المقترن بـ(أل) وذلك ضرورة عند البصريين وجائز عند الكوفيين254.

وورد أيضا أنه لا يجوز الجمع بين حرف النداء و(ال):

من أحكام النداء حكم عام تخضع له أقسامه الخمسة هو: أنه لا يجوز نداء المبدوء "بأل" فلا يصح الجمع بينه وبين حرف النداء إلا في الحالات الآتية:

1-لفظ الجلالة.

2- المنادى المشبه به، بشرط أن يذكر معه وجه الشبه كقولك لمغن: يا البلبل ترنيما، يا لشافعي فقها. أي يا مثل البلبل ....ويا مثل الشافعي، فالمنادى في الحقيقة محذوف، وقد حلّ محله المضاف إليه فصار منادى بعد حذفه.

3-المنادى المستغاث به المجرور باللام المذكورة نحو: يا للوالد للولد، فإن لم يكن مجرورا باللام المذكورة لم يصح الجمع بين يا وأل فلا يقال يا الوالد للولد.

4-اسم الموصول المبدوء بـ(أل) بشرط أن يكون مع صلته علماً.

5-نداء العلم المنقول من جملة إسمية مبدوءة بـ(أل) نحو الرجل زارع، تقول: يا ألرجل زارعا.

6- العلم المبدوء بأل إذا كانت جزءا منه يؤدي حذفها إلى لبس لا يمكن معه تعيين العم المنادى، نحو: يا الصاحب بن عباد، ويا القاضي الفاضل.

7- الضرورات الشعرية كقول الشاعر:

فيا الغلامان اللذان فرا إيّاكما أن تعقبانا شرّا255

ومما تقدّم يتضح أن جواز الجمع بين حرف النداء و"أل" في حالات، هذا رأي البصريين، أما الكوفيون فيرون الجمع بين يا وأل في غير الضرورة256، فدعونا بالأسماء الحسنى معتقدين

---

254 أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك تصنيف ابن هشام الأنصاريص11، 12، 13

255 النحو الوافي : عباس حسن ص36ج4

أن من الأولى أن ندعو الله بها لأنها أسماءه الدالة عليه هو، أما الصفات فإنها تدل على بعض أحوال الذات، من هنا تأتي أولوية الدعاء بأسماء الله الحسنى لا بصفاته، ومثل ذلك القسم فهل الأولى أن تقسم باسم الله أم بصفته؟

أما ما جاء من هذه الأسماء بدون الألف واللام مثل رحمن ورحيم وقادر وحي وقيوم ولطيف وواحد ..)، فنعتقد أنها هي الصفات التي تضمنتها أسماؤه، فالصفات إذاً متضمَنة في الأسماء، فرحمن صفة تضمنها اسم الرحمن ودل عليها وكذا بقيتها، وليس أدل على ذلك من قوله سبحانه وتعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}257، فلطيف صفة من صفات الله أما القوي والعزيز فهما من أسمائه الحسان جل في علاه وهو ما يوضحه السياق في الآية بشكل جلي، والى ذلك ذهب صاحب كتاب القائد إلى العقائد في شرح صفة واحد فقال: "و أما اسم الله تعالى (الواحد) فلفظ (واحد) يراد به في اللغة ما يقابل المتعدد ومن تتبع مواقعه في القرآن وغيره من الكلام العربي الفصيح وجده يأتي وصفاً لموصوف ويكون هناك شيء محكوم عليه بالموصوف مع وصفه، فعدم التعدد يكون للمحكوم عليه باعتبار الموصوف"258، وهكذا بقية الصفات (رحيم كريم عظيم بديع مصور) وغيرها من الصفات الحسان.

كما يمكن الاستدلال عقليا على كونها صفات وليست أسماء، فكلها توصف في الحكم اللغوي بأنها (نكرات) لأنها بدون أل التعريف إذا اعتقد البعض أن أل في الأسماء الحسنى هي للتعريف، وفي قواعد اللغة "محال وصف النكرة بالمعرفة"259. وهذا يتعارض إلى حد الانتفاء مع حقيقة الذات التي تدل عليها لأنها ذات معرفة لا تنكير لها، فحكم التنكير والتعريف لا ينطبق على الأسماء الحسنى ولا على الصفات لأنها كلها معارف ودالة على معرفة، ولأنه محالٌ أن يكون الشيء الواحد معرفة ونكرة في حالٍ واحدة260. تنبلج حقيقة قاطعة مفادها

---

256 السابق ص 36

257 الشورى 19.

258 القائد إلى العقائد، عبد الرحمن المعلمي اليماني 1136.

259 المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده 1118.

260 اللباب علل البناء والإعراب، أبو البقاء محب الدين عبدالله بن الحسين بن عبدالله.1157.

أن أل في الأسماء من أصل الاسم وهي لا تؤثر فيه فتكسبه التعريف، كما إن سلبها لا يكسب صفة التنكير.

من هنا وجب أن تكون هذه ليست بأسماء للذات المعرفة، فماذا يليق بها ؟ يليق أن نطلق عليها صفات تدل عليها أسماء، فرحمن صفة يدل عليها اسم الرحمن، ورحيم كذلك وهكذا بقية الصفات.

فالصفة تدل على بعض أحوال الذات261، ورحمن تدل على الرحمة، وهي بعض أحوال الذات، أما الرحمن فاسمه الذي يدل عليه سبحانه وتعالى أي على مطلق الذات وليس من حجة نحتج بها على قولنا هذا أبلج من قول الله سبحانه: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}262. فلو كان لطيف اسم لجاء مقترنا بأل كبقية الأسماء في الآية (الله، القوي، العزيز) دون إخلال، فيمكن لك أن تقول أن (الله اللطيف بعباده يرزق من يشاء) ويستقيم المعنى ولكن الغاية التي يريدها عز وجل غير ذلك، فهو يريد أن يعرفنا بصفاته كما يذكرنا بأسمائه، فلطيف في سياق هذه الآية صفة تناسب لطف الرزق الذي مصدره اللطيف، وقس على ذلك بقية ما جاء من صفات.

عليه فإن أسماء الله الحسنى هي ما نص عليه سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز، ثم ما دلنا عليه الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه، ثم ما اجتهدت في معرفته عقول المؤمنين واطمأنت إليه قلوبهم.

أما صفاته فتدلنا عليها أسماؤه، فاسم الكريم يدلنا على صفته (كريم) واسم العزيز يدلنا على صفته فهو (عزيز) وهكذا.

ومما يستدعي الانتباه ويسترعي العناية حقيقة دلنا عليها بحثنا في الأسماء والصفات الحسنى والفرق بينهما، فقد كان لكل أسماء الله تعالى صفات تدل عليها، فيمكن لنا أن نجد لكل اسم صفة رئيسة تدل عليها وصفات أخرى، فالرزاق الصفة الرئيسة له رزاق وهو رحمان رحيم كريم وكل الصفات الأخرى وهذا منطبق على كل الأسماء باستثناء اسم الجلالة (الله) فهو اسم

---

261 التعريفات 143.
262 الشورى 19.

لا تشتق منه صفة بعينها ولذا فهو يدل على كل الصفات الحسنى ، هنا يمكن القول أن خصوصية واضحة ومميزة لهذا الاسم الكريم الذي لا يتصف به أحد وبما لا يختص به غيره، إضافة إلى ما به من خصوصيات أُخر منها أن ما من احد تسمّى بهذا الاسم من قبل ولا بعد، لا لرغبة عنه ولكن لأنه مختص بسمي واحد أحد سبحانه وتعالى هو الله الذي لا اله إلا هو، عليه يمكن للتكهنات والتأملات بخصوص اسم الله الأعظم أن تتعثر إمام هذه الحقيقة الناصحة فتقف، إن هي أرادت الحقيقة، أمام هذه المعرفة الجلية والروضة الفكرية لتتيقّن أن اسم الله الأعظم هو اسمه (الله). وعليه فان الاسم الأعظم الذي يبحث الكثير عن معرفته هو ظاهر هو(الله) الذي لا يشتق منه شيء وهو خالق الأشياء ، فأما أن تتدبر في اسمه الأعظم لتعرف ما فيه من حسن وجمال وجلال فتصل إليه اسما أعظما، وأم أن تقرأه قراءة عابرة فليس لك أن تعرف اسم الله الأعظم

وهذا (بفضل الله) ما توصلنا إليه من خلال بحثنا في أسماء الله الحسنى الكثيرة والمقيدة بحصر العدد لمناسبة طبائع الإنسان.

ويجب أن ننوه إلى إننا قد اعتمدنا القرآن الكريم مصدرا رئيسا في بحثنا في الأسماء الحسنى لأنه المصدر الأول في الوصول إلى الحقيقة متذكرين آيات الله سبحانه وتعالى التي تدعونا إلى اتخاذ كتابه العزيز مصدرا رئيسا، ولنقف مع الآيات المحكمات التي يقول فيها جل من قائل:

- {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}263.
- {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}264 .
- {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}265 .
- {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}266.
- {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}267.

---

263 محمد 24.
264 النساء 82.
265 ص 29.
266 النحل 89.

فهل بعد هذه الآيات حجة على وجوب تقديم هذا الكتاب الحكيم على أي مصدر أو مرجع مهما علا شأنه وارتقى علمه؟!

وقد لاحظنا من خلال البحث في أسماء الله أنها مبثوثة في كل القرآن الكريم فلا تكاد آية تخلو من اسم لله أو تدل على اسم من أسمائه، لذا فلا يمكن استثناء أية غير متصلة باسم من أسمائه أو صفة من صفاته تعالى، وقد توصنا من خلال البحث أن اسم الله تدل عليه جميع آيات القرآن الكريم وإن لم تتضمنه نصاً، بمعنى أن كل اسم من الأسماء الحسنى موجود بكل ما نفكر فيه في دلالات الآيات الكريمة، فلا نقرأ آية من الكتاب الحكيم إلا ونجد رابطا واضحاً من نوع ما بين الاسم الذي نبحث فيه وبين ما جاء في الآية الكريمة، فكلام الله لابد أن يدل عليه.

وقد بذلنا جهدا نعتقد إنه موضوعي دون تحيز أو انحراف، ولم نتخذ موقفا سلبيا من أي فرقة أو اتجاه إسلامي طالما يتوافق مع أساسيات الملة من توحيد لله وإقرار برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ويتجه إلى القبلة ويعتمد القرآن الكريم وهدي الرسول صلى الله عليه وسلم أصلا لعقيدته، ومع ذلك فالكمال لله.

وقد ورد مصطلح الخليفة في كتابنا ولكننا لم نحصره في معنى تقليدي، فلم نقصد به حاكما أو أميرا أو خليفة أو رئيسا أو زعيما أو شيخا بعينه، بل توسعنا في ذلك لنجعله في النوع الإنساني الذي خلقه الله وأسكنه الأرض ليعبد الله واحدا أحدا ويعمّر وينشر الخير لا ليفسد فيها ويسفك الدماء، وهذا الإنسان الخليفة هو الذي يتفاعل مع أسماء الله فهما بوعي وعملا بمنهج وإرادة بعقيدة تنطلق من أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيتحرر من عبادة المال والرأي والهوى والطمع فيما ليس له، فيصلح بالمال ما مال، وبالرأي ما ورى، ويبتعد عمن هوى فهوى وعمن طمع فغوى.

ومن هذا المنطلق كان هذا الكتاب دعوة للتوحيد، توحيد لله بالرأي المقنع والدليل الثابت الذي لا يرقى إليه شك، وتوحيد للعنصر الإنساني على معنى سام ينطلق من التحرر ليفك قيودا ما

---

267 الفرقان 33.

زالت تكبل العقول والعقائد ولكي يلتصق بالله ربا ويتفاعل مع أوامره ونواهيه في بوتقة من الإيمان فينصهر نفسا وعقلا وقلبا، لتخرج نفسه راضية بما تعمل، وعقله معتقدا بما يحمل، وقلبه مطمئنا بما يأمل.

وقد انطلقنا من أنه لا تفرقة ولا تحزب ولا هجوم على أحد فنحن أمة واحدة ولنا رب واحد نؤمن بالرسل جميعا نهدف إلى الإصلاح في شتى مجالاته مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}268، وهو أمر دفعنا إلى اتخاذ منهج الصلاة والتسليم على نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى كل أنبياء الله ورسله دون استثناء مستهدين بكلام رسولنا الأكرم صلوات الله وسلامه عليه الذي قال: "صلوا على أنبياء الله ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثني"269.

وقوله صلى الله عليه وسلم : "أكثروا من الصلاة على موسى فما رأيت أحدا من الأنبياء أحوط على أمتي منه"270.

268 الأنبياء92.
269 شعب الإيمان للبيهقي 1142، وينظر مصنف عبد الرزاق 2216، وجامع الأحاديث 1411.
270 جامع الأحاديث للسيوطي 5374.

الباب الثاني

منهاج السلوك من الذات إلى الفعل

لما كان اتصاف الخليفة بأسماء الله الحسان ضرورة من أجل إعمار الأرض وإصلاحها، ومن أجل نفسه في إعمار دنياه وآخرته، فلا بدّ للإنسان الذي يطمح أن يكون خليفة وفق المنهاج الإلهي، وجب عليه أن يتحلى بصفات الخالق عزّ وجلّ. حيث إن هذه الصفات تحمل مكارم الأخلاق التي بعث الرسول عليه الصلاة والسلام من أجل إتمامها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[271].

إن الإنسان وُلد على فطرة التوحيد، ولكن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء وتجربة واختبار، حيث إن كثيراً من الخلق يبتعد عن هذه الفطرة كلياً أو جزئياً، وينحرف عندما يتبع مغريات الحياة وملذّتها، ولهذا جاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام برسالاتهم لتصحيح هذا الانحراف والعودة بالخلق إلى جادة الصواب من أجل استمرار الخلافة التي كرّم الله تعالى بها الإنسان.

إذن ليس هناك بعد كلمة التوحيد والتزام الأوامر والنواهي التي شرّعها الله لخلقه، غير الاتصاف بصفات الأسماء الحسان سبباً يوصل الإنسان إلى الخلافة.

---

[271] - السنن الكبرى ج 10/ ص 191

فإن كان الله تعالى جعل الأنبياء خلفاء كون الخلافة جزءً من النبوة، فإن بقية البشر لا بدّ أن يتّبعوا ذلك المنهاج كي يصبحوا خلفاء. فإن كانت خلافة الأنبياء من النبوة، فإن خلافة بقية البشر بالاكتساب من منهاج النبوة في السلوك من التخلق بأخلاق أسماء الله وصفاته الحسان.
وعلى هذا فالمنهاج والسلوك مستمدان ممن خصه الله تعالى بالخلافة نصّاً، قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ}272 فالمنهاج هو الطريق الواضح الذي استبان للخلق من الخالق في السلوك الذي سلكه أنبياؤه عليهم الصلاة والسلام، فإذا استبان المنهاج والسلوك، وهما جانبان موضوعيان لمن يريد أن يكون خليفة، فإن الجانب الذاتي المتمم للتحلي بأسماء الله الحسان وصفاته، يكمن في أربع في نقاط وهي متممة للجانب الموضوعي. وهذه الأمور هي: التهيؤ والإرادة والاستعداد والفعل وما يترتب على الفعل، ولأهمية الجانب الذاتي الذي يخصّ هذه السمات وينمّيها فقد بسطنا فيها القول ثمّ فصّلناه تفصيلا.

التهيؤ

هيأ الهَيْئَةُ والهِيئةُ حالُ الشيءِ وكَيْفِيَّتُه ورجل هَيِّئٌ حَسَنُ الهَيْئة، وهاءَ للأَمر يَهَاءُ يَهِيءُ وتَهَيَّأَ أَخَذَ له هَيْأَتَه وهَيَّأَ الأَمرَ تَهْيِئةً وتَهْيِيئاً أَصْلَحه فهو مُهَيَّأٌ273.
وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ"[274].
التهيؤ هو تحفُّز لإظهار ما هو متهيئ للظهور، والتهيؤ هو الحالة التي يبدوا عليها المخلوق في حالة امتداد تجاه الآخر في دائرة الممكن الموجب والسالب. ولذا فالتهيؤ نضج، كنضج الثمار لأن تجنى أو تقطف، والبلوغ عند الإنسان الذي به يتهيأ للزواج.
والتهيؤ صورة لتحفز القوى الكامنة في الأشياء قبل الاستعداد لفعل مخصوص، فهو حركة بعد سكون، يقظة بعد غفلة، وهذا التحفز ما هو إلا تجاذب بين المتوافقات والمتباينات في آن

272 - ص 26
273 لسان العرب جـ1 ص188.
274 السنن الكبرى للنسائي ج4ص310.

واحد، فتصبح المتوافقات في أشد حالات التلازم، وتكون المتباينات في أقصى درجات الافتراق، وما بين التلازم والافتراق تصبح القوى الكامنة في حالة تحفز قصوى فيكتمل التهيؤ مرحلةً قبل الاستعداد.

وللتهيؤ صورتان هما:

1- التهيؤ القبلي: تهيؤ الإبداع، شيء لم يسبق وجوده فاكتشف بأسباب الحاجة بعد تَمكُّن وغوص وبحث وتقصي مُعمَّق.

والتهيؤ القبلي يسبق الصورة، أي انه المؤسس لها، فالصورة أو الشكل الذي نحن عليه كان متهيئا لدى الخالق قبل أن نخلق، وهكذا كل ما خلق كان التهيؤ سابق لما خلق، ولأن الأمر كذلك فكل متهيئ بالأمر كن يكون صورة بإصدار أمر الكينونة التي يكون عليها متهيئا.

وعلى المستوى البشري نحن لا نخلق (لا نصنع) شيء إلا بعد تهيؤ صورته لنا قبل أن يكون صورة ماثلة، فالسكين على سبيل المثال: لو لم تتهيأ لنا صورته ما كانت له صورة، وبذلك في عقولنا يتهيأ السكين من حيث كونه صلب ومتين وحاد أحد الطرفين وله مقبض يمسك به وذلك من أجل وظيفة، وهكذا المقعد والطائرة وكل ما صنعنا ونصنع.

وعليه التهيؤ سابق على القول والفعل وبدونه لا يكون القول ولا الفعل. وبذلك محدث التهيؤ هو محدث الفعل.

2. التهيؤ البعدي: وهو يلاحق الصورة، تهيؤ استدعاء، أي أن المعرفة سبق تلقيها وبالتالي يمكن أن يتم استدعاء صورة ما تعرفنا عليه سابقا.

والبحث في مفهوم التهيؤ لا يُعد من علم ما وراء الطبيعة وإن كان يدخل فيه شيء من ذلك، إلا أنه بحث في التجريد وإن كانت مرتكزاته واقعية، وطالما أنه تجريدي فإنه يحتل المكانة الوسطى بين الواقعي والميتافيزيقي.

إن حدود معرفة التهيؤ تتوقف على مستوى ملكات العقل، وبما أن الملكات العقلية متفاوتة من شخص لآخر من حيث القدرات، ومتباينة من حيث الأفكار والمعلومات، التي تعتبر أساس البحث في مفهوم التهيؤ، لذلك يكون الاختلاف في التصورات لدى الناظرين فيه وفق

ما يحمل هذا الناظر أو ذاك من أفكار تنجلي له تصورات التهيؤ في نفس المتهيئ لمن يريد أن يقف على التهيؤ، وهذا لا يغير من نفس التهيؤ في نفسه شيئا، بمعنى أن تصورك لحقيقة ما، لا يغير من حقيقتها وإن أوقفتني على حقيقة ما تعتقد من حقيقة تلك الحقيقة.

ففي قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}275 ، يظهر موسى عليه الصلاة والسلام متهيئا لتلقي الأمر من ربه، ومتهيئا للطريقة التي يتم بها كشف الجريمة، لذلك كان جوابه (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) بينما قومه الذين لم يصلوا إلى مرحلة التهيؤ بهذه الطريقة في إحياء الموتى (قالوا أتتخذنا هزواً) ثم بعد ذلك طلبوا توضيحا يبين لهم معلومة تأهلهم للتهيؤ: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ}276 فلما لم يصلوا إلى تلك المرحلة استزادوا: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا}277 فلم يزل يزدهم إلى أن وصلوا إلى حالة التهيؤ، أما تهيؤ موسى عليه الصلاة والسلام فهو ثابت على حقيقته قبل تهيؤ قومه وبعد تهيوئهم.

إن الوقوف على حقيقة التهيؤ وهيئته التي يقوم عليها، تتوقف على معرفة المصادر المغذية له والفلك الذي يدور فيه، فمدار فلكه يكمن بين العقل والقلب والروح والنفس، ومصادر تغذيته هي الأفكار والعواطف والانفعالات والغرائز بصرف النظر عن سلبها وإيجابها.

فكلما توفرت الأفكار والحجج اتجاه القضية الخارجية، كانت استجابة التهيؤ للحدث أسرع، وإذا تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي نقف عليه من خلال قوله تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}278 لقد كان التهيؤ من موسى عليه الصلاة والسلام للإجابة عن منافع العصا وفوائدها! إلا أن تحولها المفاجئ إلى أفعى دفع عاطفة الخوف للسيطرة على العقل، عند ذلك تسمح الإرادة بالوصول إلى غريزة

---

275 - البقرة 67
276 - البقرة 68
277 - البقرة 69
278 - طه 18-21

الفرار، غير أن قوله تعالى (خذها ولا تخف) ولّد تهيؤ آخر لتحوّل الأفعى إلى عصا مرة أخرى. فهذه العصا ليست كبقية العصيّ، وإنما قد هيّأها الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام لإظهار المعجزات من آيات الله تعالى، ومن جانب آخر هو تهيئة لموسى عليه الصلاة والسلام لأن هذه العصا سوف يكون لها شأن كبير بما هي مهيّأة له، ذلك أن الموقف مع سحر فرعون يحتاج إلى هذا النوع من التهيؤ، قال تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}279 لقد كان موسى عليه الصلاة والسلام مهيّأ للحدث وإن كان لا يعلم ماهيته قبل حدوثه، فعندما خيروه بَيْن أن يبدأ فيلقى عصاه، أو أن يكونوا البادئين، وطلب منهم أن يكونوا أول من يلقي الحبال والعصي دليل على التهيؤ لهم، وهو لم يحس الخوف من العصي والحبال التي انقلبت إلى ثعابين، ولكن من احتمال أن يتلبس السحر على الناس بالمعجزة، فألقى موسى عصاه، فإذا بها تنقلب بقدرة الله حية كبيرة مخيفة لأنها مهيّأة لهذا الانقلاب، وهو أيضا مهيأ لتحولات العصا، وليس كالمرة الأولى(خذها ولا تخف) وإنما الآن أصبح لديه تهيؤ كامل، وابتلعت كل ما أعدّوه ، فلما رأى السحرة تلك المعجزة بادروا إلى السجود موقنين بصدق موسى عليه الصلاة والسلام.

ولم تكن العصا مهيّأة لأن تنقلب أفعى فقط، وإنما كان لها تهيؤات مختلفة أوجدها بها المهييء عز وجل حيث قال تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}280 فأي عصاً تضرب حجرا حتى ينفجر من اثنتا عشرة عينا لو لم تكن مهيّأة لهذا الأمر، ذلك أن قوم موسى أشرفوا على الهلاك من العطش وهم في صحراء

---

279 - طه 65- 70

280 - البقرة 60

سيناء، ولما لم يجدوا ماء وشكوا ذلك إلى موسى، أمرَه الله أن يضرب الحجر بعصاه فانفجر لهم الماء.

وأعظم من هذا هو تهيؤ هذه العصا لفلق البحر وفرقه حتى ينجو بقومه عندما اتبعهم فرعون وجنوده، حيث قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}281 فعندما ضرب البحر بعصاه، انفلق البحر إلى اثني عشر طريقاً بعدد طوائف بني إسرائيل ، وكان كل طريق من هذه الطرق حاجزاً من الماء كالجبل العظيم الثابت الذي لا يطغي واحد منها على الآخر، فهذا تهيؤ عصا موسى عليه الصلاة والسلام.

التهيؤ لدى الإنسان

هو مزيج من الوعي والمعلومات والأفكار وأشياء فطرية، وما لها من علاقة وطيدة مع العواطف والأحاسيس، فالتهيؤ في نفس العاقل هو حالة من انعكاس الإدراك على الشعور الداخلي (الوجدان) من قضية خارجية. فالإنسان يمتلك مزيجا من القوى العقلية والجسمانية والروحية معاً وفي آن واحد هي حالاته في لحظة التهيؤ المطلق قبل الاستعداد لأي فعل من خلال التوتر المتناسق لقوى العقل والجسد والروح معاً فتكون على هيأة قادرة على بدء الاستعداد متى شاءت وأين شاءت.

كما يكمن التهيؤ لدى الإنسان في العواطف التي لها صلة وثيقة بالغرائز، فالعاطفة هي التي تنشط الغريزة، وتجعل الإنسان في وضع التهيؤ، أما تجاوز التهيؤ إلى الاستعداد وخروج الاستعداد إلى الفعل فهذا أمر تتحكم به الإرادة نتيجة الاستنتاج.

إذن نستطيع أن نحدد لحظة التهيؤ من خلال العلاقة القائمة بين العقل والعواطف، إذ أن التهيؤ لدى الإنسان يكمن في المساحة الحرة بين العقل والعاطفة وذلك عندما تستثار الغريزة بدفع من العاطفة وهنا يكون الإنسان في وضع التهيؤ، والذي يحجب التهيؤ عن الاستعداد وصولا إلى الفعل هي الإرادة التي تتحكم به لحين اتخاذ القرار.

---

[281] - الشعراء 61- 63

وأما مصدر التهيؤ بالنسبة للعاقل فهي الأفكار المكتسبة المكونة للعقل، إذ أن العقل هو الاتزان في سلسلة الأفكار السالبة والموجبة، كما أن الإرادة هي سلسة الأفعال المماثلة سلبا وإيجابا.

إن الأفكار هي التي تغذي العواطف، وكلما تكاثرت الأفكار في قضية ما، اشتدت العاطفة ودفعت الغريزة إلى ممارسة نشاطها، وممارسة نشاط الغريزة بدفع من العاطفة انطلاقا من الفكرة يؤدي إلى التهيؤ. لذلك نقول المتهيئات كامنة في العواطف بتعدد الأفكار، فعندما يكون العقل في أوج نشاطه يسيطر على عواطفه ويجعلها في حالة سبات بحيث لا نشعر بوجودها، وأما إذا اشتدت العواطف فإنها تستدعي معظم أفكار عقلها الخاصة بالحدث بمؤثرات خارجية عن طرق الإدراك الذي ينعكس شعورا داخليا يؤجج العاطفة بحيث تصبح أكثر نشاطا من العقل.

فنشاط العواطف يُضعف من نشاط العقل قدرا يناسب قوة العواطف، وكذلك العقل يُضعف من نشاط العواطف درجة تناسب قوته ونشاطه، وعند صرف النظر عن الفكرة المنشطة للعاطفة تتلاشى في العقل وتهدأ العاطفة فيزول التأثير على الغريزة التي دفعت التهيؤ للظهور إلى حين ظهور المؤثر الخارجي مرة أخرى أو استدعاء الفكرة من الحافظة عن طريق الذاكرة.

إن السبب في قوة العقل وسيطرته على عواطفه هو ذوبانها فيه، وذلك عندما يمتص قوى تلك العواطف الفكرية، كما أن سيطرة العواطف على العقل وتغلبها عليه، هو ذوبانه فيها بامتصاصها أغلب أفكاره المقيدة للإرادة، ولحظة الصراع الناتجة عن الأفكار بين العقل من جهة والغريزة بدفع من العاطفة من جهة ثانية إنما هي لحظة التهيؤ الذي يواجه حاجز الإرادة التي هي مرحلة بعد التهيؤ، فلا تهيئ إلا بإرادة، ولا إرادة إلا بتهيئ، ولكن يظل لكل مصطلح خصوصية في المعنى والدلالة حتى وإن اشترك مع غيره أو أتحد، فالإرادة قرار والتهيؤ تحفُّز للقول أو الفعل الذي بشأنه يتخذ القرار، ولذا فالتهيؤ دائما يسبق حتى يدفع لاتخاذ القرار الذي بدوره طبيعيا لا يتخذ إلا بإرادة. فالتهيؤ للقول يؤدي إلى الاستعداد لأن يقال بإرادة.

والتهيؤ للفعل يؤدي إلى الاستعداد لأن يفعل. ولكن ليس دائما الاستعداد وإن سبقه تهيؤ يؤدي إلى القول أو الفعل، وذلك بأسباب حدوث الاستجابة قبل القول والفعل، كأن ينتقل الخصم الذي بسببه كان التهيؤ والاستعداد للانتقال تفاديا لتوتر المواقف التي لا تحمد عقباها، أو لحدوث غير المتوقع في الزمان والمكان المفاجئ وأن يتم التسامح في دائرة الاعتراف بالذنب ووجوب المغفرة والتسامح، أو أن يحدث الله أمرا {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ}[282].

وهذا ما يفسر لنا قوة العقل بعد تسلطه على العاطفة وفرض سيطرته عليها، وكذلك العواطف أقوى ما تكون عندما تكبح جماح العقل وتحجّمه وتخضعه لسيطرتها، فينفسح المجال أمام الغريزة، وفي هذه اللحظة أعظم ما يكون التهيؤ على أشده عندما يصطدم بالإرادة التي هي باب الأفعال في الكبح أو السماح، ولولا فرض العقل سيطرته على العواطف لما كان له النشاط المعهود من الحدة والانتباه بعد تسكين العواطف واختفائها مؤقتاً.

وعندما يأخذ من نشاطها تزداد ضعفا ويزداد هو قوة وانتباها. هذا التبادل العكسي بين العقل والعاطفة إنما جاء نتيجة المادة المشتركة التي تغذي كلّاً منهما على حدٍّ سواء، ألا وهي الأفكار. ويتجلى ذلك في اتحاد العقل والعاطفة أو موافقة العقل للعاطفة كالحب والرحمة مثلا لأن المنطق يفرض التطابق الايجابي ولذلك يكون الإنسان سريع الاستجابة في مثل هذه المواقف لتطابق العاطفة والعقل في حال الاستنتاج الايجابي، فتسمح الإرادة للتهيؤ إلى أن يخرج إلى الفعل على وجه السرعة، على العكس من المواقف التي يكون الاستنتاج فيها سلبي أو ضرر يعود على الإنسان، لذلك يتأخر اتخاذ قرار الإرادة بسبب التردد لأن العقل يستغرق في الاستنتاج للوقوف على ايجابية النتائج، وفي هذا الموقف يكون التهيؤ في أطول أعماره إذا قسنا ذلك بالزمن، قبل أن تخمد العاطفة أو تسمح الإرادة بخروج التهيؤ إلى الاستعداد تلبية لنداء الغريزة.

---

[282] الشورى 17.

التهيؤ بين العقل والعاطفة والغريزة، فالجوع مثلا يؤدي إلى سيل اللعاب وارتخاء المعدة وهو تهيؤ ناتج عن الجوع، وعاطفة الحزن عند اشتدادها تدفع غريزة البكاء للتهيؤ، وكذلك عاطفة الفرح والسرور تهيؤ غريزة الانشراح والابتسامة والضحك. ولكن العاطفة تدفع الغرائز إلى التهيؤ وهنا يتدخل جزء من العقل وهو الإرادة في السماح أو عدمه بالخروج لهذا التهيؤ إلى وضع الاستعداد ثم الفعل.

فالإرادة تقف حاجزا أمام التهيؤ ثم تبدأ ملكات العقل بالتذكر واستدعاء المعلومات من الذاكرة، وتبدأ عملية مقارنة بين مخزونات العقل مع وضع التهيؤ ومن ثم تعرض هذا التهيؤ على تلك المعلومات التي استدعتها الذاكرة من الحافظة عن طريق التذكر، وتبدأ عملية البحث عن القيم. حلال– حرام – مكروه – مباح – مرفوض...إلى آخر ما هنالك ، وهنا يتكون الاستنتاج الذي تصل فيه الإرادة إلى قرار إما بالسماح لهذا التهيؤ بالخروج لوضع الاستعداد ومن ثم مباشرة الفعل أو كبح جماح العاطفة الذي يؤدي إلى تهدئة الغريزة ويتم العدول عن القرار بسبب الاستنتاج وبهذا يزول التهيؤ المتكون لفعل قد أريد.

والتهيؤ في حد ذاته معجزة من المعجزات الدالة على قدرة الخالق القادر، فبالتأمل في كل ما حولنا نرى أنه مهيأٌ من قبل الواحد الأحد لاستقبالنا نحن البشر ومهيأ كذلك ليكون مسخراً ومذللاً لإرادتنا فلو لم يكن ذلك التهييء من الله تعالى هل كان بإمكان شيءٍ الاستقرار على سطح الأرض؟

وهل كان لنا نحن البشر من قهر هذه الأرض بالحفريات وشق الطرق وبناءٍ وتعمير وزراعةٍ وغيرها من عمليات الإعمار والتعمير؟ وما نحن بالنسبة للأرض إلا كذرة صغيرة من ذراتها وما قدرتنا وقوتنا بالمقارنة مع قوى الطبيعة إلا كقوة طفل صغير مع قوة جمل ضخم، فما الذي جعل الأرض تلين لنا وتستجيب لإرادتنا لولا تهييئها من الله لنا؟

وهذا ما يتضح من قوله تعالى للملائكة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}283.

وهذا يعني أن الله عز وجل خلق كل شيء في هذا الكون مهيئا لما أراد الله تعالى أن يكون عليه، أو لأداء المهمة التي أرادها الله من خلقه قبل أن يخلقه.

فلقد خلق الله تعالى الأرض وجعلها مسكنا ومستقرا للإنسان فترة معينة، وذلك بعلمه المطلق وقدرته التي لا حد لها فجعلها مهيأة لذلك كي يعيش عليها وهيأ الإنسان نفسه لهذه الحياة، فالأرض مهيأة لاستقبال الإنسان وسائر الكائنات الحية الأخرى وذلك بالتالي:

1- نظام الجاذبية الذي تسير عليه الأرض فلولا هذه الجاذبية لما استقر شيء على وجه الأرض ولما استطاع الإنسان أن يسير على وجهها ويتحرك بكل بساطة وسهولة في التنقل.

2- مهّد الخالق لنا هذه الأرض فلم يجعلها جبالاً متصلة ببعضها البعض فيعجز الإنسان عن المسير والحركة، وكذلك جعل فيها زوجين من كل شيء لكي يهيئ الله تعالى الإنسان لفكرة الزواج والتكاثر، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}284.

3- هيأ الخالق الأرض لتهيئة الإنسان لإعمارها والصلاح فيها، والمحافظة على ينابيعها ونباتها وشجرها وجوها فهي مهيأة في طبيعة خلقها بكل مقومات الحياة التي أراد المهيئ المطلق أن تنشأ عليها ففيها من المياه التي منه يكون كل شيء حيا قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}285وفيها الأكسجين الذي يتنفسه كل الأحياء على وجهها وفيها من الأملاح والمعادن ما يحيا به النبات باختلاف أنواعه الذي يحيا عليه الإنسان والحيوان، وجعل فيها

283 البقرة 30 .
284 النبأ 6: 8.
285 الأنبياء 30 ،31.

الجبال رواسي حتى لا تميل تحتهم وتبقى ثابتة مستقرة وجعل لهم فيها سبلا وطرقا ممهدة ليتمكنوا من السير عليها بيسر وسهولة.

فالأرض مهيأة من الله تعالى المهيئ المطلق للحياة ولكنها ليست مستعدة للزراعة، فيأتي بعد ذلك الإنسان المستخلف فيها والمكلف بإعمارها من أجل أن يعدّها هو للزراعة فيعمل على حفر الآبار، كما يعمل على تسويتها وحراثتها وتسميدها ثم يزرع فيها ما أراد من البذور، ثم يتوافق تهيؤ الأرض للحياة مع تهيؤ البذرة أيضا للنمو والاستفادة من الأرض فتخرج بذلك النباتات بأشكالها وأنواعها، وعليه فالتهيؤ هو تحفز لإظهار ما هو متهيئ للظهور.

4- هيأ الشمس للقيام بالوظائف التي أرادها منها وهي إعطاء الضوء المناسب للحياة على هذه الأرض، وكذلك الحرارة المناسبة لاستمرارها فهي ليست بالمحرقة ولا المجمدة لبعدها، وكذلك تقوم بقتل الكثير من الميكروبات والبكتيريا التي لا ترى بالعين، وقد تسبب الأمراض للإنسان والحيوان وهذا في حد ذاته تهيئ للأرض لاستقبال الخليفة الذي جعله الله تعالى عليها.

5- كذلك تتابع الليل والنهار بانتظام هيأ للإنسان نظام حياة مريح يستطيع من خلاله تهيئة نفسه للعمل والراحة كما جاء في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}286، وكذلك قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}287.

والتهيؤ من حيث الثبات المطلق والنسبي يرتبط ارتباطا كبيرا بالمهيئ نفسه فعندما يكون المهيئ هو المهيئ المطلق الله عز وجل فلا بد وأن يكون التهيؤ تهيئا ثابتا لا يتغير بتغير الزمن والظروف لأنه تعالى هو العالم المطلق والخالق المطلق الذي لا يمكن أن يغفل عن شيء ثم يصححه بعد ذلك، وهو الذي لا يمكن أن يختلف شيء عما أراده بسبب تغير الظروف والزمن المحيطين بذلك الشيء الذي هيأه الله لما أراد أن يكون عليه أو منه {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

---

286 يونس 67.

287 النبأ 10 : 11.

عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}288.

وعندما يكون المهيئ هو المهيئ بالإضافة فبكل تأكيد سيكون التهيؤ ثباته نسبي وذلك بسبب قصور علمه وتفكيره وقدراته ومحدوديتها فيكون من الممكن أن يختلف الشيء عما هيأه له المهيئ بالإضافة المستخلف في الأرض.

فليس هناك إنسان يخلو من التهيؤ لأي فعل من حيث الوعي أو عدمه، وهذا التهيؤ لا نقول أنه ملازم للإرادة، وإن كان يأتي قبلها من حيث الرتبة، وتكون العلاقة بين التهيؤ والإرادة متوالية إلى درجة، بحيث إن أي قرار للإرادة هو مبني على التهيؤ والإنسان كونه مريدا بالصفة النسبة. فهو متهيئ لما يريد، والعلاقة بين التهيؤ والإرادة هي علاقة طردية متنامية بصرف النظر عن نتائج قرار الإرادة وذلك لتباين المؤثرات النفسية والعقلية من إنسان إلى آخر، وذلك بسبب تباين مفاهيم القيم.

ولتقريب مفاهيم اختلاف التهيؤ من إنسان لآخر، ومن مجتمع لآخر نقول أن هذا الأمر قائم على اختلاف المؤثرات من القيم والأخلاق والعادات والتقاليد والقوانين الشرعية والوضعية وما ينعكس في النفس الإنسانية من مؤثرات البيئة التي تعيش فيها، بحيث يظهر أثر هذه المؤثرات على الجوانب النفسية والعقلية قي تشكل التهيؤ لدى الأفراد في مجتمع معين، أو التباين بين مجتمعين نتيجة تلك المؤثرات .

ولتوضيح التباين بين مجتمعين في تشكل التهيؤ نقول مثلاً: إن موضوع الربا الذي ابتدع له اسم (الفائدة) إنما هو من أجل تغيير قناعات مجتمع هو مهيّأ سلبا اتجاه هذا الموضوع. فاستبدال المصطلح إنما الغرض منه إعادة تهيؤ المجتمع الرافض للموضوع من السلب إلى الإيجاب باستبدال المصطلح لدفع الإنسان إليه بإرادته وممارسته، فإن هذا الأمر بالذات دخيل على المجتمع المسلم، وإن كان أهل الغرب لا يرون فيه إلا نوعا من أنواع ممارسة

288 الملك 1، 3

الإعمال كأي مهنة أخرى، لذلك فالمجتمع الغربي مهيأ لهذا النوع من ممارسة الفعل بقرار الإرادة .

إلا أن تهيؤ المجتمع المسلم يختلف في هذا الموقف ويصطدم معه لتباين التهيؤ بين المجتمعين فهو يأبى هذا النوع من الفعل لأنه مهيأ من خلال الدين والعقيدة والشرع برفضه حيث قال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[289].

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية "[290]. فالمجتمع المسلم لديه تهيؤ عقائدي ونفسي وذهني وعضوي بأن تتخذ الإرادة قرارها وفق هذا التهيؤ إذا ما وضع أمامها الموضوع.

إذن هذا التهيؤ في المجتمع المسلم هو إحدى خصائص الخليفة التي يستمدها من صفات أسماء الله الحسنى.

وعليه أتساءل: ما هي مكونات التهيؤ..؟ ومن أين يستمد..؟ وما هي عناصره..؟

إن التهيؤ لدى الإنسان يعتمد على سلسلة العلاقات المترابطة بين أشياء مادية وقضايا عقلية وانفعالات عاطفية ومسائل روحانية، وبتلاقح بعض منها مع البعض الآخر يتولد نوع معين من التهيؤ في اتجاه معين قابل للخروج إلى مرحلة الاستعداد لممارسة الفعل، ولذا لا يمكن

---

[289] - البقرة 275 - 281

[290] - مسند أحمد ج 48/ ص 44

أن يكون أحادي المصدر، إذ أن التهيؤ الإنساني لا يتكون إلا من عنصرين على الأقل مما ذكرنا، حيث أن مكونات التهيؤ هي:

1- مادية وهي الأداة.

2- عقلية وهي سلسلة الأفكار.

3- نفسية وهي انفعالات العواطف.

4- روحية وهي يقينيات الإيمان القلبية.

ولا يمكن أن تستكمل متممات التهيؤ للإنسان إلا بوجود التهيؤ المادي، ذلك أنه الأداة المنفذة لقرار الإرادة، وبتآلف التهيؤ المادي مع تهيؤ آخر مما ذكرنا يكون الإنسان وصل إلى حالة التهيؤ التام في اتجاه معين، وعلى هذا تكون مراتب المتهيئات هي أربعة وفقا لعناصرها على النحو الآتي:

1- تهيؤ مادي عقلي:

إن التهيؤ المادي العضوي هو تهيؤ فطري، والمقصود به ما يتمتع به الإنسان من أعضاء يستطيع أن يمارس بها أفعالا معينه فنجد هذه الأعضاء مهيأة لذلك قبل مباشرة الفعل كالحواس جميعها، فالعين مهيأة للنظر والأذن مهيأة للسمع، وكذلك الرجل مهيأة للمشي واليد مهيأة لاستعمالات كثيرة، وكذالك العقل مهيأ لتقبل العلوم والتمييز والاستنساج، وباجتماع إحدى ملكات العقل مع إحدى هذه الأعضاء يتولد تهيؤ ثنائي جديد بين الأداة المادية والجانب الذهني، فإذا تمّ توجيه سؤال لغيرك عن كيفية الوضوء، فأنت مهيأ للإجابة لامتلاكك المعلومة وأداة النطق، غير أن الإرادة لم تتخذ قرارها بسبب عدم توجيه السؤال إليك.

وهذا النوع من التهيؤ وهو تهيؤ العلم بالأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاه إن كان متعلقا بكيفية العمل "واعلم أن الحكمة نوعان: احدهما الحكمة المنطوق بها وهى علم الشريعة والطريقة . والثاني الحكمة المسكوت عنها وهي اسرار الحقيقة التي لا يطلع عليها عوام العلماء على ما ينبغي فيضرهم أو يهلكهم كما روى أن رسول الله صلى الله وسلم كان يجتاز في بعض سكك المدينة مع أصحابه، فأقسمت عليه امرأة أن يدخلوا منزلها فدخلوا فرأوا نارا

موقدة وأولاد المرأة يلعبون حولها فقالت يا نبي الله، الله أرحم بعباده أم أنا بأولادي فقال عليه السلام: (بل الله أرحم، فإنه أرحم الراحمين) فقالت يا رسول الله: أتراني أحب أن ألقي ولدي في النار قال (لا) فقالت فكيف يلقى الله عبيده فيها وهو أرحم بهم قال الراوي فبكى رسول الله عليه السلام فقال: (هكذا أوحي إلي) وفصل الخطاب، لبيان تلك الحكمة على الوجه المفهم فيكون بمعنى الخطاب الفاصل أي المميز والمبين أو الخطاب المفصول أي الكلام الملخص الذي ينبه المخاطب على المرام من غير التباس"[291].

فالحكمة وفصل الخطاب، عند من يمتلكهما، هما تهيؤ من أجل الإفصاح بحقيقة الأمر وقطع القضايا والأحكام باليقين من غير التباس ولا شك ولا توقف، فهو عليه الصلاة والسلام مهيأً للفصل بين الخصوم بتمييز الحق من الباطل، فالفصل على حقيقته هو قرار الإرادة بعد التهيؤ، ذلك أنه استكمل متممات التهيؤ في القضاء الذي يتم به الفصل بين المتخاصمين عن طريق معرفة الحق وإقامة العدل وأداة النطق بالحكم، والحكمة هي أنواع المعارف من المواهب وفصل الخطاب بيان تلك المعارف، فهذا تهيؤ عقلي ذهني من طريق العلم، وتهيؤ مادي عن طريق الأداة المادية وهو أعضاء النطق من اللسان والشفتين وما يشترك معهما.

2- تهيؤ مادي نفسي:

وهو اشتراك الأعضاء المادية مع الجانب النفسي من انفعالات تدخل في تشكل هذا التهيؤ، فإذا شاهدت أفعى مثلاً فسوف ينتابك شعور معين لا نستطيع أن نحكم عليه، وهذا الشعور يجعلك في احتمالات منها:

أ- أن تكون خائفا فتفكر في الفرار فأنت في حالة تهيؤ.

ب- أن تكون حذراً فأنت مهيّأ لتركها وشأنها.

ج- أن تكون لديك جرأة الثبات فأنت مهيّأ إما للإمساك بها أو قتلها.

فهنا أنت مهيّأ نفسيا من خلال الشعور، ومهيّأ ماديا من خلال الأدوات المهيّأة للفعل بعد أن تأخذ الإرادة قرارها وتجعلك في وضع الاستعداد لممارسة الفعل الذي يغلب عليه التهيؤ.

[291] - تفسير حقي ج 12/ ص 133

إن التهيؤ العضوي النفسي له صور كثيرة منها ما جاء في قوله تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[292] فلو لم يكن مهيّأ نفسيا من حدّة الانفعالات الغاضبة ما أقدم على فعلته، فهو لم يكن مهيّأ عقليا من تجربة سابقة مارسها أو رآها، وإنما أصبحت شدّة الغضب تسيطر على حكمة العقل فتهيأ لهذا فسوَّلت له نفسه وسهلت عليه الأمر وشجعته وصوّرت له أن قتل أخيه طوع سهل. "فصورت له نفسه أن قتل أخيه طوع له سهل عليه ومتسع له لا ضيق فيه ولا حرج، فإن قتل النفس بغير حق لا سيما قتل الأخ إذا تصوره الإنسان يجده شيئا عاصيا نافرا كل النفرة عن دائرة الشرع والعقل بعيدا عن الإطاعة والانقياد البتة، ثم إن النفس الأمارة إذا استعملت القوة السبعية الغضبية صار ذلك الفعل أسهل عليها فكأن النفس صيرته كالمطيع لها بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليها"[293].

3- تهيؤ مادي نفسي عقلي:

وهذا النوع من التهيؤ أعلى من التهيؤين السابقين، حيث تشترك فيه الأداة المادية والانفعال النفسي الذي مصدره الشعور والجانب العقلي القائم على المعلومات وسلسلة الأفكار ذات العلاقة بموضوع التهيؤ. وعلى سبيل المثال نجد الإمام الغزالي قبل أن يؤلف كتابه تهافت الفلاسفة، أنه كان يعرف القراءة والكتابة بداية، ثم اطلع على مقالات الفلاسفة في موضوعات شتى من علم الإلهيات، وما خالف فيه هؤلاء الفلاسفة بعض الثوابت الإلهية، الأمر الذي ولدّ لديه تهيؤ آخر وهو التهيؤ النفسي، وبذلك اجتمع لديه التهيؤ المادي والنفسي والعقلي، فكان قرار الإرادة بتأليف كتابه تهافت الفلاسفة بعد أن كان مهيّأ لذلك.

وهذا النوع من التهيؤ نقف عليه في قوله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ

292 - المائدة 30

293 - تفسير حقي ج3/ ص 237

تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آَتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[294].

فالتهيؤ الثلاثي الأبعاد الذي نحن بصدده هنا، متوفر قبل وقوع الحدث لدى كلٍّ من الوالدات، والمولد له، ولدى الوارث أيضا، فالتهيؤ المادي سواء أكان ناتجا عن الأداة في الرعاية والكفالة أم النفقة، والتهيؤ النفسي المتصل بصلة القربى والرحم، والتهيؤ العقلي الذي يمتلك المعلومة بأن المولود ابن لهم ويجب رعايته، فهذا التهيؤ قائم وحاضر لدى الجميع ممن شملهم النص القرآني، ومن التهيؤ المستقر في أنفس هؤلاء جميعا أن تغذية الطفل بلبن الأم أصلح له من سائر الألبان، وأن شفقة الأم وعطفها وحنانها عليه أتم له من شفقة غيرها، وهذا تهيؤ مادي نفسي عقلي.

فإذا انتفى واحد من هذه المتهيئات الثلاثة، أو تغير اتجاه واحد منها تراجعت رتبة هذا التهيؤ إلى مستوى أقل من المتوقع، لذلك نحتاج هنا إلى باعث يعيد التهيؤ إلى مستواه المطلوب، ففي قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}[295]، فقد كان لديهم التهيؤ المادي والنفسي والعقلي من أجل القتال، فقد أُخرجوا هم وأبناؤهم من ديارهم، فهم مهيّأون نفسيا من هذا الجانب بأن يتملّك عليهم ملك يقودهم، ومهيّأون ماديا بالأسلحة والأداة التي سوف تستخدم تلك الأسلحة، ومهيّأون عقليا بفنون القتال وما تجرّ الحروب من نتائج في النصر أو الهزيمة. إلا أن هذا التهيؤ كان في دائرة الممكن غير المتوقع عندما أجابهم نبيهم عليه الصلاة والسلام إلى طلبهم مخالفا تهيؤهم النفسي بقوله: {إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ

---

[294] - البقرة 233
[295] - البقرة 246

وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[296]، فالتهيؤ الذي كان قائما لديهم من الجانب النفسي يرتكز على مقاييس مادية ترفض أن يكون طالوت ملكا عليهم لأنه من الفقراء، وهم الأغنياء الذين يمتلكون الذهب والفضة والأموال، غير أن نبيهم عليه الصلاة والسلام، يعالج الأمر من منظور الخلافة، وهو خليفة الله في الأرض، وهنا يتضح لنا جانب مهم، وهو أن الخليفة الذي يتصف بالصفات النسبية للأسماء الحسنى يترفع عن القيم المادية إلى قيم روحية، بحيث يستطيع تغيير وجهة التهيؤ أو إعادة تشكله بحيث يكون الهدف منه إعمار الأرض وإصلاح ما أفسده المفسدون.

وهنا يبرز دور الخليفة في إعادة تشكل التهيؤ وتوجيهه الوجهة الصحيحة من أجل بلوغ الغاية، لأن الخليفة في أعلى مراتب التهيؤ، وهو التهيؤ الروحي الذي يصدر عن يقينيات الإيمان، لذلك أعلمهم أن هذا الأمر ليس وفق تهيؤهم، بل يجب أن يتبدل هذا التهيؤ لتقبل الأمر، فالملك الذي يكون أحد جنوده نبيا من أنبياء الله، لا بدّ أن له آية معجزة، وعلامة دالة عليه، وسمة يعرف بها قال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آَيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آَلُ مُوسَى وَآَلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[297]، فالخليفة عنده علم اليقين الصادر عن التهيؤ الروحي، ومن خلال تهيؤ الخليفة الروحي أعاد تشكل تهيؤ الآخرين وتوجيهه إلى الوجهة التي فيها صلاحهم، حيث إنهم عندما وقفوا على الآية المعجزة لم يعد لديهم القدرة على تشكل تهيؤ آخر في عدم قبول تمليك هذا الملك عليهم إن أرادوا أن يخرجوا من الاستعداد إلى الفعل الذي تهيّؤوا من أجله.

4- تهيؤ مادي نفسي عقلي روحي:

وهو أعلى مستويات التهيؤ لدى الإنسان، ذلك أنه يدخل فيه الجانب الروحي القائم على يقينيات الإيمان الكامنة في القلب فضلاً عن عناصر التهيؤ الأخرى المادية والنفسية والعقلية، وإن كان هذا التهيؤ مصدره العلم، إلا أنه علم يختلف عن العلم الظاهر الذي يأخذه

---

[296] - البقرة 247

[297] - البقرة 248

المتعلم عن العالم، فهو إما وحي يوحى أو وهب يوهب يكون الإنسان مهيّأ لتقبله قبل أن يصبح مهيّأ به، وبما أنه روحي مكمنه القلب، فهذا يعني تطهير القلب من كل دنس، وغل، وحسد، وخلق ذميم، وسوء عقيدة، فإنها من خبايات القلب، قال الله تعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[298]، فبذلك يحصل التهيؤ لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائقه وغوامض حقائقه[299]، فهذا التهيؤ هو نوع مخصوص لأُناس مخصوصين مهيئين لتقبل هذا التهيؤ دون تعلمه من الآخرين، وإنما يُرشدون به هؤلاء الآخرون للوصول إلى الحقائق مثل ما جرى بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبين أبيه حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[300] فالعلم الذي جاءه عليه الصلاة والسلام لم يكن عن طريق التعلم والدراسة، وإنما كان مهيّأ لأن يوحى له، فهو وحي إلهي ليس أي إنسان مهيّأ لذلك العلم الذي يأتي من الله تعالى عن طريق رسله من الملائكة، فالله تعالى هيّأه لأن يمنحه هذا العلم، وهو يعلم أنه مهيّأ دون غيره، لذلك قال اتبعني إلى ما أدعوك إليه، أرشدك إلى الطريق السوي الذي لا تضلُّ فيه، ولم يقل أعلمك، وفي هذا النوع من التهيؤ أيضا هناك قضية أخرى، وهي أن السن والعمر ليس له أثر في ذلك، لأن هذا التهيؤ اصطفاء من الله تعالى يهيء له من يشاء من عباده، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام كونه مهيّأ فقد اطلع على شيء من علم الله تعالى لم يطّلع عليه أباه ولم يعلمه وإن كان أكبر منه سناً، ولعلم إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن أباه غير مهيّأ، فقد قال له اتبعني فيما أدعوك إليه كي أهديك إلى طريق الرشد، ومع ذلك حتى في حال وجود التهيؤ الروحي لدى المتحاورين فإن مستويات التهيؤ تكون متفاوتة لأن كل إنسان مهيّأ لما كُلِّف به.

---

298 - الإسراء 36
299 - آداب العلماء ج1/ ص 26
300 - مريم 42- 45

وعلى هذا نرى موسى عليه الصلاة والسلام وهو نبي الله تعالى يقول للعبد الصالح: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}[301] ولعلم العبد الصالح أن موسى عليه الصلاة والسلام غير مهيّأ لما مهيّأ له العبد الصالح: {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}[302]

ومن صور هذه الرتبة من التهيؤ أن نوحا عليه الصلاة والسلام أَوحي إليه بصنع السفينة التي تكون منجاة له ولمن آمن معه، قال تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ}[303]إن ما يعلمه نوح عليه الصلاة والسلام، لم يدركه عن طريق المتهيئات المادية الناتجة عن الحس، أي ليس تهيؤه لها عن طريق الحواس.

فالإدراك الحسي وإن اطلع الإنسان على ماهية الأشياء، فإن هذا الإدراك لا يوصله إلى معرفة طبائعها، أي على ما سوف تكون عليه بعد خروجها من التهيؤ إلى الاستعداد، ذلك أن إدراك الكليات المادية من جهة الإحساس بجزئياتها، لا يوقفنا على ما ستؤول إليه فيما بعد.

بمعنى أن الأرض ندركها من خلال كونها كلية من حيث هي كوكب عن طريق الحواس، وندرك كوكب الأرض أيضا عن طريق الحواس من خلال جزئياته من الجبال والسهول والأشجار والأنهار وما فيه من كائنات، لكننا لا نستطيع أن نقف على جميع تهيؤاتها، وإن وقفنا على بعضها من خلال الحس، أو بما نملك من تهيؤ عن هذا البعض.

فإذا أردنا أن نعلم طبائع هذه الجزئيات (تهيؤاتها)، فإن التهيؤ الحسي الذي نملكه من مصادر المادة والنفس والعقل، لا يمكن أن يفي بالغرض الذي يمنحنا تهيؤ يهيئنا للوقوف على

---

[301] - الكهف 66

[302] - الكهف 67- 68

[303] - هود 36- 39

تهيؤاتها، ونحن نعلم أنه: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[304] فنحن لا نفقه تسبيحهم لأننا غير مهيّئين للوقوف على طبائع تهيؤ الأشياء.

والذي يستطيع أن يقف على تهيئها يجب أن يتمتع بالتهيؤ الروحي، وهي إدراكات ما وراء الحس، أي هو التهيؤ المخصوص لأُناس مخصوصين سلبا أم إيجابا، وهذا من التهيؤ الموجب.

أما التهيؤ السلبي، وإن كان موجبا بالنتيجة، ولكنه تهيؤ سالب للاستعداد والفعل وهذا ما سنقف عليه من خلال قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[305]. إن الله تعالى الذي هيّأ عيسى عليه الصلاة والسلام للنبوة يعلم أنه لم يقل ذلك للناس، ولكنه ذكره على سبيل التوبيخ للذين افتروا على الله ورسوله كذبا.

إن التهيؤ الروحي لدى عيسى عليه الصلاة والسلام، هو سلبي اتجاه الاستعداد للفعل، وإيجابي النتيجة، لذلك لم يكن جوابه بالنفي (أي أني ما قلت لهم هذا). ولكن كان جوابه أنه ما يكون له أن يقول ما ليس له بحق، إذن هو مهيأ لقول الحق، والذي قيل في حق مريم وعيسى عليهما الصلاة والسلام ليس من الحق في شيء، والحق الذي هو مهيّأ له أن يقول لهم: اعبدوا الله ربي وربكم، وهذا منطلق التهيؤ الروحي الذي لا يمكن أن يُتوصل إليه إلا عن طريق القلب الذي يدرك اليقينيات، إذ أنه من إدراكات ما وراء الحس، وهذا يعني أنه خارج عقولنا، ولكن ليس مثل اللون والإمتداد والحركة، مع أنها خارج عقولنا إلا أننا نستطيع أن نقف عليها من خلال وسائل المساعدة، ولا هي من الروائح أو الحرارة أو البرودة التي لها

304 - الإسراء 44
305 - المائدة 116- 117

أسبابها الكيميائية أو الفيزيائية، وإنما هي اعتقاد يقيني وليس فكرة، علماً أن الفكرة الصحيحة ما طابقت واقعا موجودا مستقلا عنها، والفكرة الخاطئة ما ليس لها واقع موجود يطابقها.

وما نريد أن نقوله: إن التهيؤ الروحي اليقيني الكامن في القلب لأناس مخصوصين، لا هو فكرة صحيحة في العقل لها ما يماثلها في الواقع، ولا هو فكرة خاطئة في العقل انتفى مثلها في الواقع، وإنما هو من إدراكات ما وراء الحس الذي يقف عليه اليقين.

أركان التهيؤ

للتهيؤ أركان هي:

أولا- مهيئ: وهو الذي يقوم بتهيئة الأشياء للقيام بما أراد لها أن تقوم به أو لما أراد أن يفعل هو بها فالله سبحانه وتعالى هو المهيئ المطلق لكل ما في الكون من مخلوقات من أجل ما أراد أن يكون كما أراد هو؛ فالملائكة مهيأة لأن تكون على طاعة الله وتقوم بكل ما أمرها به من توزيع أرزاق وحفظةٍ وكتبةٍ وحملة عرش وغيرها من الأعمال التي يريدها عز وجل منها، والذي هي من الطبيعة التي هيأت عليها، وليست مهيأة للمعاصي وعدم الطاعة{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ}306.

- المُهَيَّأ : وهو من يقع عليه فعل التهيؤ من المهيئ من أجل فعل الفعل أو الغرض الذي يُراد منه.

3- مُهَيَّأ لـه: وهو الفعل الذي حصل من أجله التهيؤ؛ فالخليفة مهيأ لأن يصلح الأرض ويعمّرها بعبادة الله وطاعته واجتناب نواهيه وهكذا، وهي مهيأة كذلك لأن تستجيب لكل رغباته، وتكون مستقرا له ومستقرة كذلك فلا تثور عليه إلا عندما يريد منها المهيئ المطلق ذلك.

4- مُهَيأ به: وهو ما يتم به تهييئ الشيء لاستقبال المهيئ له أو للقيام بالشيء المهيأ له، فمثلاً:

- المهيئ المطلق الله تعالى.

---

[306] الإنفطار 10: 11.

- فالمهيأ هو الخليفة، وهو مهيىء بالإضافة.
- والمهيأ له هو الاستخلاف في الأرض.
- والمهيأ به هو ما منحه الله من عقلٍ وقدرةٍ وإرادةٍ وخلقٍ في أحسن تقويم قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}307 وهذا يعني بالضرورة أن يكون الإنسان في أحسن تهيؤ للمهمة التي أُنيطت به مع العلم أن الإنسان مهيأ لأن يفعل الطاعات ومهيأ أيضاً لأن يفعل المعاصي؛ فكما هو مهيأ أن يحيي نفساً فهو مهيأ أيضاً لأن يقتل نفساً، ولكن من يقتل النفس بغير حق لا يمكن أن يكون مهيئاً لأن يكون من الخلفاء الذين عناهم الله بقوله : {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}308 ، أما الخليفة فهو مهيأ من الداخل بأن يقاوم وسوسة الشيطان وغضب النفس فلا يقتل النفس بغير حق ويعمل دائماً على التسامح دون هوان، والمغفرة دون مذلة، والصفح دون ضعف.

كما أن الإنسان الذي خلقه الله تعالى هو أيضا مهيأ لأن يكون خليفة في الأرض فقد هيأه المهيئ المطلق للأفعال التي يريدها من بعدة أشياء منها:

. العقل، الذي بواسطته يستطيع الإنسان أن يصل إلى حقائق الأمور ويدركها هي كما هي وبه يفرق بين الصواب والخطأ، وعن طريقه يتخذ القرار بترك الأخطاء وما فيه ضرر له، ويغضب الله تعالى الذي استخلفه، وفعل ما هو صواب وفيه له منه فائدة ،ورضا للخالق عز وجل .

. الإرادة، والتي بها يفعل كل ما يريد وكل ما اتخذه من قرارات عن طريق العقل سواء كانت سلبية أو إيجابية، فيكون بذلك جزاءه عليها عادلا لا ظلم فيه، فهو قد استحقه بأفعاله التي اقترفها بمحض إرادته.

. القدرة والقوة، والتي بدونهما لا يتسنى له أن يفعل ما قرره عقله وانعقدت عليه إرادته .

. الضمير، الذي هو بمثابة الرقيب على الإنسان والمحاسب له والرادع عن كل ما من شأنه الإضرار به، وإغضاب الله عز وجل .

---

307 التين 4.

308 البقرة 30.

.حسن التقويم، قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}309وهو المتمثل في هذه الهيئة التي عليها الإنسان من قامة منتصبة وما عليها من عقل وعيون جلد وخلايا ودماء وشرايين وغيرها مما لا يحصى من النعم التي تعينه على أداء رسالته التي كلفها الله تعالى بها، قال تعالى : {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}310.

مستويات التهيؤ لدى الإنسان:

1- تهيؤ بمستوى الحدث حيث قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}311 إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام موقن بقدرة الله تعالى لعلمه أن الذي يخلق ويُميت قادر على أن يحي الموتى، وهذه القناعة إنما هي تهيؤ للوقوف على الحدث لعلمه بأن الله قادر على إحياء الموتى، ولكنه طلب من أجل الاطمئنان "أي بصرني كيفية إحيائك للموتى بأن تحييها وأنا أنظر إليها، إنما سأل ذلك ليصير علمه عيانا، وقد شرفه الله بعين اليقين بل بحق اليقين الذي هو أعلى المقامات. والفرق أن علم اليقين هو المستفاد من الإخبار. وعين اليقين هو المعاينة لا مرية فيه"312 فالتهيؤ للفعل الخارق للعادة موجود وقائم في نفسه عليه الصلاة والسلام، ولولا هذا التهيؤ لما طلب من الله تعالى مشاهدة عملية إحياء الموتى.

إذن هذا تهيؤ عن طريق اليقين المتولد عن الإخبار الذي مكمنه القلب وليس العقل، والسبب في ذلك أنك لا تستطيع أن تجمع بين صورة الموت والحياة في وقت واحد، إذ ليس لملكات العقل أفكار عن هذه الصورة مكتسبة من الخارج، وليس له القدرة على تشكيلها في الداخل، أي لا في الذهن ولا في الواقع، لذلك هذا النوع من التهيؤ يقيني عن طريق القلب من جهة

---

309 التين 4.

310 الملك 22، 23.

311 - البقرة 260

312 - تفسير حقي ح2/ص92

الإدراك فقد قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}313.

وذكر الصدور جاء تأكيداً على أن القلب هو الذي يدرك اليقينيات وليس العقل، فقد قال عليه الصلاة والسلام:" ما من عبد إلا وفى وجهه عينان يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعده بالغيب فآمن بالغيب على المغيب، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما فيه "314، ثم قرأ(أم على قلوب أقفالها).

ومثل ذلك أيضا في التهيؤ بمستوى الحدث قوله تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}315 عندما سأل الحواريون عيسى عليه الصلاة والسلام هذا السؤال، فما كان منه إلا أن قال اتقوا الله، وهذا دليل التهيؤ واليقين، فهو متهيء لمثل هذا الفعل، وموقن بأن الله تعالى قادر ومستطيع على أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وأكثر من المائدة، فجوابه لهم عليه الصلاة والسلام، ولّد لديهم تهيؤ للحدث، بدليل أنهم أجابوا مباشرة بقولهم(نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا) فالتهيؤ الذي تولّد في نفوسهم كان تمهيداً لعذر وبيان الأمر الذي دعاهم إلى السؤال، وبهذا التهيؤ أزالوا الشبه في قدرة الله تعالى على تنزيل المائدة، أو في صحة نبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، حتى لا يقدح ذلك في الإيمان والتقوى.

2- تهيؤ أعلى من الحدث ومثال ذلك قوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ

---

313 - الحج 46

314 - جامع الأحاديث ج19/ص195

315 - المائدة 112- 114

مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}316 فالتهيؤ عند نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام، أعلى من مستوى الحدث، لأنه عندما سمعها تبسم ضاحكا، وهذا التبسم المباشر دون استغراب هو دليل التهيؤ المسبق ضمن دائرة الممكن المتوقع، لأنه مهيأ لمعرفة ما هو أبعد من منطق النملة، فقد أوتي من الله ملكا ما ينبغي لأحد من بعده، وذلك لما علمه الله تعالى من منطق الطير وحشر له الجنود من الجن والإنس وآتاه من كل شيء ما لم يؤته لأحد من خلقه، لذلك كان التهيؤ عنده أعلى من الحدث في سماعه ما تقوله النملة لبني جنسها، لأنه مهيأ لأكثر من هذا وأكبر منه بما آتاه الله من فضله.

وهذا النوع من التهيؤ نقف عليه لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر في تثبيت المؤمنين وحثهم على القتال وتبشيرهم بالنصر حيث قال تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}317 فالرسول عليه الصلاة والسلام مهيّأ من ربه لما في يقينه من فدرة الله تعالى من الإمداد من أجل النصر، وهو عليه الصلاة والسلام يريد أن يصل بأصحابه إلى أعلى درجات التهيؤ للنصر الذي وعده به ربه عز وجل، ولذلك أخذ يهيئهم لاستقبال الملائكة الذين يكونون لهم مدد من أجل النصر الموعود.

3- تهيؤ أدنى من الحدث في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}318

316 - النمل 16-19
317 آل عمران 124- 125
318 - الأعراف 143

إن موسى عليه الصلاة والسلام كان مهيأ لأن يكلمه الله تعالى بما هيأه به، علما أن الله تعالى لم يكلم بشرا إلا وحيا أو من وراء حجاب: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}319 فلما كلمه من وراء حجاب اشتاق موسى لرؤية ربه تعالى وطلب منه ذلك.

غير أن التهيؤ لسماع الكلام غير التهيؤ لرؤية الحق عز وجل، فقد سبق القول من الله تعالى أنه لا أحد من خلقه يستطيع أن يراه في الحياة الدنيا، فهو عليه الصلاة والسلام قد هيأه الله بقدرات يستطيع أن يسمع كلام الله تعالى، ولكن هذه القدرات من التهيؤ لا تقوم لرؤية الحق عز وجل، فلما تجلى الحق عز وجل للجبل وليس لموسى جعله دكا، علما أن التجلي غير الظهور وهو أقل درجة منه، واختيار الله تعالى للجبل، لأنه مهيأ أكثر من موسى عليه الصلاة والسلام، من حيث الحجم والشدة وقوة التحمل. وإن الجبال هي الأوتاد التي تثبت الأرض، وعَرْض الأمانة عليها إنما هو من قبيل هذه الصفات التي تحملها: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ}320 علما أن الجبال من جنس الأرض، وذكرها جاء على التخصيص، لأنها أشد من الأرض، وهي التي تثبتها، ومع ذلك فهي لم تثبت للتجلي فكيف تثبت للظهور؟ فموسى عليه الصلاة والسلام كان تهيؤه أقل من مستوى الحدث.

وهذه المراحل الثلاث توضح الاختلاف في مستو التهيؤ عند الإنسان، مع وجود ثوابت تدعم التهيؤ للحق وبما يجعل الإنسان المستخلف بمستوى الحدث نذكر منها:

أولاً: كثرة المفاسد تهيئة للخروج من المفاسد، حيث أنه مع كثرة انتشار المفاسد يصبح الكل متهيئ للإصلاح متطلع له فيكون هناك تهيؤ لاستقبال الرسل والمبشرين الذين يأخذون الناس من الضلال إلى النور ومن الفساد إلى الصلاح.

ثانيا: إرسال الرسل مبشرين بالجنة ومنذرين من النار لقوله عز وجل: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

---

[319] - الشورى 51

[320] - الأحزاب 72

يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}321، فقبل أن يهيئ الله تعالى الجنة والنار لاستقبال كل ما خلق فقد هيأ المخلوقين لذلك بأن أوضح لهم الحق والباطل وترك لهم سلك الطريق الذي يختارونه فمنهم من يتبع الحق ومنهم من يتبع الشيطان.

وقد كان لنا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم- أسوة حسنة فقد كان أعظم مهيئ للمسلمين لأن يكونوا صلاّحاً أقوياء بعد أن هيأه الله تعالى لذلك وذلك كما جاء في قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}322فبمجرد الاقتداء بأخلاق الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يتهيأ الإنسان للصلاح والخير، فسيرة رسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم–للباحث المتعمق فيها يجدها تعمل على تهييئ جيل صالح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وينشر الفضيلة على وجه الأرض فيكون خليفة كما أرادنا المولى عز وجل.

ثانياً: بالعلم الذي حث الخليفة للسعي ورائه لأنه أصل الوصول إلى الحق والهداية، فالمولى عز وجل هو العليم المطلق وجعل من أبرز صفات الإنسان التي من شأنها أن تهيأه لأن يكون خليفة هو سعيه الدءوب وراء العلم النافع والمعرفة الحق، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}323، فمن الآية الكريمة السابقة يتضح ما للعلم من أهمية ودرجة كبيرة في تهيئة البشر للتعرف على الخالق العظيم والوصول إلى مرضاته، وكذلك يجب على المتصف بالعلم أن يسعى بين البشر به لكي يكون مهيئاً لهم بتعليمهم تغذية عقولهم بما يجعلهم مدركين لكل ما يدور حولهم وتبصيرهم بما ينفع ويضر.

---

[321] الأنعام 58: 60.
[322] الأحزاب 21.
[323] فاطر 28.

حتى أننا نجد أن العلم بالشيء يرفع عن صاحبه الحجة على عكس الجهل به لقوله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}324.

ثالثاً: بتوضيح العلاقة الصحيحة التي لابد أن يكون عليها البشر، فمنذ بدء الخلق تهيأت النفس البشرية لأن تقبل الحق أو الباطل وهذا ما تؤكده قصة قابيل وهابيل كما جاء في قوله عز وجل: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}325، نستطيع من الآيات الكريمة السابقة أن نستنتج قانون الحياة الذي يجعلنا مهيئين للخلافة في الأرض وذلك من قول الأول (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) وهو الخوف من المولى عز وجل والسعي وراء السلم والخير.

ففي هذه القصة تهيئة للبشر بتعليمهم أن الفوز ليس بالقوة والعنف وأن الخليفة يجب أن يكون مهيئا للسلام ومهيئاً له .

التهيؤ للحدث الخارجي

وهو إما أن يكون موافقا مطابقا له، وإما أن يكون مخالفا:

1 – التهيؤ المطابق في قوله تعالى: {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ

---

324 النساء 17.

325 المائدة 27: 31.

أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}326 لقد وافق يوسف أباه يعقوب عليهما الصلاة والسلام في تهيؤ كل منهما للآخر، ذلك أن يعقوب لم يصدق إخوة يوسف فيما ادعوه من أن الذئب قد أكله، فما زاد أن قال: (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون). لذلك عندما فصلت العير قال: (إني لأجد ريح يوسف) فهو مهيّأ لأن يجد ابنه رغم ما قيل له، وبالتالي فإن يوسف عليه الصلاة والسلام كان يوافق أباه في تهيؤه، لذلك قال: (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) ونحن لا نقول أن هذا من توارد الخواطر كما اصطلح عليه نقاد الأدب عندما تتوافق الفكرة لدى أديبين، وإنما هو نتيجة الأفكار المشتركة التي تتولد منها قناعات معينة، الذي أطلقنا عليه الاستنتاج المؤدي إلى التهيؤ.

2 –التهيؤ المخالف في قوله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ}327 إن تهيؤ يوسف عليه الصلاة والسلام عندما دعته امرأة العزيز، كان نابعا من أفكار كان قد اختزنها مما أسداه إليه العزيز من معروف في كفالته وتربيته ورعايته، وجل اهتمامه كان ينصب في هذا النوع من التهيؤ الذي يريد أن يجازي الإحسان بالإحسان، وأما امرأة العزيز فإن الأفكار التي اختزنها عن يوسف عليه الصلاة والسلام كانت قد سخرتها في قضية أخرى وحولتها في اتجاه معين مما أجج العاطفة التي استثارت الغريزة، بحيث أن شدة العاطفة امتصت قدرات العقل مما سمح للإرادة باتخاذ القرار في أنها غلقت الأبواب وقالت هيت لك، قال معاذ الله، فإرادته عليه الصلاة والسلام اتخذت قرارها وفق ما كان مهيأ له، وإرادتها اتخذت قرارها وفق ما كانت مهيأة له أيضا، لذلك وقع التنافر بين التهيؤين لعدم تطابقهما، فكانت النتيجة أن قدّت قميصه من دبر.

تهيؤ الأشياء

---

[326] - يوسف 93-96

[327] - يوسف 23- 25

هو انعكاس شعورنا الداخلي على الواقع الخارجي لإدراك تهيؤ تلك الأشياء بما نمتلك عنها من أفكار، لأن إدراك تهيؤاتها خاضع لإدراك ما وراء الحس، ذلك أن حقيقة هذه الأشياء أعمق من ظواهرها التي تبدو لحواسنا. لهذا وجب على العقل أن يركّب أشتات ما يبدو له من أعماقها ليقف على تهيؤاتها، وهذا واضح تماما في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ}328 إذ أن الماء عندما يتحلل إلى عناصره الأولية في حالته الغازية من الأوكسجين والهيدروجين يكون في حالة تهيؤ ليتحول إما إلى حالة سائلة وهو الماء أو حالة صلبة وهو البرد أو حالة ليّنة وهو الثلج عندما يتساقط، فعدم رؤيتنا للأوكسجين والهدروجين هي من إدراكات ما وراء الحس، ولكن لامتلاكنا أفكارا عنها نستطيع أن نقف على تهيؤاتها التي لا تبدو لحواسنا.

وكذلك فإن للحي غير العاقل تهيؤه، وهذا التهيؤ يختلف عن تهيؤ العقلاء والأشياء، لأن مادة التهيؤ لنوع الحيوان غير الناطق قائمة على الأعضاء والغريزة حيث نجد التهيؤ لدى الطير بجميع أنواعه يعتمد هذين العنصرين، فإذا وقعت عينك على غراب ستجده يبحث في الأرض بمنقاره ورجليه، لذلك لم يهتدِ قابيل لما اهتدى إليه الغراب لأنه غير مهيأ لمثل هذا الفعل، قال تعالى: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}329 فهو مهيّأ لدفن غراب آخر.

ولأن الطير مهيأ بخواص معينة فقد اختاره سليمان عليه الصلاة والسلام كي يوصل كتابه إلى ملكة سبأ لأنه مهيأ لمثل هذه المهمة حيث قال تعالى: {اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}330 فالهدهد له جناحان تؤهله للطيران، أما اختياره دون غيره من الطير، لأنه مهيأ لهذه المهمة بالذات، علما أن هناك من الطيور من هو أقوى منه في

---

328 - النور 43

329 - المائدة31

330 - النمل 28

البنية وأشد سرعة كالنسر والصقر والعقاب، و سبب اختياره أيضا لأنه هو الذي أتى بالنبأ في قوله تعالى: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}[331] فهو مهيّأ من هذا الجانب كونه رأى المكان والملكة وقومها وسمعهم يتحدثون وكذلك شكل الهدهد وجماله وكونه طائرا وديعا، فهذا يعني أنه يتمتع بمواصفات تهيؤه لأن يقوم بمهمة إيصال الرسالة، فاختار سليمان عليه الصلاة والسلام من وجد فيه التهيؤ لأن يكون رسولا.

وكذلك بقية الحيوانات من الوحوش وغيرها مهيأة لما خلقت له، ومصدر تهيئها هو الأعضاء والغريزة، فالسباع والحيوانات المفترسة مهيأة لأكل اللحوم، وتهيؤها لهذا العمل معلوم لدينا بما نمتلك عنها من أفكار،لذلك قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: {قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ}[332] فهو لعلمه تهيؤ الذئب للافتراس وأكل اللحم خشي على يوسف منه، لذلك وجدنا إخوته عندما جاؤوا أباهم عشاء يبكون كان جوابهم له ضمن دائرة التهيؤ: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}[333].

ومن ناحية ثانية أن السباع لديها تهيؤ للافتراس وأكل اللحم، وتهيؤها مصدره الغريزة والأعضاء، إلا أنها لا تأكل أولادها، فهو تهيؤ ضمن التهيؤ بأن لا تأكل أولادها، مع أن ذلك قاعدة استثناء، لأن هناك من الحيوانات التي تأكل أولادها.

إن تهيؤ الإنسان هو نتاج العاطفة التي تدفع الغريزة لإشباع الحاجة، كما أن صيادا يتهيأ لصيد الطريدة، أي مرحلة ما قبل الاستعداد للرمي، فإذا وصل إلى مرحلة الاستعداد، خضع لقرار الإرادة، وبالتالي فإن الطريدة تتهيأ من خلال استعداده لأنها تشعر بالخوف عن طريق الغريزة، وهذا الخوف هو تهيؤ من أجل الاستعداد للفرار، ومعنى هذا أن جنس الحيوان يستمد تهيؤه من غرائزه.

---

[331] - النمل 22
[332] - يوسف 13
[333] - يوسف 17

أما الانتقال من التهيؤ إلى الاستعداد ثم مباشرة الفعل فهو مرتبط بالعقل لدى الإنسان بما تكون عليه النتائج وفق الأخلاق التي يحملها، وأما بالنسبة للحيوان فذلك مرتبط بالغريزة وردة الفعل للانتقال إلى الاستعداد والتصرف.

فالتهيؤ لا يقتصر فقط على البشر بل يتعداه لجميع الكائنات والمخلوقات الأخرى، فمثلاً الحشرات تتهيأ لاستقبال الشتاء والبرد بتخزين الطعام لعدم قدرتها على التحرك خارجاً في البرد، فتهيئ نفسها على ذلك كالنمل مثلاً، وكذلك النحل فهو يتهيأ لإنتاج العسل وصنع الخلايا، واتخاذ الجبال بيوتاً لقوله تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[334]، وكذلك العنكبوت الذي يصنع بيته من خيوط واهية ليهيئ نفسه للصيد والكثير من الحشرات التي تتهيأ للحياة والاستمرار فيها والدفاع عن نفسها بقدرة الله تعالى، وكذلك الأمر بالنسبة للحيوان الذي يتهيأ للدفاع عن حياته وحياة صغاره ، وكذلك الأشجار والثمار التي تتهيأ للتلقيح ومن بعد ذلك تتهيأ للقطف سواء كان ذلك للعلاج أو الزينة أو غيرها من الاستخدامات، والطيور كذلك التي تتهيأ لبناء أعشاشها من القش واحدة تلو الأخرى وغير ذلك من الكائنات الحية التي تتمثل فيها صور التهيؤ لاستقبال الحياة وسبل العيش فيها.

والتهيؤ شعور يسبق أي ردة فعل أو انفعال أو تصرف يصدر عن المخلوقات بصفة عامة وعن الإنسان بصفة خاصة، لأن من شأن التهيؤ إذا كان في الاتجاه الصحيح أن يجعل من الإنسان قوياً وحكيماً لا يضعف ولا يفاجأ في الحياة فلا يحسن التصرف في معالجة الأمور، ولهذا كان لابد من التهيؤ حتى في أدق أمورنا وفي تفاصيل حياتنا اليومية كأن يتهيأ الرجل حتى في دخوله بيته لتتهيأ زوجته بالتالي لاستقباله، وكذلك الأب وأبنائه ورب العمل وجميع فئات المجتمع الإنساني.

التهيؤ المطلق

---

[334] النحل 68: 69.

إن الله سبحانه وتعالى هيّأ كل شيء في هذا الكون وفق مشيئته بما أراده سبحانه وتعالى، فالمهيئ المطلق هو الذي يتصف بكمال الفعل ومطلق الصفة (الله)، وعلى هذا يكون التهيؤ المطلق على نوعين:

1- تهيؤ كلي يخضع له كل ما في الكون بما هيّأه الله تعالى، وآيات تهيئة الكون أكثر من أن تحصى، ففي قوله تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}335 ، فالناظر إلى الأرض قبل أن تسقى الماء، يراها هامدة ميتة، ولكن كونها مهيأة لإنبات الزرع والأشجار ودبيب الحياة فيها، فعندما تسقى الماء تنبت من كل زوج بهيج، وذكر الزوج لأن كل شيء في هذا الكون قائم على التزاوج من الإنسان والحيزان والنبات وما نطلق عليه الجمادات، وفي ذلك حكمة إلهية تدل على أن الله هو المتفرد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، وكذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}336، فالشمس مهيأة لأن تكون ضياءً، والقمر مهيأ لأن يكون نورا، بدليل أن الذين نزلوا على القمر لم يقولوا أن للأرض نورا ينعكس على القمر مثلما ينعكس نور القمر على الأرض، علما أن ضياء الشمس يسطع عليهما جميعا، ذلك أن الأرض مهيأة للحياة، وأن القمر مهيأ لأن يكون نورا لهذه الحياة.

وكذلك تهيؤ كلي لجنس الإنسان في انتشار البشر من نفس واحدة الذي يكمن في تهيئة آدم عليه الصلاة والسلام وخلق حواء منه ثم خلق البشر منهما، فقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}337 فالناس كلهم من نفس واحدة، فكيف اختلفت أشكالهم وألوانهم وألسنتهم لولا أنهم مهيؤون لذلك، وهذا يدخل ضمن التهيؤ الكلي للنفس الأولى التي خلقوا منها.

---

[335] - الحج 5

[336] - يونس5

[337] - النساء 1

2- تهيؤ جزئي على مستوى أفراد الأشياء من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وكل واحد من هذه الموجودات لها تهيؤها المناسب لخلقها وطباعها وما جبلت عليه، فالإنسان بخلقه وطبعه وعقله مهيأ لأشياء كثيرة من أجل إعمار دنياه وآخرته فقد قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}338 فكل ذلك هو تهيؤ لما بعده، ومن عجائب التهيؤ في العين أنها مهيّأة لترى جميع الأشياء كبيرها وصغيرها، وجليلها ودقيقها، بحجمها الطبيعي وبعدها الحقيقي، عن طريق سائل تحت الغشاء المحيط بها، فإذا زادت نسبة هذا السائل أو نقصت أصبحت العين مريضة وتحتاج إلى هذه المكبرات التي نطلق عليها نظارات، فهذه النظارات منها للتكبير ومنها للتصغير، ومنها للبعد ومنها للقرب، وكل نوع من النظر يحتاج إلى عدسة من نوع يختلف عن غيرها، فهذا السائل المائي مهيأ لأن يقوم بكل هذه العمليات من الرؤيا والإبصار، إضافة إلى ذلك فإن حدقة العين مهيأة للتقلص والتمدد، ففي حال اشتداد الضياء تتقلص الحدقة بحيث تأخذ من الضياء ما يكفيها للرؤيا والإبصار ولا تسمح بدخول ضوء أكثر من حاجة العين، وفي هذه المرحلة تتقلص العدسة العينية بما يناسب شدة الضوء، وأما في الظلام وقلة الضوء فإن الحدقة تتوسع مما يؤدي إلى توسع العدسة لتجمع من الضوء ما تحتاجه للرؤيا، فهذا التناسب العكسي بين العين من جهة والضياء والظلام من جهة ثانية، إنما يدل على تهيئة المهيأ عز وجل للخلق من أجل شؤونهم، ومن ناحية أخرى فإن لكل إنسان عينان ما لم يطرأ عليهما طارئ من عمى أو عور أو إصابة لعلة ما، فإذا نظر هذا الإنسان بعينيه إلى وردة مثلا، فإنه يرى وردة واحدة، فإذا أطبق اليسرى ونظر باليمنى يرى الوردة نفسها بحجمها وشكلها وطولها ولونها، وإذا أطبق اليمنى ونظر باليسرى، فسوف يقف على المنظر نفسه، فإذا فقد إحدى عينيه ونظر بالتي بقيت فلن يتغير عليه المنظر، أليس هذا من عجائب التهيؤ الذي أودعه الله تعالى في الإنسان لكون مهيأ لما هو مكلف به مما فرضه الله تعالى على عباده.

338 - البلد 8- 10

وكذلك اللسان والشفتان إذا دقق العقل فيهما، ولولا أهميتها وتهيؤهما لأشياء لما خصهما الله تعالى بالذكر، فاللسان مهيأ لأن يكون مترجما عما يجول في العقل وما يكنه القلب، إضافة إلى ذلك فهو مهيأ أيضا لأن يتذوق الطعوم على اختلاف أنواعها من الحلو والحامض والمالح والمز والمر، وما تداخل من ألوانها،وهذا غيض من فيض عن تهيؤ الإنسان.

وأما الشفتين فإنهما مهيأتان للفتح والإطباق فلا يمكن الكلام إلا بفتحهما وإطباقهما ليستعين الإنسان بإطباق شفتيه على بعض الحروف وفتحهما في البعض الآخر، فهما مهيأتان للضم والانبساط للنطق والأكل والشرب والنفخ والصفير، وأما تهيؤ الإنسان في تكوينه بشكل عام فسوف نتناوله ما استطعنا في ذلك من التفصيل.

لقد أودع الله في الإنسان فطرة التمييز بين الخير والشر، وجعل له عقلا يرشده إلى ما في الخير من جمال وحسن، وإلى ما في الشر من قبح وسوء، وقد جعل الله طريقي الخير والشر كأنهما مكانان مرتفعان واضحان يراهما كل واحد أينما كان، ففي طبيعته هذه تهيؤ مزدوج لسلوك أيّ النجدين، وبوجود العقل المميز يستكمل الإنسان أصول التعلم والتعليم الذي يقود إلى الهدى، فإن الإنسان خلق مهيّأ للمعرفة محبا للتعريف فبمشاعر الإدراك، يكتسب من المشاهدات أصول المعلومات اليقينية، وبالنطق يفيد ما يعلمه لغيره، وبالهدي إلى الخير والشر يميز بين معلوماته ويمحصها ويدققها كونه مهيّأ، واستعير النجدان للخير والشر، وجعلا نجدين لصعوبة إتباع أحدهما وهو الخير وترك الآخر وهو الشر،فالخير فيه من الصبر والمشقة والمكابدة ما يدفع الكثير من المهيّئين لإتباعه إلى تركه، وكذلك الشر فيه من المغريات من المباهج والمحاسن التي تغري شهوة النفس إلى إتباعها وترك نجد الخير علما أنه مهيأ له ، ولأن كل واحد صعب باعتبار مغاير، فالأول من حيث السلوك والثاني من حيث النتائج كان التهيؤ موجودا في النفس الإنسانية لإتباع أحدهما ويكون التمييز بقرار الإرادة بعد التهيؤ ، فطريق الخير صعوبته في سلوكه، وطريق الشر صعوبته في عواقبه، ولذلك عبر عنه بعد هذا بالعقبة.

إذا نظرنا إلى خلق الإنسان فسوف نجد أن كل مرحلة من هذه المراحل تهيؤ لما بعدها،فقد قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}339 إن خلق الإنسان من سلالة من طين دليل تهيؤ، ذلك أن الأرض ينبت فيها الطيب والخبيث، ومنها السهل اللين ومنها الوعر القاسي، ومنها الشديد الصلب، ومنها الرخو الطيّع، وهو تهيئة لما سيكون عليه الإنسان، منهم الغليظ الفج ومنهم الدمث الأخلاق، والمؤمن والكافر والطائع والعاصي، والعاق والمرضي هذا بداية، ثم بعد ذلك جعل الله تعالى الإنسان في ذرية آدم عليه الصلاة والسلام وهيأه على شكل نطفة، وهيّأ لهذه النطفة قرارا تستقر فيه محفوظة من الريح والفساد وفق جوّ يلائمها ودرجة حرارة تناسبها، وفي هذه التهيئة، تهيؤ لمرحلة قادمة، وهذا التهيؤ يستغرق أربعين يوما لكي تنتقل إلى علقة من دم أحمر، وتدخل في تهيؤ جديد أربعين يوما لكي تنتقل إلى مرحلة المضغة، ثم تدخل المضغة مرحلة تهيؤ أربعين يوما حتى يتسنى لها أن تصبح عظاما، ثم يكسوها لحما، وفي هذه المرحلة يكون هذا الخلق مهيّأ لتقبل الروح والتكوين الإنساني، وهنا يدخل مرحلة تهيؤ مادي عضوي لتقبل الحياة الجديدة المقبل عليها، من أخذ شكل الإنسان في تكوين الأطراف الخارجية والأجهزة الداخلية التي تهيؤه للحياة، فيتكون الجهاز الهضمي والجهاز العصبي والجهاز التنفسي والدورة الدموية، فكل هذه الأجهزة والأدوات والأعضاء، إنما هي في طور التهيئة، ولا يتم استعمالها إلا عندما ينتقل من عالمه الداخلي إلى العالم الخارجي.

فالله سبحانه وتعالى عندما أراد بمشيئته أن يكون الإنسان خليفة في الأرض، هيّأه وهيّأ له الأسباب التي يكون بها خليفة بحق فيما أراده الله تعالى له، وأول هذا التهيؤ في خلقه وتكوينه فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}340 فقد سوّاه وجعل الأعضاء سليمة سوية معدة لمنافعها وعدلها بعضها

339 - المؤمنون 12- 16

340 - الانفطار 6- 8

ببعض بحيث اعتدلت ولم تتفاوت و صرفها على هذه الخلقة الملائمة لهذا الشكل وهيّأها لما أعدت له، ثم ركبها بالصورة التي شاءها بحيث تصلح للعبادة والخلافة في الأرض من أجل إعمارها.

فالتسوية تهيؤ بحيث جعل أعضاء الإنسان سوية سليمة معدة لمنافعها، بحيث يترتب على كل عضو تهيئته للمنفعة التي خلق ذلك العضو لأجلها، كالبطش لليد والمشي للرجل والتكلم للسان والإبصار للبصر، والسمع للأذن واللسان للفظ والذوق، والشعر للوقاية من الحر والبرد إلى غير ذلك من تهيئة بقية الأعضاء، وتعدل بعض تلك الأعضاء بالبعض الآخر بحيث اعتدلت ولم تتفاوت مثل أن تكون إحدى اليدين أو الرجلين أو الإذنين أطول من الأخرى، أو تكون إحدى العينين أوسع من الأخرى أو بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود أو بعض الشعر فاحما وبعضه أشقر، فالله سبحانه وتعالى عندما أراد الإنسان أن يكون خليفة في الأرض ركبه وعدله وسوّاه وهيّأه في أحسن تقويم، فمثلا ننظر إلى جانبي جثة الإنسان هي على التساوي حتى أنه لا تفاوت بين نصفيه لا في الأطراف الخارجية ولا في التركيب الداخلي، ولا في العظام ولا في أشكالها ولا في الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها، فكل ما في أحد الجانبين مساوٍ لما في الجانب الآخر.

إذن الإنسان عندما خلقه الله تعالى هيأه لما هو مكلف به، وأول هذه التكاليف هي العبادات المفروضة. هنا نسأل سؤالاً مفاده، هل الإنسان مهيأ للعبادات؟

قبل أن نقف على حقيقة التهيؤ للعبادات من قبل الإنسان، لا بدّ لنا أن نعلم هذه العبادات المفروضة، علما أنه لا تقبل عبادة إلا بشهادة الحق التي كانت أول ما دعا به رسول الله عليه الصلاة والسلام في أول الدعوة عندما كان يطوف على الناس بالأسواق فيقول:" يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"[341] والعبادات التي نتكلم عنها هي العبادات المفروضة غير التطوع والنوافل، فبعد شهادة الحق تقبل العبادات من الصوم والصلاة والحج والزكاة، وسيكون تركيز التهيؤ على الصلاة لأنها عماد الدين من جهة، ولأن العبادات الأخرى قد

[341] - المستدرك للحاكم ج 1/ ص496

تتوفر شروطها التي توجب إقامتها وقد لا تتوفر، أما شروط الصلاة فلا تزول, ومعنى ذلك أن الإنسان خلق مهيأ للصلاة، ولولا أنه مهيأ لما أمره الله تعالى بذلك حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}342 وقد يظن البعض ما ورد في هذه الآية الكريمة من أوامر الوضوء وكيفيته، أو الغسل والطهارة والاستنجاء، أو التيمم، يعتقد البعض أن هذه الأعمال هي التهيؤ للصلاة، ولكننا نقول: أن هذه الأوامر وفعل هذه الأعمال إنما هي استعداد للصلاة، ولكن التهيؤ شيء غير هذا يدخل في ثلاث مراحل هي:

1- تهيؤ عضوي مادي: إن الإنسان في خلقه من هذه المادة التي تتوزع ما بين عظم لحم ودم وأعصاب، وبصرف النظر عن الجانب العلمي لمهمة هذه الأجزاء، فنحن في موضوع التهيؤ نركز على الجانب العملي لهذه الأعضاء، فالعظم هو عماد اللحم الذي يقوم عليه، واللحم هو كساء لهذا العظم، وتقوم الأعصاب والأوردة والشرايين بعملية الربط بين الأجزاء في المفاصل المهيأة للحركة، إضافة إلى دورها الآخر في التغذية والتنبه وما إلى ذلك، وبهذه المفاصل المتحركة في اتجاهات مختلفة، وما يستطيع الإنسان القيام به من قيام وقعود، وجلوس وبروك والتفات وحركة أعضاء، جاءت وضعية الصلاة في أدائها مطابقة لما مهيأة له هذه الأعضاء من الحركات في القيام والركوع والسجود والجلوس والتسليم، ولهذا لم يكن الركوع مثلا إلى جهة اليمين أو جهة اليسار، ولا التسليم إلى الخلف، وذلك لعدم التهيؤ لهذا النوع من الفعل، وإنما جاء الصلاة مطابقة لما مهيأ له الإنسان عضويا.

2- تهيؤ نفسي داخلي: ويكون هذا النوع من التهيؤ هو من محببات القيام بالفعل والرغبة فيه، وهو أن الصلاة فرض واجب على المسلم أن يؤديه، إضافة إلى القناعة وأنها تعين على

---

342 - المائدة 6

الصبر {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}343 فالخشوع صفة من صفات المتقين الذين وعدهم الله بأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، وأعد العاصين بالعذاب في نار جهنم، وكذلك فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فهذه قمة مكارم الأخلاق التي تألفها النفس الإنسانية، فالمحفزات من الثواب لمن أقامها، والروادع والزواجر من العقاب لمن تركها، تولد تهيؤاً نفسيا يؤدي إلى الاستعداد للفعل.

3- تهيؤ ذهني عقلي: إن المصلي بطبيعة الحال هو متهيؤ ذهنيا وعقليا، ونقصد بذلك أنه يعلم النداء والإقامة وكيفية الدخول في الصلاة، والتكبير والحمد والتسبيح وسورة الفاتحة وشيئا من القرآن والصلوات الإبراهيمية وكيفية الخروج من الصلاة بالتسليم، ودليل التهيؤ الذهني وعدمه أنك عندما تصلي في البيت مثلا، وفيه طفل لم يبلغ مرحلة التمييز، فعندما تركع، يركع معك ثم يتركك ويبتعد عنك لأمر خطر في ذهنه من لعب أو طعام، فيمضي لحاجته، ثم يأتيك وأنت ساجد فيسجد معك ثم يتركك ويمضي لشأنه وأنت ساجد، وتفسير هذا الأمر، أن هذا الطفل مهيأ للصلاة عضويا فقط، وينقصه التهيؤ النفسي والتهيؤ العقلي الذي يعبر عن المعلومة، بمعنى أنه لا يدري ما الذي تقوله أنت في صلاتك، ولو كان يعلم ما تقوله في صلاتك لاستمر، أو لاستمر بقدر ما هو مهيأ من الجانب العقلي.

أنواع التهيؤ

التهيؤ نوعان:

1-كامن؛ وهو المبني على علم سابق بفعل لاحق، انظر إلى سيدنا إبراهيم وفعله بأوثان قومه، يقول المولى عز وجل: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ

343 - البقرة 45

الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}344 ، فالتهيؤ للحق مكتمن في نفوسهم أظهره منطق إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي هو بدوره متهيئ لإظهار الحق بمنطقه.

والتهيؤ الكامن يرتكز على الإرادة والقوة معا، كتهيؤ سليمان عليه الصلاة والسلام، يقول الحق سبحانه مخبرا عن تهيؤ سليمان للفعل المخصوص: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}345 ، عليه فالتهيؤ كان موجوداً تاماً عند الذي عنده علم من الكتاب، أما عند غيره فلم يكن للتهيؤ حضورا أو اكتمالا يمكن أن يمكنهم من بدء الاستعداد للفعل المخصوص.

فالتهيؤ الكامن هو صورة مكتملة في الباطن تمثل بداية مكتملة يتبعها الاستعداد ثم الفعل مع وضوح الاختلاف في الامتداد الزماني، فالعفريت احتاج إلى زمن أطول من الذي عنده علم بالكتاب للقيام بالمراحل الثلاث، لنسبية الاستعداد عند العفريت، بينما استغرق الذي عنده علم من الكتاب زمنا أقل بقوة الاستعداد (علم من الكتاب).

والتهيؤ الكامن لا يظهر إلا بإرادة، يقول الحق سبحانه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}346، فهؤلاء تهيئوا للحق لكنهم أبو إظهاره واظهروا غيره، فالكامن عندهم غير الظاهر.

---

344 الأنبياء 51-63.

345 النمل 38-40.

346 النمل 14.

2- ظاهر؛ وهو التهيؤ الذي يرتكز على القوة الكامنة بالإرادة حينا ومن دونها حينا آخر، ويتمثل في صور متعددة، فالبلوغ عند الشاب أو الفتاة هو تهيؤ ظاهر استعدادا لفعل الزواج، والثمر في الشجر هو تهيؤ ظاهر استعداداً لفعل القطف، وهذا كله من التهيؤ الفطري، أما أدوات العلم في الإنسان فإنها تدل على التهيؤ الظاهر الإرادي لقبول العلم، فوجود الحواس إلى جانب العقل دلائل على التهيؤ الظاهر في الإنسان للاستعداد لقبول العلم، يقول سبحانه وتعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}347، فقوله الله تعالى: (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) يعني أن بذلك يحصل التهيؤ لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائقه وغوامض حقائقه348.

وقد يكون التهيؤ الظاهر في غير المسار الحق فيظهر على غير صورته الحقيقية، فالإنسان يجب عليه أن يجعل إيمانه بالله عز وجل مطلقا وفي تصريف شؤونه مطلقا كذلك، وهو بذلك يُظهر التهيؤ لأي أمر شاءه الله سبحانه وتعالى، ولكن الكثير من الناس من ينسى سلطان ربه فيُظهر غير ما يجب وعن هؤلاء يقول المولى عز وجل: {لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ}349، أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير350، فهذا اليئوس القنوط تهيأ لانقطاع الخير عنه باليأس من رحمة الله.

لقد منَّ الله على الإنسان بأن أعطاه ما يمكنه أن تتهيأ له الأشياء في العقل قبل وجودها في الحيز فمكننا من بلوغ ما يكون قبل أن يكون، فتأمل لو أنك أردت بناء بيت ألا تتهيأ لك صورته في عقلك قبل أن تظهر صورته في الوجود!

وعلى ذلك زد في تأملك واسأل نفسك كيف تفسر النجاح في الابتكارات والمنجزات العلمية والإنسانية؟ أليس التهيؤ من أهم أسباب هذا النجاح، هنا نقول أن اختيار الإنسان للاستخلاف لم يكن إلا لكونه متهيئ للقيام بأمر الخلافة على أحسن وجه وبأجمل صورة، ولابد من القول أن التهيؤ خصيصة في الكينونة عند المخلوقات جمعيها إراديا أو فطرياً، لكن الإنسان

---

347 الإسراء 36.

348 آداب العلماء والمتعلمين ، الحسين بن المنصور اليمني ج1 ص26.

349 فصلت 49.

350 ابن كثير 186/7.

مخصوص بميزة التهيؤ النابع من العقل ليتسنى له ويتيسر في الوقت ذاته إعمار الأرض التي استخلفه الله عليها.

والتهيؤ حالة كاملة من حالات المخلوق، ولو لم تكن كاملة لغاب العلم به والجزاء عليه، فالله سبحانه وتعالى يقول: {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ}351 ، واختار الله لفظة علم لمناسبتها للكلية، فالعلم كلي والمعرفة جزئية، فما تكن صدورهم متكامل في ذواتهم متهيئ في الكامن فهو حالة واضحة الملامح مترابطة الأجزاء أعلنوها أم لم يعلنوها.

زمن التهيؤ

ذكرنا فيما سبق أن التهيؤ حركة بعد سكون، وما من حركة إلا باستغراق زمني، لذلك وجب أن نفهم زمن التهيؤ.

إن استغراق الأشياء في السكون ما هو إلا مرحلة سابقة للتهيؤ، بينما الاستعداد مرحلة لاحقة له، والمسافة ما بين السكون والاستعداد هي حيز التهيؤ وهو فيها في ديمومة حركية مستغرقة للزمن. فالا سكون يجعل من التهيؤ صورة دائمة، انظر إلى النار لتجد أنها في حالة تهيؤ دائم في حركة موحية لكنها لم تصل مرحلة الاستعداد، يقول عنها الحق سبحانه: {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}352، فمتى تصل درجة الاستعداد عندما يسعرها الله سبحانه وتعالى: {وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ}353، كذلك الجنة فهي في حالة تهيؤ وتصل الاستعداد عندما يأمرها الله سبحانه لتستعد لاحتضان المؤمنين بالله وملائكته وكتبة ورسله، {وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ}354.

التهيؤ بين الأنا والآخر

لاشك أن تهيؤ الأنا مرتبط بالآخر، عاقلا أم غير عاقل، فهو حركة إلى الخارج وليس إلى الداخل ويبنى على عدة أمور هي:

---

351 القصص 69.

352 آل عمران 131.

353 التكوير 12.

354 التكوير 13.

1-الاستشراف، ومعناه التطلع إلى الشيء355، وهو عملية تقوم بها الأنا فيكون على هيئة مخصوصة وفق ما عند الآخر من حال أو ميل أو اتجاه للموجب والسالب على حد سواء، وآية الاستشراف ما أخبر عنه الخبير جل وعلا في محكم كتابه عن عبد ذي القرنين فقال: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}356. لقد استشرف ذو القرنين واقع الحال فتطلع إلى مانع يمنع هؤلاء المعتدين من الوصول إلى الناس فتهيأ له السد الحديدي ثم بدأ الاستعداد بجمع الحديد ثم فعل ما تهيئ له فكان التهيؤ إبداء قبل الإظهار، وأصبح للسد هيأة قبل أن يكون .

2- الاستشعار، هو عبارة عن تجميع المعلومات عن الآخر دون تماس أو تداخل معه، وهي من وسائل الأنا للتهيؤ للآخر، ويمكن لنا أن نتمثل بقصة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام التي أخبر عنها مولانا الحق سبحانه فقال: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}357، والإحساس: العلم بالشيء ، والمراد بالإحساس هنا : الإدراك القويّ الجاري مجرى المشاهدة358، هنا استشعر عيسى عليه الصلاة والسلام كفرهم بأن جمع

355 در الغواص في أوهام الخواص ج1، ص 45.
356 الكهف 93-97.
357 آل عمران 49-52.
358 فتح القدير ، الشوكاني ج470/1.

المعلومات عن بعد فكان أن تهيئ لهذا الكفر بدعوة أنصاره إلى طريق الحق فكان الحواريون أصحابه.

وقال الله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آَخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ}359 ، الإحساس هنا مطلق الإدراك360، وقد تأتي لهم من خلال الاستشعار بآيات العذاب فكانوا على هيأة مخصوصة وصفها الله سبحانه بالركض دلالة على الهرب بعد الاستشعار.

3- الإيقان، الإيقان بالشيء هو العلم بحقيقته بعد النظر والاستدلال361، والتهيؤ الحاصل بعد الإيقان هو من موجبات الإيمان ومن دلائله، وما من مثال أوكد في تفسير ذلك من قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي أراد له الله أن يكون من الموقنين فقال مخبراً عنه، {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}362، فقد أمعن إبراهيم عليه الصلاة والسلام النظر في الأشياء ثم أستدل بها على الحق فأيقن وحصل التهيؤ للإيمان والتسليم لله رب العالمين.

كذلك قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع العبد الصالح، فقد أمر الله موسى بالبحث عن العبد الصالح للتعلم منه، ولان العبد صالح فقد تهيئ موسى عليه الصلاة والسلام للعلم والعمل الصالح، {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ

359 الأنبياء 11-13.
360 تفسير الالوسي ج12، ص 336.
361 التعريفات ، الشريف الجرجاني ج1/ص12.
362 الأنعام 75-79.

مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}363، أما العبد الصالح فقد تهيئ لاستيعاب استغراب موسى وتعجبه فقال له كما يخبرنا العليم سبحانه وتعالى: {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}364، وتهيؤ العبد الصالح كان أقرب إلى صورته الحقيقة وذلك عندما اظهر موسى عليه الصلاة والسلام الاستغراب والتعجب بالفعل، {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا}365، أما تهيؤ موسى فكان متغيراً لأنه في مرحلة طلب العلم بينما العبد الصالح أتم هذه المرحلة وتهيئ لمرحلة أخرى هي تعليم موسى عليه الصلاة والسلام.

4-التوسم، هو التفرس بالأشياء وذلك بالاستدلال بالظاهر على الباطن366، وهو ما أشار العليم الخبير إليه في آياته مُذّكراً عباده فقال: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}367، التوسم من الطرق التي تؤدي إلى التهيؤ الحق وللحق، وهو طريق لمعرفة الآخر والتهيؤ له.

ومن الظاهر الدال على الباطن العلامة وهي سمة مميزة في الأشياء تدل على بواطنها، يقول الحق سبحانه: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}368 ، هنا السيمياء هي علامة السجود لله سبحانه إيمانا به وطاعة له فهي صورة، أما في قوله تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}369، فالسيمياء هنا أخلاقهم ومعاملتهم مع الناس، أما في قوله تعالى : {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ}370 ، فاليسمياء هنا للكلم.

---

363 الكهف 65-66.
364 الكهف 67-68.
365 الكهف 71.
366 الفراسة عند العرب ، يوسف مراد ، ترجمة مراد وهبة ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1982، ص 94.
367 الحجر 73-75.
368 الفتح 29.
369 البقرة 273.
370 محمد 30.

ومن معرفة السيمياء يمكن أن يحصل التهيؤ الدقيق للأخر من خلال صورته أو معاملته أو كلمه.

أسباب التهيؤ

يرتبط التهيؤ ارتباطاً شرطياً بالمتغير فهو حالة من حالاته، أما الباقي سبحانه فأمره كن فيكون، وإنما هو الذي وهب الأشياء خصيصة التهيؤ ومكنها منه بما جعل فيها من أسباب التهيؤ وهي:

1- المشيئة، مشيئة الله موجودة في كل مخلوقاته، "فمعلوم أنه ليس في المخلوقات شيء هو وحده علة تامة وسبب تام للحوادث بمعنى أن وجوده مستلزم لوجود الحوادث، بل ليس هذا إلا مشيئة الله تعالى خاصة فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن"[371]، فمشيئة هي التي جعلت الإنسان مهيأ لإعمار الأرض، ومشيئة الله هي التي وهبت الجبل التهيؤ ليكون من رواسي الأرض، {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا}[372].

وبالمشيئة كان الجمل مهيئاً ليسير في الصحراء سالكاً لمسالكها ومجالداً قساوة أنوائها، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[373].

2- العقل، وهو ما امتاز به الإنسان فقد أكرمه الله به، وهو عند الإنسان من أهم لوازم التهيؤ لأنه بمثابة الرحم الذي يحتضن المُهيأ لحين اكتماله كلا كاملا قبل الظهور.

3- الغريزة، وهي عامل مشترك بين المخلوقات الحية، فقد جعلها الله في هذه المخلوقات لتمتلك القدرة على التهيؤ لما هو مقدر لها في الحياة الدنيا، فالإنسان مُهيأ للتزاوج بفعل الغريزة، والحيوانات مهيأة للأكل والتكاثر بالغريزة لا بالإرادة، والنباتات مهيأة للإثمار بالغريزة وكذلك يتخل البعض مع البعض في الغرائز.

التهيؤ لمعرفة الخالق

---

[371] جامع الرسائل ، ابن تيمية ج1، ص 370.

[372] فصلت 9-10.

[373] الغاشية 17.

الإنسان يقينا هو موجود، وهذا لا لبس فيه، ولكن الذي يجب أن يعلمه يقينا أيضا، هو أن يعلم واجده، وأسباب وجوده والغاية التي وجد من أجلها.

لقد أسلفنا الذكر في تهيؤ الإنسان العضوي والنفسي والعقلي، وهذه المتهيئات إضافة إلى ما ذكرناه من خواصها ومهامها، فهي أيضا توصل إلى واجده، وكشف أسباب وجوده والغاية التي وجد من أجلها، فمما لاشك أنه ليس شيء في هذا الكون وجد بنفسه أو وجد مصادفة أو وجد لا إلى غاية، ونحن هنا لا نتكلم في الواجد، لأن ذلك من نافلة القول وأن الله هو الخالق البارئ المصور، ولكننا نتكلم في الموجود وأسبابه وغايته كي نصل إلى الواجد من خلال آيات الوجود فقد قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}374، ولئن سألت من خلق السموات والأرض وهذا الكون، وسخر الشمس والقمر، وبثّ في الأرض أسباب الحياة، ليقولن الله، وهي مسخرة لمصالح الخلق، حيث أن الشمس والقمر يجريان على الدوام، والتسخير جعل الشيء منقادا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرا، وهذا لا سبيل إلى إنكاره لما تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود، وكذلك قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}375 فلو سألت الخلق من أوجدهم وأخرجهم إلى الوجود فسيقولون الله، لتعذر الإنكار لغاية ظهوره لأن الإنسان خلق للمعرفة وطبع عليها وبها أكرمه الله تعالى فهو متهيئ لهذا النوع من المعرفة بما أوتي من أدواتها المهيئة لهذا الأمر، فالسمع والبصر والعقل والأعضاء، مضاف إليها حاسة الذوق والشّم كل ذلك هو أدوات تهيؤ لمعرفة الخالق، ونقول للذين لا يقرون باليقينيات، ولا بالدليل السمعي القطعي المنقول بالتواتر، بمنطق علمي بسيط أقره العلماء، واقتنع به الجهلاء، وقد اعتمده أهل الطبيعيات وأهل النظريات هو الاستدلال بالأثر على المؤثر، فهم قد عرفوا الكواكب البعيدة بآثارها لا بذاتها، وعلى هذا النهج نفسه درس العلماء الطبيعيون الذرة، واستخدموا قوانين الكتلة والطاقة، مع أنهم لم يروا الذرة حتى الآن، وكل ما انتهوا إليه بوسائلهم الإلكترونية الجبارة أنهم استطاعوا أن يروا ظلها

374 - العنكبوت 61
375 - الزخرف 87

أو خيالها بعد تكبيره وتضخيمه، فكيف يسلمون بهذا المنطق – منطق الاستدلال بالآثار على المؤثر – ويستخدمونه في علوم الطبيعة والفلك ثم ينكرونه في معرفة الخالق؟.

أما التهيؤ الفطري واليقيني في هذا الجانب فأمثلته أكثر من أن تحصى، لأن تدبر آيات الخلق من الأرض والسماء، وما فيهما من عجائب، يوصل الإنسان إلى يقين الاعتقاد بما هو مهيأ له من الوصول إلى حقائق الإلهيات، فالمسموع والمبصَر، إنما يصبح معلومة وفكرة في العقل يدخل في مجال التهيؤ استعدادا لمعرفة الأشياء ومعرفة مبدع الأشياء:{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}376، فمن متممات التهيؤ للإنسان في معرفة خالقه، هي هذه الآيات البينات، لقد خلق الله السموات وجعل فيها الشمس والقمر والنجوم والكواكب والمجرات، و خلق الأرض وبثّ فيها الجبال والبحار والأشجار والوحوش والطيور، واختلاف الليل والنهار، بمعنى ذهاب الليل ومجيء النهار في اختلاف لونيهما، و في تفاوتهما بازدياد الليل في بانتقاص النهار، وانتقاص النهار بازدياد الليل وذلك باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قربا وبعدا بحسب الأزمنة، فهذه آيات لأولي الألباب فيها من العبر الكثيرة لذوي العقل الخالص من شوائب الأوهام والخيالات، قد هيّأها الله تعالى للدلالة عليه جل شأنه، فهذا بيان ما يجول فيه فكر المتفكرين في خلق الله تعالى، وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ولكن يستفاد من التفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلما استكثر العقل المهيأ للتفكر في معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفته بجلاله وعظمته أتم وأشمل.

وأما تهيؤ الإنسان اليقيني لمعرفة الخالق من خلال القلب والروح فلا سبيل إلى إنكاره، والإجابة على هذا اليقين هو من باب البديهيات التي وضعتها الفلسفة نفسها في واجب الوجود، وأسباب الإيجاد والغاية من الإيجاد، ونحن نقول أن القرآن الكريم قد أجاب على هذه الأسئلة كلها، فواجب الوجود هو الذي خلق الكون وأوجده بما فيه: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ}377 وأما سبب الإيجاد فقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

376 - آل عمران 190
377 - الحشر 24

خَلِيفَةً}378 وغاية الإيجاد هي العبادة: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}379 وكذلك قوله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}380 وأما الهدف فقوله تعالى: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}381 وبعد ذلك فإن لهذا الإيجاد استقراره فقد قال تعالى: {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}382

لقد حاولت بعض الاتجاهات الفلسفية أن تملأ أدوات التهيؤ بتصورات معرفية مختلفة عن الكون والغيب والوجود والإنسان: لماذا جاء وإلى أين يذهب، ولكنها عجزت تماماً.

والسبب في ذلك أنها عمدت إلى استعمال أسلوب العلم التجريبي على افتراض أن الإنسان مادة، وحاكمته على هذا الأساس. وبذلك نسفت المشاعر والأحاسيس التي هي من متعلقات تهيؤ القلب والروح في الوصول إلى ما لا يدركه العقل، لذلك فشلت لأنها ظنت أن العقل البشري قادر على إدراك حقائق الأشياء خارج نطاق وظيفته الخاصة ونطاقه المحدود.

لقد كان لطغيان هذا المفهوم المادي أثره البعيد في هذه الاتجاهات الفلسفية التي حاولت أن تلغي كل ما وراء الطبيعة ولا تعترف به لأنها اعتمدت العلم التجريبي للوصول إلى نتائج ميتافيزيقية، فاعتماد الوسائل الخاطئة في عملية البحث أدى إلى نتائج سلبية، غير أن العلم اليوم أصبح يعترف بأن هناك عالماً آخر، وأن أمام العلماء من الدلائل ما يؤكد ذلك، فكيف تنكر هذه الفلسفة هذا العالم، إنها اعتمدت على العقل والحواس وهما قاصران، والعلم نفسه يعترف بأن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك شيئاً إلا عن طريق الحواس، ولذلك فإن كل ما يقع وراء الحس والعقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو أن يعرف عنه شيئاً. ولقد تبين أن هناك مسائل عديدة لا يستطيع العلم أن يجد لها حلاً ولا يصل إلى فهمها، واعتماد الفلسفة

378 - البقرة 30
379 - الذاريات 56
380 - الجمعة 1
381 - إبراهيم 51
382 - الشورى 7

والعقل والحس لا يؤدي إلى شيء، إذن فهناك علم آخر مكمل لهذه العلوم: هو ذلك العلم الذي أرسل الله به الرسل وجاء به الوحي، وقرره كل كتاب سماوي.

وإذا عجز العلم، وطاشت الفلسفة، فإن في أيدينا نحن المسلمين ما يسد الفراغ، ولقد أعطانا الدين الحق صورة كاملة لهذه الجوانب التي يعجز العقل والعلم عن الكشف عنها، حتى لا تكون في متاهة البحث الشاق بتغير أدوات البحث الذي لا يصل إلى شيء، ولقد جاءت رسالات الأنبياء لتمنح الإنسان ذلك الأفق الواسع الرحب من الفهم، ليعرف أبعاد وجوده وكيانه وحياته ومصدره ومآله، ويعرف ما بعد الموت، وما بعد الطبيعة جميعاً حتى تكون رؤيته للأشياء وتقديره سليماً وحتى تكون إرادته الخاصة ومسئولياته الفردية قائمة على أساس من الفهم والعدل.

إن وراء العقل، الروح والمتهيئات النفسية، ووراء البصر، البصيرة والمتهيئات القلبية. والعقل هاد يستمد ضياءه من الروح وكلاهما: العقل والبصر لا يدرك ما فوق مرتبته ولكنه يستطيع أن يعلم، فإن رأيت حجراً يرتفع في الهواء، وهذا مخالف لقوانين الطبيعة، عندئذٍ سوف تحكم أن رامياً رمى به، فعلمك أن رامياً رمى به ليس من قبل البصر، بل هو من قبل التهيؤ للعقل، لأن العقل هو الذي يميز ويعلم أن الحجر لا يذهب في العلوّ من تلقاء نفسه، وهذا يدل على أن البصر وقف عند حده فلم يتجاوزه، وإنما تدخلت وسيلة أخرى للكشف عن حقائق الأشياء،وكذلك يقف العقل عند حده من معرفة الخالق تبارك وتعالى فلا يعدوه.

إذن هناك التهيؤ اليقيني الذي مصدره الروح والقلب، لمعرفة الخالق باليقين عن طريق السمع مما جاءنا من الخبر المتواتر.

فعدم العلم بوجود الشيء لا يعني عدم وجوده، وعدم القدرة على الإحاطة بوجود الشيء لا يعني انتفاؤه، خاصة إذا كان الأداة المستعملة في الكشف عنه (وهو العقل) أقل وأصغر من الموجود نفسه.

وهنا نقف على محدودية العقل ومحدودية مهمة العلم وعجز هذا النوع من الفلسفات عن طريق العقل في الوصول إلى كُنه الأشياء وحقائق الوجود، والله تبارك وتعالى لا تدركه

الأبصار، ولكنها تعرفه في خلقه ونظام كونه: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}383.

أما النوع الآخر من الفلسفات التي تسعى إلى النتائج بأدوات من جنس النتائج المرجوة، فقد أثبتت تهيؤ الإنسان الفطري إلى معرفة الخالق عز وجل، حيث أن قصة حي بن يقظان التي كتبها الفيلسوف الإسلامي ابن طفيل وهو أستاذ ابن رشد، وقد عبر عن أفكاره وآراءه القائلة بعدم التعارض بين العقل والشريعة أو بين الفلسفة والدين، وتهيؤ الإنسان إلى معرفة الخالق بالتهيؤ الفطري:

"نشأ بطل القصة حيٌّ بن يقظان في جزيرة معزولة، وكان قد ألقي فيها طفلاً، أو أنه نشأ بشكل طبيعي من مادتها وترابها. وبعد أن نما وترعرع، تأمل الكون الذي حوله فوصل إلى حقيقة التوحيد بالفطرة، وينتقل إلى جزيرة أخرى فيلتقي بشخصين هما سلامان وأبسال. يعلّم الأول منهما أهل الجزيرة . الذين يتدينون تدينًا سطحيًا . الحقائق الإلهية والوجودية عن طريق ضرب الأمثال، بينما يميل الثاني إلى التأمل والنظر العقلي وفيه نزعة صوفية.

ويدرك حيٌّ بعد أن يتفاهم مع أبسال أن ما توصل إليه من إدراك لحقائق الوجود والكون بالفطرة، وما ورثه أبسال عن طريق النبوة إن هو إلا وجهان لحقيقة واحدة، فالكون واحد والخالق واحد، وهو رب السموات والأرض وصانع الموجودات، قد نصل إليه عن طريق التأمل الذاتي كأفراد. لكن الجماعات بحاجة إلى طريقة أبسال في ضرب الأمثال الحسية لمعرفة ذلك، لأنه لا قدرة للعامة على إدراك الحقيقة المجردة التي قد يصل إليها أصحاب التأمل الذاتي والنظر العقلي. والنبوة حق، ولابد منها، والخليقة بحاجة إليها للوصول إلى معرفة الخالق. إلا أن حَيًا لا يكاشف أهل الجزيرة بالحقيقة كلها، ويعود مع أبسال إلى الجزيرة الأخرى ليعبد الله عبادة روحية خالصة حتى يأتيهما اليقين"384.

لقد حدد ثلاثة مستويات من التهيؤ لفهم الحقائق الإلهية والشريعة والدين، وهي ليست بعيدة عن جوهر ما ذهبنا إليه في مستويات التهيؤ لمعرفة الخالق لدى البشر، فهناك تهيؤ العامة

---

383 - الداريات 20- 21

384 - الفلسفة الإسلامية 182

للدين، وتهيؤ الخاصة، وتهيؤ خاصة الخاصة، وإن كان للدين جوهر واحد لا يتغير. وقصة حي بن يقظان وضعت أيدينا على تباين المستويات لهذا الفهم، بشكل روائي قصصي يطرح قضية فلسفية.

فإذا عرفنا وجب أن نتهيأ لطاعة الخالق بإتباع أمرنا به واجتناب ما نهانا عنه كيف نتهيأ للعبادات؟ واليك بعض من صور هذا التهيؤ:

أولاً: التهيؤ للصلاة

نتهيأ لاستقبال يوم جديد بالتهيؤ لصلاة الفجر الذي تهيئ المسلم للاستمرار طوال اليوم في العمل على طاعة المولى عز وجل، والصلوات الخمس من شأنها أن تجعل من المسلم متهيئا لعمل الخير.

ثانياً:التهيؤ للصوم

شهر رمضان هذا الشهر المبارك الذي يهل علينا في السنة مرة على المسلمين كافة وقد هيأه الله تعالى لأن يكون شهر المغفرة والتوبة والإكثار من الحسنات بأن جعل فيه من المكرمات الكثير كما جاء في قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}385، وبالتالي كان هذا الشهر مهيئاً للمسلمين لنيل الخيرات والحسنات، ويبدأ التهيؤ لشهر رمضان بالتهيؤ لتوديع شهر شعبان أولاً، فنتهيأ لهذا الشهر بالتالي:

ترقب ظهور هلال شهر رمضان.

نتهيأ في السحور للإمساك عن الطعام.

نتهيأ في هذا الشهر بالذات لكبح الشهوات.

وهناك تهيؤ لليلة القدر.

ثالثاً: التهيؤ للزكاة

---

[385] البقرة 185.

يتهيأ الإنسان للزكاة بحصره لما يملك.

رابعاً: التهيؤ للحج

إذا نوى الإنسان المسلم أداء فريضة الحج فإنه يكون قد تهيأ لهذه الفريضة بالأمور التالية:

1- يقوم هذا الإنسان بطلب السماح ممن أساء إليهم.

2- أن يقوم برد أي أمانة لصاحبها.

3- أن يتهيأ لتهيئة المرافق والحاجات المادية الأخرى التي تلزمه لأداء هذه الفريضة.

والتهيؤ بحد ذاته يدفع بالنفس لإشباع حاجاتها المتعددة والمتباينة، فالنفس مثلاً بحاجة للهدوء أحياناً والطمأنينة والأمل وغيرها وكل ذلك لابد من التهيؤ له قبل الحصول عليه، ولكن كيف ذلك؟

أولا نتهيأ للطمأنينة بعد أن نحتاج إليها من تملك شعور الخوف أو عدم الأمان في النفس، ويتأتى ذلك باللجوء إلى المولى عز وجل بالذكر والدوام على العبادات والإكثار من النوافل وقراءة القرآن الكريم لقوله تعالى: {الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}386.

ونحن في عصرنا الحديث وبعد دخول الآلة وظهور الحاسب الآلي فقد أصبح لدى البشر وقت فراغ كبير جداً حتى للعامل منهم، لذلك لابد من أن يكون وقت فراغنا مهيأً للنفع لا للضرر، فإذا لم يُحسَن استغلال أوقات الفراغ فإنها تتحول إلى وسيلة تدمير لطاقات الإنسان كأن يلجأ الشباب إلى تعاطي المخدرات وتناول المسكرات والشعور بالقلق والملل والتوتر والانحراف الأخلاقي مما يجعل الإنسان دون قيمة أو منفعة، فلابد أن نهيئ أوقات الفراغ للاستفادة منها سواء بكثرة الاطلاع وأعمال الخير .

التهيؤ والخلافة

لقد هيأ الله تعالى الإنسان على العقل الذي به يميز بين المشاهد والملاحظ ويدرك ما يجب وما لا يجب، ويستبصر بعد معرفة وتبيّن واختيار ويستنبط ويستقرى ما يدل به وما يدل إليه.

---

386 الرعد 28.

والاستعداد لذلك بما يؤدي إلى الإصلاح والفلاح ويجنب الخراب وسفك الدماء فيها بغير حق. ولذا كان آدم بعلمه للأسماء (الأسرار) خليفة في الأرض.

فخلق الله الإنسان وأراد بمشيئته أن يكون خليفة في الأرض، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}387 وقد هيّأه الله تعالى لهذه الخلافة في إعمار الأرض وإصلاحها ودفع المفاسد عنها، فكان أول هذا التهيؤ كما قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}388 وبصرف النظر عمّا قاله العلماء في معنى هذه الأسماء، من أنها صفات الأشياء ونعوتها وخواصها، أو أنها أسماء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، أو أنها أسماؤه تعالى، أو أنها اللغة كما ذهب بعض العلماء، حتى وإن كانت أسماء مفردة، فمن تلاقي اسمين تتكون الجملة، ومن الجمل تتشكل العبارة، ومن العبارات، تكون الفقرة وهكذا حتى تصبح سلسلة من الأفكار تساوي تلك الأسماء وعلاقة التركيب فيما بينها وما يتولد عنها من معان، وما أودع الله تعالى فيه الإرادة، لأن الإرادة ليست مكتسبة عن طريق الأفكار، بدليل أن الطفل حديث الولادة سرعان ما يلتقط ثدي أمه ويأخذ بالرضاعة دون أن يكون له أدنى فكرة عن هذا الأمر، وبهذا علم الإنسان الخير والشر والإصلاح والإفساد، وما يضر وما ينفع، والحلال والحرام،وهو يملك الإرادة، فأصبح بذلك مهيّأ للخلافة بما يعمر أمر دنياه وآخرته.

التهيؤ بالعلم وصولا إلى الخلافة

العلم هو الذي يتم به حصول المراد من خلافة الله تعالى في أرضه، ونقصد بالعلم، هو علم التوحيد المتعلق بمعرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وحقه على عباده، والذي يتحصل عليه المسلم مما ورد في القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وفق منهج عماده

387 - البقرة 30
388 - البقرة 31-33

العقل ومادته اليقين، بعيدا عن الشطط الذي جاء على ألسنة بعض المتكلمين والفلاسفة والغلاة.

وبالرجوع إلى القرآن العظيم، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وواقع دعوته، نجد أنها تولي أهمية بالغة وعناية خاصة بإزالة ما علق في قلوب الناس من مفاهيم وعقائد وظنون خاطئة، وذلك بالتركيز على تجلية أسماء الله وصفاته وأفعاله، وحكمته وقدره وحقه على عباده، والرد على من أثبت خلاف الحق في ذلك، وبهذه التجلية والبيان الواضح والرد الحاسم ينفك المسلم عن الطاغوت وكل ما يمت إليه بصلة، ويستمسك بالإيمان وكل ما يتصل به، فإذا وصل إلى هذه الدرجة من الإيمان يكون قد تخلق بصفات أسماء الله تعالى التي تهيئه لأن يكون خليفة في الأرض، فقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[389] هو دعوة للتهيؤ للخلافة، فخليفة الله تعالى هو عادل محسن غير ظالم، وهذه من الشروط التي يجب أن تتوفر في الخليفة، والخلل في الاتصاف النسبي بصفات الخالق تبارك وتعالى، أو حكمته وقدره، أو حقه على عباده وواجبات عباده له، يُوجِد سوء ظن بالله بقدر يتناسب مع هذا الخلل في الاتصاف بتلك الصفات، سواء كان بجهل تلك الأسماء وما تدل عليه من الصفات، أو جهل بعض تفاصيل القدر وتوحيد الإلوهية، أو كان بفهمها فهماً يخالف الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة.

بل إن التفكير السديد يدل على هذه الصفات متناسقة مع واقع الإنسان وما فُضل به من العقل والخلق، ويتجلى ذلك في ظهور التكريم للإنسان وتفضيله وتكليفه، ومؤاخذته في تفاصيل هذه المطالب، فالحكمة ظاهرة خلق التهيؤ والتكليف بالخلافة.

فالعقل يدرك أن ما حصل من تكريم الله للإنسان من خلقه له بيده، وإسجاد الملائكة له، أنه يتناسب مع مكانة الإنسان ووظيفته التي كلفه بالقيام بها من الخلافة في الأرض وتحقيق العبودية. كما أن العقل يقرر أن عبودية المخلوق لخالقه، والمتفضل عليه والذي يملكه ويدبره هي الحق المتعين عليه، والخلافة في الأرض على منهجه هو الغرض والغاية، كما يحكم

---

[389] - النحل 90

بأن الإنسان بما أعطي من عقل وقدرات نفسية وبدنية هو المهيأ وحده للقيام بهذه الوظيفة على الأرض. والعقل يرى أن العدل أن يبعث الناس للحساب، فيقتص للمظلوم من الظالم، ويجازي المحسن بالإحسان، والمسيء بالعقاب والحرمان. فالفطرة السليمة تدرك أن هذا الخالق الحكيم لا بد أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون، ووضع الإنسان فيه غاية وحكمة، وتعالت حكمته أن يكون خلق هذا كله عبثاً حيث قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}390 وهذا الحق الذي به خلقت السموات والأرض هو ما يستشفه العقل وتحس به الفطرة _ وإن يكن إحساسا داخليا غامضا_ أن لهذا الإنسان في الوجود رسالة وأن وراء هذه الحياة _حياة الابتلاء والفناء_ حياة أخرى، هي الغاية وإليها المنتهى يُجزى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، حتى لا يستوي الخبيث والطيب، والبر والفاجر، وهذا ما تقتضيه الحكمة.
لقد اهتدى الإنسان بتهيؤه إلى سر وجوده ووجود العالم كله، لقد عرف الله فعرف به كل شيء، وحل به كل لغز، واهتدى به إلى كل خير، فالعالم مملكة الله، وكل ما فيه من آثار رحمته تعالى، والإنسان خليفة الله، خلق لعبادة الله، وتحمل أمانة الله، والحياة هبة من الله، والموت قدر من الله، والدنيا مزرعة لطاعة الله، والآخرة موعد الحصاد، والجزاء من الله، والسعيد من اهتدى بهدى الله، والشقي من أعرض عن ذكر الله.
وحيث إن خلق الإنسان ليس للإنسان أثر فيه، وبما أن المصير والمنتهى ثمرة ونتيجة لسعي الإنسان في الدنيا متوقف على مدى تحقيقه للغاية التي من أجلها خلق، فلذلك كانت معرفة الغاية والحكمة من خلق الإنسان مطلبا أساسيا في سلوكه واستقراره النفسي.
والإسلام يجعل غاية الإنسان وهدفه الأساسي هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته بالقيام بالعبودية الخالصة التي تؤدي إلى الخلافة، فهذه غايته ومنتهى سعيه وأمله: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}391 والكدح المجدي الذي ينتهي

390 - الدخان 38- 39
391 - الانشقاق 6

بصاحبه نهاية سعيدة في الدنيا كونه مهيأ للخلافة، والخلافة تهيّئه للجنة من قيامه بحق الله، وهو عبادته وحده لا يشرك به شيئا.

لقد هيأ الله تعالى الإنسان للخلافة بما وهبه من قدرات أعلاها العقل الذي هو مدعاة العلم، وكذلك طبيعته الفريدة التي تتميز بكونه قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}392 فالشهوات كلها أو الدوافع الفطرية أو الغرائز الإنسانية أو القوة الحيوية هي نشاط فطري، ولكنها فطرة مهيّأة للكبح والضبط بالعقل والإدراك، ومهيّأة للسمو الروحي بالإيمان بالله والمثل العليا والعمل على تحقيقها إيجابيا في واقع الحياة.

ونقف على هذا التهيؤ في النفس الإنسانية منذ أن وجدت من قوله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}393 فهو كشف عن فضل آدم وتهيؤه، وأنه قادر على مالا تقدر عليه الملائكة، من إحداث هذا التغيير في وجه الأرض، بما أدخله عليها من إضافات في صورها وأشكالها، وذلك ما لا تستطيعه الملائكة من ذات أنفسها، ولهذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، سجود إجلال وتعظيم لقدرة الخالق سبحانه، الذي أخرج من تراب الأرض كائنا يعلم الملائكة ما لم يكونوا يعلمون.

وقد غير آدم الأرض فأخرج المخبوء من أسرارها، وسخرها لخدمته، فعمر جيبها، وأحيا مواتها، واستأنس متوحشها، وألان حديدها، حتى أقام تلك المدنيات وهذه الحضارات، فركب البحار وسبح في الفضاء، ووصل إلى الكواكب والأقمار، حيث نزل على سطح القمر، واستكشف المريخ المركبات التي تحمل المختبرات للبحث والكشف والتنقيب.

ثم إن الإنسان لا يقف عند هذا الذي أخرجه من معطيات مدركاته وما هو مهيأ له، فإن أمام الإنسان مجالا فسيحا للبحث في أسرار هذا الكون الذي أودع به الخالق سبحانه مالا ينفذ من آيات علمه، وحكمته وقدرته، فإذا عجز جيل من أجيال الناس عن اكتشاف سر من أسرار

---

392 - ص 71- 72

393 - البقرة 33

الكون جاء الجيل الذي بعده، فحاول أن يكشف عن مكنون هذا السر، وهكذا تتوالى أجيال الإنسانية، كل جيل يبني على ما أقامه الجيل السابق حتى يعلو صرح البناء، وينمو نموا مطردا، وهذا بفضل ما هيأه الله تعالى في الذات الإنسانية، وأجلّ ما في الإنسان من التهيؤ هو تهيؤه للعلم والمعرفة من خلال اتصافه النسبي بأسماء الله الحسنى.

فالعلم المعرفة من أهم خصائص الإنسان، حيث قال تعالى: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}394 والإنسان خليفة الله الخالق المبدع المسيطر على كل قوى الكون، وهو مخلوق تحتفل به السماوات والأرض، ويتولى الله سبحانه وتعالى إعلان مقدمه على الملأ الأعلى. فالخلافة عن الله فيها معاني الإنشاء والابتكار والتعمير والتغيير والتبديل، وكلها معان دقيقة نابعة من التهيؤ.

وعليه فالخليفة الذي يتصف بصفات الله وأسمائه الحسان هو أيضاً يجب أن يكون مهيئاً لنفسه أولاً لفعل الخيرات والإكثار منها وترك المعاصي والآثام واجتنابها، ولغيره ثانياً ممن له احتكاك بهم كالأبناء والجيران والأصدقاء وغيرهم على أن يكونوا مطيعين لله مستجيبين لأوامره ومنهيين عن نواهيه، وكذلك يكون مهيئاً للأرض من أجل الإعمار والإصلاح الذي أراده الله منه فيها عند استخلافه، فيعمل على تمهيدها واستخراج خيراتها ومعادنها والعمل على زراعتها من أجل إعمارها وإصلاحها وإصلاح حال العباد عليها بالتعاون والرحمة والمحبة وعدم الإفساد فيها وعدم سفك الدماء بغير حق وعدم أكل أموال الناس بالباطل وعدم ظلم الآخرين، وغير ذلك من الأعمال التي تؤدي إلى جوهر الخليفة الحقيقي والهدف الأساس من وجوده في الأرض وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}395.

والتهيؤ من الخليفة منه ما هو إيجابي ومنه ما هو سلبي، ومن أمثلة التهيؤ الإيجابي:

أ- تهيئة الطبيب مريضه لإدراك خطورة مرضه وتهيئته بالتالي للتعامل معه والصبر عليه،

394 - البقرة 31

395 الذاريات 56.

فلابد أن يكون الطبيب مهيأ أولاً لأن يكون إنساناً يخشى الله وعلى قدرٍ كبير من الدراية والخبرة في التعامل مع نفس المريض قبل جسده فيهيئ نفس المريض للتعامل مع المرض قبل تهيئة جسده، فالنفس البشرية قد تكون مهيأة للمرض والصحة ويدخل في ذلك الكثير من العوامل ومن ذلك.

إيمانه وعلاقته بالمولى عز وجل. فعلى الطبيب المستخلف في الأرض أن يهتم بتقوية الجانب العقدي في نفوس المرضى من أجل أن يهيئهم للرضا بقضاء الله وقدره .

صبره وقوة تحمله. من أهم العوامل التي تخفف الآلام عن المريض الجانب الروحي الذي ينمي فيه الصبر وقوة التحمل باعتبار أن ما ألم به من مرض هو من عند الله إما لاختبار إيمانه وصبره أو لابتلائه فيصبر على مرضه طمعا في ثواب الله ومغفرته .

– إرادته. على الطبيب أن يهيئ مريضه بأن يقوي إرادته وأمله في رحمة الرحيم الكريم عز وجل من حيث أنه تعالى هو الشافي وكل شيء بيده تعالى .

ب– التهيؤ للتوبة من الذنوب

لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}396، من هذه الآية الكريمة السابقة يتضح كيف يتهيأ من فعل المعاصي للتوبة وذلك بأن يتذكر الله إزاء ارتكاب الفاحشة ثم يستغفره من فعلته وهو موقن بأنه لا يغفر الذنوب إلا هو عز وجل، ثم بعد ذلك لم يعد لفعل ما ندم عليه من الفواحش ولم يصر على فعله، وهو يعلم تمام العلم أنه لا ملجأ إليه إلا الله التواب الغفور. ويتضح كذلك أن هناك فريقين من الناس أولهما من يرتكب الذنوب والمعاصي بعلمٍ ودراية بنتائجها ويستمرون عليها دون أن يتوبوا، وثانيها من يعمل السيئات والذنوب دون علمٍ كاملٍ ووعي بنتائجها ولا يصرون على الاستمرار فيها بعد علمهم بها، والله

[396] آل عمران 135: 136.

جعل من البشر مهيئين للتوبة والعودة عن المعاصي فتأتي إرادة الإنسان التي تختلف بين الناس وتولد موانع للشر وموانع للخير، فمن موانع الشر مايلي:

* مخافة الله تعالى

مخافة الله تعالى تهيئ الإنسان لفعل الخيرات، وإن حصل أن ضعُف مرة أو قصّر فإنه يكون دائماً متهيأً للعودة لله بالتوبة ، فخشية الخالق تهيئ النفس لردع الفساد والشر.

* التربية السليمة

التربية تهيئ الإنسان لأن يكون فرداً صالحاً في المجتمع ، بداية من اختيار الأب والأم إلى التربية الدنية والنفسية داخل هذه النواة الصغيرة التي تساهم في تشكيل المجتمع الصحيح.

* العلم النافع

من الأساسيات التي تدّعم التهيئة السليمة والصحيحة هو تحصيل العلوم النافعة باختلافها، فيتهيأ المرء لأن يأخذ مكانه في المجتمع كعضو فعّال ومفيد.

*القدوة الحسنة

كل فضيلة أو خلق حميد يكون إثر مثلٍ عالي أو قدوة حسنة تهيؤه لأن يسير على هذه الخطى، وأحياناً تكون هذه القدوة لجماعات وأمة وليست لمجرد فرد وأفضل مثال لهذا أن رسولنا الكريم محمد –صلى الله عليه وسلم- كان وسيظل أفضل قدوة للأمة الإسلامية التي بسيرها على خطاه تكون مهيأة لأن تتحدى الصعاب وتقهر الجهل والضعف.

ومن موانع الخير:

* إتباع الشيطان

قالت تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}397، فإتباع الشيطان تهيئ الإنسان لأن يكون فاسداً لا يبدر منه إلا كل سوءٍ وفاحشة، لأن في سيطرة الشيطان عليه تهيؤ للقبول كل الرذائل والفواحش.

---

[397] النور 21.

فالإنسان حين يكون اتجاه تفكيره ومداركه للشر فبالطبع يكون متهيئ لكل ما هو شرير وسيء.

* سوء التربية

التربية السليمة لها الدور الفعّال في تهيئة المرء لأن يكون المسلم الحقيقي الذي يتحمل عبء أمانة استخلاف الأرض، أما انهيار المجتمع ومتهيئاته لأن يكون على شفا حفرة هو ناتج من أولاً من سوء التربية داخل الأسرة نتيجة إهمال الوالدين أو الجهل في طريقة التعامل المادي والنفسي.

وسوء التربية لا يقتصر على فترة زمنية محددة بل إنها تشمل حياة الإنسان منذ طفولته ليمتد أثرها إلى آخر عمره، لأن الأساس يكون مهيأ للانهيار والضياع الناتج عن سوء التربية.

* القدوة السيئة

قد يلجأ الشخص إلى الاقتداء بمثلٍ أو شخصية تنال إعجابنا ولكن المشكلة تبقى في ميولنا تجاه اختيارنا لهذا المثل، فنجد مثلاً من يأخذ من شخصية فاسدة أو عدوانية مثلاً له فيتهيأ نفسياً لأن يكون مثله في العدوانية والفساد والشر.

* الجهل

من أخطر الأمراض على التهيئة السليمة هو الجهل،فلا يمكن أن نكون متهيئين للأفضل ونحن على جهل وغفلة مما هو مفيد وما هو ضار.

جـ- تهيئة المعلم لطلابه

فالذي يُلقي العلم على مدارك الطلبة لابد أن يكون مهيئاً لذلك لكي يستطيع أن يهيئ الطلبة للمستقبل الجميل الذي لابد أن يكونوا موجودين فيه، فلا يمكن أن تكون الأمة بخير بدون تهيئة أبنائها بالعلم والمعرفة.

فتهيئة المعلم لطلابه تبدأ ببداية إدراك المعلم للفروق العقلية والنفسية والجسدية لدى الطلاب لذلك فإنه يجب على المعلم أن يراعي هذه الفروق في كل ما يقوم به أو يفعله ضمن العملية

التعليمية، فتكون تهيئته لطلابه تسير بشكل منظم وسليم، فينتفعون من عملية التعليم والفهم وتكون الفائدة كما يلي:

أ- عندما يتهيأ الطلبة لموضوع ما فإن الأفكار تكون مرتبة لديهم لتسير عملية الفهم بشكل سريع وصحيح فتكون النتيجة هي الاستفادة الكاملة والوصول للهدف من الموضوع المطروح .

ب- بناء مساحة واسعة وخصبة من التفكير تظل تتسع لدى الطالب لتستوعب كل جوانب الفهم والإدراك السليم الواعي فتكون بذلك مكونة لشخصية هذا الطالب ضمن عوامل أخرى.

جـ- القدرة على ربط المعلومات بعضها ببعض، فعندما يتهيأ الطالب للدرس قبل المباشرة فيه فإنه يستطيع الاستمرار في عملية ربط المعلومات بعضها ببعض مما يجعله مهيأً لأن يستطيع الإلمام بجميع جوانب الموضوع وتكوين رأي مستقل وسليم.

د- تهيئة الوالدين للأبناء

مسؤولية الوالدين عظيمة جداً ، فالله تعالى هيأ الإنسان لأن يكون مسئولا بأن زرع فيه المسؤولية وهيأه لذلك، ففي داخل كل إنسان تهيؤ فطري لأن يكون أباً أو أماً حسب جنسه، وهذه الرغبة الكامنة فينا تجعل منا مهيئين لذلك، فبعد أن هيأنا الله تعالى لذلك لزم علينا أن نكون على قدر هذه المسؤولية، فلابد للوالدين أن يكونوا مهيئين للأبناء لأن يكونوا صالحين يتقون الله ويخشونه ويحبونه، فمثلاً نلاحظ أنه منذ بداية الإدراك عند الطفل يسأل عن الحياة والموت وعن الله فلابد هنا أن يكون من واجب الوالدين تهيئة الإجابات الواعية التي تهيئ الطفل للتعرف على خالقه بالشكل السليم فينشأ الحب له تعالى في قلبه والخوف منه تعالى أيضاً، ويدرك مكانه في الحياة فيكون بذلك مهيئاً للصلاح والخير.

وقد بيّن الله تعالى وهو الودود الرحيم أن أساس التعامل بين الأبناء والآباء هي الرحمة في قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ

الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}398، فبذلك قد هيأ الرحيم المطلق العلاقة بينهما على هذا الأساس ووضح المنهاج الذي يجب أن تقوم عليه هذه العلاقة.

الإرادة

لا شك أن الوعي بما يُقْدِمُ عليه الإنسان من فعل، ثم الوعي بقيمة هذا الفعل سلبا أو إيجابا يحقق له نوعا من الرضا لا يشعر به غيره وإن رأى أثره، لذا فالإرادة وثيقة الصلة بالوعي بفعل يحققها ويخرجها من المعنوي إلى المحسوس بفعل مادي إرادي هو أس مهم من أسس الإرادة وعليه يصبح الإنسان مسؤولا عما فعل بإرادته، ولا فعل إلا بقرار وبعزيمة وبثقة، وتأتي الثقة من علاقة الإرادة بالموضوع الذي استعد له، وعليه فالإرادة من حيث المسؤولية نوعان:

1- الإرادة غير المسؤولة: التي لا تحقق لصاحبها الاعتبار والاعتراف والتقدير.

2-الإرادة المسؤولة: التي تحقق للفاعل وللموضوع الاعتبار، والاعتراف ، والتقدير.

-الاعتبار: بعدم الاستهانة بين الفرد والآخرين وذلك بأن يجعل الآخر لك مكانة عنده، وأن تجعل للآخر عندك مكانة ويظهر ذلك من خلال الفعل الذي هو مظهر الإرادة.

-الاعتراف: الاعتراف منطق التسليم بالحقيقة، وهو حاجة لكل إنسان على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي، والاعتراف مطلب وسيظل إلى أن يتم الحصول عليه بالإرادة والقوة399.

-التقدير: يتحقق عندما يكون الفعل قائم على منطق، له إطار مرجعي، فيجد الإنسان نفسه في حالة تقدير400.

ولذا فلا إرادة دون موضوع واضح، فبوضوح الموضوع تتحقق الإرادة بالقوة الدافعة إلى الفعل بعد الاستعداد له، وبغموض الموضوع لا تتحقق الإرادة لانتفاء القوة الدافعة إلى الفعل لعدم الاستعداد له.

---

398 الإسراء 23: 24.

399 أد: عقيل حسين عقيل منطق الحوار ص19،20.

400 المصدر السابق.

فالإرادة مسؤولية والمسؤولية لا تكون إلا بوعي تام بما سيتحمله الإنسان لأداء ما نيط به من مهام قال الله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}401، ولنا أن نقول: إن الأمانة هي خلافة الله في أرضه، وهذه هي المسؤولية التي تميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات، وليست العبادة فقط لأن جميع الكائنات منقادة لله عابدة له تسبحه وتقدسه إلا من أبى، ولكنها غير مكلفة بإحقاق الحق ولا بإزهاق الباطل ولا الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر ولا غير ذلك، إنما هي مخيرة في ذلك.

والإرادة تجعل الإنسان مسؤولا لأنه لابد أن يكون على وعي بما يقدم على فعله.

وعليه فالإرادة قوة، وقوة الإرادة اقتناع باتخاذ قرار مع الرضا بما سيترتب عليه سالبا كان أم موجبا.

والإرادة هي مكمن قيم الاختيار فلا إرادة إلا بعد معرفة ووعي، وهي نتاج قرار قابل للتنفيذ، وبعد التنفيذ يتم تحمّل المسؤولية تجاه أي أعباء قد تترتب عليه، لذا فإن نتائج الفعل الإرادي مرضية للفاعل وإن كانت سالبة، لأن القناعة هي القوة الدافعة للسلوك الإرادي، فالإقدام بلا إرادة قد ينقلب إلى إحجام402.

و عليه فالإرادة من حيث الوعي تنقسم إلى التالي:

أولا: الإرادة الواعية:

وهي التي لا يتخلى فيها الإنسان عن مسؤوليته، لذا يقدم على الفعل الإيجابي بقناعة واختيار فهي:

- التي لا تحقق الندم.
- التي تحقق الرضا عن الفعل.
- وهي التي تصلح لأنها موجبة.

---

401 الأحزاب 72.

402 منطق الحوار ص173.

- ولا تفسد لأنها للحق وبالحق وفي الحق .

وعليه فالإرادة الواعية التي لا تحقق الندم لأنها تصلح ولا تفسد ولهذا يكون لكل شيء قاعدة إصلاحية واستثناء إفسادي.

القاعدة الإصلاحية:

- الدفاع عن الدين.
- الدفاع عن العِرض.
- الدفاع عن الوطن.
- والدفاع عن النفس.
- تعمير الأرض.
- نشر الوعي بقيمة الإنسان في الحياة.
- الحث على العلم النافع.

الاستثناء الإفسادي:

- التفريط في الوطن.

. التفريط في النفس.

. هتك العرض إفساد.

. تخريب الأرض.

. تعميم الجهل.

وعليه الموت إيجابيا (للنفس وللغير) يعد إصلاحا.

لذا فالموت الذي هو سلب الحياة يتحول إلى قيمة عالية تنال الاعتراف والتقدير عندما يكون عملا يرجو الإصلاح بتحرير الوطن أو صد خطر يحاك ضده أو ضد الشرف والدين والقيم والفضائل الحميدة .

لذا فإن الموت (السلبي) -الذي هو فرار من الموت (الإيجابي)- قيمة سالبة لا تحقق الاعتراف ولا التقدير ولا الاعتبار.

والإرادة الواعية هي التي يتحمَّل صاحبها المسؤولية، التي تتطلب مبررات ومقومات موضوعية لممارستها بإرادة.

1 . مبررات الإرادة الواعية:

أ – الصلاحيات:

والصلاحيات هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به للمسؤول الذي عندما يفعل يكون مسؤولا وعليه من يرد أن يكون مسؤولا يجب أن يكون واعيا قبل أن يفعل ولذا فإن إرادته تكون واعية.

ب – الاختصاصات:

وهي مجال الامتداد في دائرة المسموح فعندما يلتزم المسئول بالحركة داخل مجال الامتداد يعد متزنا ومعتدلا في الحركة الموجبة، وعندما يخرج عن ذلك يقع في دائرة المحاسبة والمساءلة، حيث تعد أفعاله سالبة أو منحرفة، وعليه لكي تؤدى المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات.

ج – الوعي:

وهو نشاط ذهني أو فكري للعقل يدل على وجود علاقة بين الذات والموضوع، وبالوعي يتمكن الإنسان من التبين والمعرفة، كما أنه يتمكن من التمييز بين الأفعال الموجبة والأخرى السالبة.

والوعي يتمثل في الإلمام بالموضوع والمعرفة به وما يترتب عليه من نتائج سالبة وموجبة وما يحققه من أهداف وغايات.

د – الإدراك:

"الإدراك لغة بلوغ أقصى غاية الشيء وإحاطة الشيء بكماله وفي عرف أهل النظر الإدراك بلا حكم تصور والإدراك بحكم تصديق وجازمه الذي لا يقبل التغيير"[403].

[403] التعاريف ص71.

"وليس الإدراك إلا تحقق حقيقة الشيء من حيث يدرك وهو معنى الشيء بالقياس إلى لفظه"404، لذلك يجب إدراك الموضوع حسيا وعقليا:

الإدراك الحسي:

ملامسة الموضوع ومشاهدته بالعين المجردة والتعامل معه بالحواس.

الإدراك العقلي:

قد يسبق الإدراك الحسي أو قد يترتب عليه فيأتي نتيجة له قال الله تعالى:{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}405، فالنظر إلى خلق الإبل، وإلى رفع السماء بغير عمد وصعوبة الوصول إليها، والجبال الشاهقة المنصوبة في إبداع لتحفظ توازن الأرض، وإلى الأرض المسطحة لتكون صالة للزراعة والحياة، كل ذلك سيؤدي إلى إدراك عقلي بأن هذه المخلوقات غير المتجانسة من صنع القادر البديع، الذي جعل في كل منها فوائد جمة لا تدرك إلا حسيا ثم عقليا أو بالعكس، فعلى سبيل المثال الإبل لها خواص منها: أن الله تعالى جعل هذا الحيوان الذي يُقتنى له فوائد شتى، فتارة يُقتنى ليؤكل لحمه، وتارة ليشرب لبنه، وتارة ليحمل الإنسان في الأسفار وتارة لينقل أمتعة الإنسان من بلد إلى بلد وتارة ليكون له به زينة وجمال وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الإبل .

ومن المدركات الحسية التي وهبها الله للإنسان ليصل بها إلى المدركات العقلية ما ذكره الخالق العظيم بقوله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ

---

404 معارج النفس71.

405 الغاشية 17-22.

سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}406، فهذه نعم تدرك بالحس لتصل بالإنسان إلى إدراك عقلي يؤمن بالله عن اقتناع ويقين، فالإنسان بداية خرج من بطن أمه لا يعلم شيئا فقد خلق الإنسان في مبدأ الفطرة خالياً عن معرفة الأشياء، ولكن الله تعالى منحه القدرة لإدراكية الحسية من: سمع وبصر، وقدرات إدراكية عقلية: الأفئدة أي العقول المفكرة المتدبرة.

ثم قال تعالى: (وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة) فالنَّفس الإنسانية كانت في أول الخلقةِ خالية عن المعارف والعلوم ثم إن الله تعالى أعطاها هذه الحواس؛ لتستفيد بها المعارف والعلوم، وتحقيق الكلام فيه أن يقال: التَّصوُّرات والتَّصديقات إمَّا أن تكون كسبيَّة أو بديهيَّة؛ والكسبيَّة لا يمكن حصولها إلا بواسطة تركيبات البديهيَّات، فلا بد من سبق العلوم البديهيَّة.

فإن قيل: هذه العلوم البديهية إمَّا أن يقال: كانت حاصلة منذ خلقنا، أو ما كانت حاصلة؛ والأول باطل؛ لأنا بالضرورة نعلمُ أنَّا حين كنَّا أجنةًً في أرحام الأمِّهات ما كنَّا نعرفُ أن النَّفي والإثبات لا يجتمعان، وما كنَّا نعرف أن الكلَّ أعظم من الجزء .

وأما القسم الثاني: فإنه يقتضي أن هذه العلوم البديهية حصلت في نفوسنا بعد أنَّها ما كانت حاصلة، وحينئذٍ لا يمكن حصولها إلا بكسب وطلب، وكلُّ ما كان كسباً فهو مسبوق بعلوم أخرى إلى غير نهاية، وذلك محال.

فالجواب: أن هذه العلوم البديهيَّة ما كانت حاصلة في نفوسنا أولاً، ثم إنها حدثت، وحصلت، أما قوله: فيلزم أن تكون كسبية ، فهذه المقدمة ممنوعة ، بل نقول: إنها إنما حدثت في نفوسنا بعد عدمها، بواسطة إعانة الحواسِّ التي هي السَّمع والبصر، فإن النفس كانت في مبدأ الخلقة خالية عن جميع العلوم ، إلا أنه تعالى خلق السمع والبصر فإذا أبصر الطفل شيئاً أو سمعه مرة بعد أخرى ، ارتسم في خياله ماهيَّة ذلك المبصر والمسموع؛ وكذلك القول في سائر الحواسِّ ، فيصير حصول الحواسِّ سبباً لحضور ماهيَّات المحسوسات في النَّفس والعقل .

---

[406] النحل 78-81.

هـ – القدرة: وهي القوة التي تواجه قوة تحاول مغالبتها لتبلغ ما تريد، وهي على عدة مستويات منها:

. المستوى النفسي:

مصداقا لقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}[407] فكل إنسان له من القدرات النفسية التي يستطيع بها ومن خلالها تحمّل الأعباء والقيام بالأفعال التي يجب القيام بها وفق ما يستطيع القيام به.

فقد ضُرب المثل بأيوب في الصبر لأنه تحمّل ما لم يستطع أحد غيره أن يتحمله لذا فقد ابتلاه الله بما يستطيع أيوب وحده أن يتحمله، {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}408، العذاب الإيجاع الشديد من ألم ووصب بسبب مرضه وما كان يقاسيه من آلام الشدائد وهو المراد بالضر في قوله في سورة الأنبياء (أنى مسني الضر) وهو حكاية لكلامه الذي ناداه به بعبارته وإلا لقيل انه مسه الخ وليس هذا تمام دعائه عليه الصلاة والسلام بل من جملته قوله (أنت ارحم الراحمين) فاكتفى ههنا عن ذكره بما في سورة الأنبياء كما ترك هناك ذكر الشيطان ثقة بما ذكر ههنا، فإن قلت: لا قدرة للشيطان البتة على إيقاع الناس في الأمراض والأسقام لأنه لو قدر على ذلك لسعى في قتل الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين فهو لا يقدر أن يضر أحدا إلّا بطريق إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة فما معنى إسناد المس إليه؟

إن الذي أصابه لم يصبه إلا من الله تعالى إلا انه أسنده إلى الشيطان لسؤال الشيطان منه تعالى أن يمسه الله تعالى بذلك الضر امتحانا لصبره ففي إسناده إليه دون الله تعالى مراعاة للأدب روى إن أيوب عليه السلام كان له أموال كثيرة من صنوف مختلفة وهو مع ذلك كان مواظبا على طاعة الله محسنا للفقراء واليتامى وأرباب الحاجات فحسده إبليس لذلك وقال انه يذهب بالدنيا والآخرة فقال الهي عبدك أيوب قد أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع النعمة والعافية لتغير عن حاله فقال تعالى إني اعلم منه أن يعبدني ويحمدني

---

[407] البقرة 286.

[408] سورة ص 41.

على كل حال فقال إبليس يا رب سلطني عليه وعلى أولاده وأمواله فسلطه على ذلك فاحرق زرعه واسقط الأبنية على أولاده فلم يزدد أيوب إلا حمدا لربه ثم نفخ في جسده نفخة خرجت بها فيه النفخات ثم تقطرت بالدم الأسود واكله الدود سبع سنين وهو على حاله في مقام الصبر والرضى والتسليم فكان بلاؤه امتحانا من غير أن يكون منه ذنب يعاقب عليه ليبرز الله ما في ضميره فيظهر لخلقه درجته أين هو من ربه409. وهذا تصديق لقوله تعالى: {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}410، فكل إنسان له من القدرة النفسية التي بها يستطيع الوسع والتحمل، ومن هذه القدرة قدرة التحمُّل على الصيام المتوفرة لدى الأفراد، وعدم توفرها بشكل كاف لدى آخرين في أوقات معينة وفي أحوال معينة قال الله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}411.

الأمر العام: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)

الأمر الخاص: التيسير لعدم القدرة النفسية والجسدية (وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)

لماذا؟

لأن الله (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) انطلاقا من القاعدة القرآنية التشريعية التي تقول: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا}412، لذا كل من آمن بالله رباً وبالنبي صلى الله عليه وسلم رسولا يقول كما علمه ربه، {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا

---

409 تفسير حقي ج 12 ، ص 170.
410 الأنعام 152 .
411 البقرة 185.
412 الطلاق7.

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}413، وذلك لأن القدرات متفاوتة.

. المستوى الجسدي:

ما من شك أن القدرة الجسدية لابد منها لتحقيق الفعل بإرادة واعية مسؤولة لأنه لولا القدرة الجسدية لأصبحت الإرادة عاجزة عن الفعل ولأصبحت إرادة ناقصة، لذا فليس على من فقد القدرة الجسدية على أداء الفعل من مسؤولية في تحمل عبء فعل لا يقدر على أدائه قال الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}414 .

استثناء الذين ذكروا في الآية بسبب عدم القدرة الجسدية على الجهاد، والجهاد فعل يحتاج إلى قدرة جسدية بغض النظر عن توفر القدرة النفسية لأنها لا تغني عن القدرة الجسدية.

. المستوى العقلي:

القاعدة تقول: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) فإن كان الإنسان به خلل عقلي فيضحي بدون قدرة فلا توكل إليه القيادة العسكرية مثلاً، ولا بعض المهن التي تحتاج إلى قدرة عقلية متميزة مثل القضاء، والتدريس، والطب وغير ذلك لذا كان للعقل مكانة أولى في الخلق، وعليه وضعت حدود التكليف في الإسلام على أحسن التقويم.

لذا تجب العبادات بالعقل وتسقط لزواله، فمثلا الصلاة وهي الركن الثاني من أركان الإسلام فهي من أفضل الأعمال وأعظمها شأنا فهي ركن من أركان الإسلام الخمسة بل هي عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين، وقد ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة.

---

413 البقرة: 284- 286.

414 التوبة 91 – 93.

قال تعالى: {إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا}415 ، وقال صلى الله عليه وسلم (خمس صلوات كتبها الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة) ووردت أحاديث كثيرة في تعظيم شأنها والحث على أدائها في أوقاتها والنهى عن الاستهانة بأمرها والتكاسل عن إقامتها، وقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من تركها والتهاون في أدائها من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة) ولا تسقط الصلاة عن المسلم البالغ العاقل إلا إذا كانت المرأة حائضا أو نفساء.

وأيضا الزكاة فرض على المسلم البالغ العاقل الحر القادر الذي يملك نصابا خاليا من الديون وحال عليه الحول القمري والنصاب هو ما قيمته 85 جراما من الذهب فمن ملك النصاب وحال عليه الحول وجبت عليه الزكاة.

وكذلك بقية الفروض لا تجب إلا بتوفر العقل، وتسقط بسبب زواله.

وعليه فالإرادة الواعية لا بد لها من توفر القدرة العقلية لأنه لا وعي إلا بقدرة عقلية.

ثانياً: مقومات الإرادة الواعية:

- المعرفة: ولنا أن نبحث في معنى المعرفة اللازمة للإرادة الواعية بين اللغة والاصطلاح وعلم الكلام والمنطق، ونستبين الفرق بين المعرفة والعلم وبين المعرفة والمعرّف إلى غير ذلك من معان تجلي ما خفي عن فهم كلمة المعرفة.

والمعرفة "ما وضع ليدل على شيء بعينه، وهي المضمرات، والأعلام، والمبهمات، وما عرف باللام، والمضاف إلى أحدهما". والمعرفة : إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم، ولذلك يسمى الحق تعالى: بالعالم، دون العارف"416.

والفرق بين المعرفة والعلم: أن المعرفة أخص من العلم لأنها علم بعين الشيء مفصلا عما سواه، والعلم يكون مجملا ومفصلا417 .

---

415 النساء 103 .

416 التعريفات ج 1، ص 72.

417 الفروق اللغوية ج 1 ، ص 500.

والمعرفة غير المعروف، والعلم غير المعلوم، والإيمان غير المؤمن به، والحفظ غير المحفوظ، لأن العلم صفة العبد، والمعلوم الرب تعالى، وكذلك الإيمان صفة للعبد، والمؤمن به هو الله تعالى. وكذلك الحفظ صفة العبد لم يكن يحفظ ثم صار حافظاً، والمحفوظ كلام الله الذي لا يتصف بأنه لم يكن ثم كان بل موجود بوجود الحق سبحانه وتعالى، موجود قبل الحفظ وبعده، واللسان مخصوص من العبادة بالذكر لله تعالى والتسبيح له والدعاء له، وقراءة كلامه، ثم الذكر صفة الذاكر، والمذكور هو الله تعالى، والتسبيح صفة المسبح، والمسبح هو الله تعالى، والدعاء صفة الداعي والمدعو هو الله تعالى. كذلك القراءة صفة القارئ التي هي له عبادة وطاعة[418].

والمعرفة التي تثري الإرادة الواعية تتطلب:

- جمع المعلومات التي تصل بالعارف عن وعي إلى حقيقة الأمر.
- البحث في المعلومة للتأكد من صحتها وقبولها عقلا.
- توثيق المعلومة بالتأكد من صحة مصدرها واستنادها إلى أصل.
- تحليل المعلومة.
- الاستنتاج.
- تفسير النتيجة والاستنتاج وتطبيقه وتقعيده.

ثانيا: الإرادة غير الواعية:

التي يتخلى فيها الإنسان عن مسؤوليته ويقدم على فعل سلبي باختياره وهذا الفعل لا يحقق له تقديرا ولا اعترافا ولا اعتبارا ولا احتراما.

والإرادة غير الواعية هي فعل سالب لا يحقق اعترافاً ولا تقديراً ولا اعتباراً، لانتفاء الوعي، حتى وإن كان بإرادة لأنه يؤدي بها إلى تكون إرادة مغيبة غير واعية، ومن أمثلة ذلك:

الطلاق وما ينتج عنه وحالات المطلق أثناء وقوعه في حالات الغضب والسكران، والواقع تحت تأثير المخدر بقصد الإدمان، وبغير قصد لإجراء عملية جراحية.

418 الإنصاف للباقلاني ج 1 ، ص 30.

وكذلك المكره لا يقع طلاقه عند الأئمة الثلاثة، اعتمادا على حديث "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"[419].

وذلك لأن الإكراه يغلق على المكره طريق الإرادة بمسؤولية، ولو نطق بالكفر لا يكفر، لقوله تعالى: {إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان}420 .

ويدخل في الإرادة غير الواعية:

. الإرادة المغيبة اختياريا:

بإقدام الإنسان عل تغيبها بعدم تحمّل المسؤولية فيما يفعل بشرب خمر أو مسكر وفي هذه الحالة تكون الإرادة مغيبة اختياريا وذلك بأسباب اختياره أو ارتكابه المحرم.

. الإرادة المغيبة قهرا:

وقد تغيب الإرادة بالقهر والجبر(من الغير) فيقدم الإنسان على أفعال لا يرضى عنها، وبالتالي فهو غير مسؤول عن نتائجها، قال الله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }421، فمن فعل فعلا بدون إرادة فلا إثم عليه، مع الإصرار على عدم العودة إليه، والله غفور رحيم لأنه يعلم بواطن الأمور.

وإن أكره الإنسان على قول أو فعل شيء دون إرادة فلا إثم عليه وهذا يؤكده قول اله تعالى الذي نزل في عمّار بن ياسر: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}422.

وقد روى العَوفِيّ عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمَّار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فوافقهم على ذلك مُكرَها وجاء معتذرًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك وقتادة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم

[419] جامع الأحاديث ج13، ص 139.

420 النحل 106.

[421] البقرة 173.

[422] النحل 105-106.

الجَزَرِيّ، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كيف تجد قلبك؟" قال: مطمئنا بالإيمان قال النبي صلى الله عليه وسلم:"إن عادوا فعد"423.

لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ من أسباب تغييب الإرادة فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ" أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَبِي طَلْحَةَ: الْتَمِسْ غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى خَيْبَرَ فَخَرَجَ بِي أَبُو طَلْحَةَ مُرْدِفِي وَأَنَا غُلَامٌ رَاهَقْتُ الْحُلُمَ فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَزَلَ فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيرًا يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ "424.

ومن الأمور التي تسهم في تغييب الإرادة الآتي:

الهم.

الحزن.

العجز .

الكسل.

ضلع الدين.

قهر الرجال.

ثالثا: الإرادة الإلهية:

وهذه الإرادة تخص (الله جل جلاله) قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[425].

وأَهْلُ الْحَقِّ؛ يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِرَادَةَ عَلَى نَوْعَيْنِ:

---

423 تفسير ابن كثير ج 4 ، ص 605.

424 صحيح البخاري ج 10 ، ص 21.

425 ياسين 82، 83.

1 – إِرَادَةٌ كَوْنِيَّةٌ تُرَادِفُهَا الْمَشِيئَةُ، وَهُمَا تَتَعَلَّقَانِ بِكُلِّ مَا يَشَاءُ اللَّهُ فِعْلَهُ وَإِحْدَاثَهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا وَشَاءَهُ كَانَ عَقِبَ إِرَادَتِهِ لَهُ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

2 – وَإِرَادَةٌ شَرْعِيَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِمَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}[426] .

ومن الأصول الثابتة في الكتاب والسنة المتفق عليها بين السلف: التفريق بين مشيئة الله وإرادته وبين محبته. فمشيئة الله وإرادته الكونية تتعلق بكل موجود محبوب لله وغير محبوب، كما ذكر في هذه الآيات أن الله يفعل ما يريد وما يشاء، وإذا أراد شيئا قال له كن فيكون. وأما محبته فإنها تتعلق بما يحبه خاصة من الأشخاص والأعمال، كما ذكر في هذه الآيات تقييدها بأنه يحب الصابرين والمتقين والمؤمنين والمحسنين والمقسطين ونحوها، فمشيئته عامة للكائنات، ومحبته خاصة ومتعلقة بالمحبوبات.

ويتفرع عن هذا أصل آخر، وهو التفريق بين الإرادة الكونية فإنها تطابق المشيئة، وبين الإرادة الدينية فإنها تطابق المحبة، فالأولى مثل: (إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)، (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) ونحوها.

والثانية نحو: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) ونحوها.

ومن أصول أهل السنة والجماعة إثبات مشيئة الرب العامة، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لا يكون، كما أن من أصولهم الثابتة إثبات صفة الإرادة، وهي قسمان:

القسم الأول الإرادة الكونية القدرية: وهذه الإرادة لا يخرج عن مرادها شيء كالمشيئة، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء، فالطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال كلها بمشيئة الرب وإرادته الكونية. وقد ذكر سبحانه هذه الإرادة في قوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا}[427]، وقوله: (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون).

---

[426] البقرة 185.

[427] الأنعام 125.

القسم الثاني الإرادة الشرعية الدينية: وتتضمن محبة الرب للمراد ورضاه به. وهذه الإرادة لا يلزم وجود مرادها، بل قد يوجد وقد لا يوجد، فالله سبحانه قد أراد من عباده شرعًا أن يعبدوه ويطيعوه، فمنهم من عبده وأطاعه، ومنهم من لم يفعل ذلك. وبهذا يعلم أن الإرادتين تجتمعان في حق المطيع، وتتفرد الإرادة الكونية في حق العاصي؛ لأن الله لم يرد منه المعصية شرعًا، بل قد نهاه عنها، وقد ذكر الله هذه الإرادة بقوله: (يريد الله أن يتوب عليكم) وقوله: (يريد الله بكم اليسر) ومن عرف الفرق بين هاتين الإرادتين سلم من شبهات كثيرة زلت فيها أقدام، وضلت فيها أفهام428.

أنواع الإرادة

معلوم أن الله تبارك وتعالى له الإرادة المطلقة، فهو يفعل ما يشاء ويختار، ولفظة الإرادة في سياق الآيات الكريمة مختصة بالمولى عز وجل و في مواضع عدة منها، يقول تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}429، وقوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}430 ، أما قوله تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}431، فالآية هنا ترسم الإرادة المطلقة من خلال جلب صورة متحققة في الدنيا، فمن عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم، تهيباً وإجلالاً، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك وربّ الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسأل عن أفعاله، مع ما علم واستقرّ في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح (وَهُمْ يُسْئَلُونَ) أي هم مملوكون

428 التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة ج 1 / ص 41.
429 - البقرة 253.
430 - هود 107.
431 - الأنبياء 23.

مستعبدون خطاءون ليس بهم كمال، فما خلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم؟ في كل شيء فعلوه432.

والله تعالى مع إرادته المطلقة إلا أنه تعالى لا يظلم أحدا من خلقه، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}433 وقوله تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}434، فسياق الإرادة الوارد في النص القرآني أغلق كثيرا من التساؤلات التي تطرح ضمن معايير التشكيك أو الضعف أو الظلم، فإرادة الله تعالى لا يستطيع أحد أن يحدها أو يؤطرها أو يوصفها فهي إرادة مطلقة، وهذه الإرادة تجلت في أية كريمة شغلت حيزا معرفيا كبيرا في كتب التفاسير وكتب العقائد، إذ يقول تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}435.

والإرادة : صفة مطلقة من صفات الله تعالى، ومن يتتبع أدلة الكتاب والسنة يجد أن النصوص دلت على أن الإرادة نوعان:

1. إرادة المشيئة (قرار) ، كما في قوله تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[436]، ومثل قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}437، وقوله تعالى : {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}438، فالإرادة هنا كونية قدرية، وهي مختصة بالخالق سبحانه وتعالى.

---

432 - الكشاف ج 4 ، ص 213.
433 - النساء 40.
434 - العنكبوت 40.
435 - يس 82 – 83.
436 يس 40.
437 - يس 82.
438 - الإسراء 16.

2. وإرادة شرعية دينية (تنفيذية)، ومن لوازمها محبته تبارك وتعالى لهذا الشيء الذي أراده، فهي تتضمن المحبة439، وهي مختصة ببني البشر.

وتقسيم الإرادة على هذه الشاكلة جاء وفق معطيات محددة تتعلق بالنوعين، إلا أن هناك أمرا واحدا يشترك بينهما لكنه لا يتحقق في كليهما ألا وهو المحبة، فالإرادة الكونية لا بد أن تقع ولكنها ليست بالضرورة محبوبة لله، بل قد يُراد أمر هو مكروه لله كالكفر، وأما الإرادة الشرعية فإنها متعلقة بالمحبوب لله تعالى وإن كان لم يقع، فهي أقرب لمعنى المحبة والأولى أقرب لمعنى المشيئة، فالأولى واقعة لا محالة، والثانية محبوبة من غير شك إلا أنها قد لا تقع440.

والإرادة الكونية تشكلت في النص القرآني مع قدرة الله تعالى، فما ورد منها من سياقات مختلفة بيّن الارتباط العظيم بين قدرة الله تعالى وإرادته، ومن ذلك:

1 . نظام الكون:

إن الناظر إلى هذا الكون الفسيح بما فيه من شمس وقمر ونجوم ومجرات يعلمها ولا يعلمها يتعجب من عظمة الله تبارك وتعالى، ويطلق العنان لتساؤلاته عن هذا النظام العجيب المنتظم الذي يسير وفق معايير محكمة أوجدها الله تبارك وتعالى، فليس هناك اصطدام بين الكواكب، أو تأخر للشمس عن الشروق أو عن الغروب، إذ يقول تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}441، هذه الآية الكريمة ترسم صورة من صور إرادة الله تعالى في هذا الكون الفسيح، والمتحقق من هذه الإرادة صورة كونية فيها الشمس والقمر والليل والنهار، وهذه يتكون منها العالم الذي يعيش فيه الإنسان، فالشمس دائما تجري لمستقر لها قدره الله لها لا تتعداه، ولا تقصر عنه وليس لها تصرف في نفسها، فالله تعالى بعزته دبر كل هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير،

---

439 - تذكرة المؤتسي ج1، ص51. .

440 - اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث ج1 ص 50.

441 - يس 38 – 40.

وأحسن نظام. أما القمر فله منازل ينزل بها، كل ليلة ينزل منها واحدة حتى يصغر جدا، فيعود كعرجون النخلة، الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك، ما زال يزيد شيئا فشيئا، حتى يتم نوره ويتسق ضياؤه. (وَكُلٌّ) من الشمس والقمر، والليل والنهار، قدره الله تقديرا لا يتعداه، وكل له سلطان ووقت، إذا وجد عدم الآخر، ولهذا قال: (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ) أي: في سلطانه الذي هو الليل، فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، (وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه، (وَكُلٌّ) من الشمس والقمر والنجوم (فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) أي: يترددون على الدوام، فكل هذا دليل ظاهر، وبرهان باهر، على عظمة الخالق، وعظمة أوصافه، خصوصا وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع442.

2- الهلاك:

الهلاك من المفردات التي وردت في النص القرآني والتي تمثل صورة من صور الإرادة الكونية لله تعالى، والإرادة الكونية كما عرفنا أنها تشمل ما يحب الله وما لا يحبه والهلاك هنا وان كان لا يحبه الله تعالى فهو متحقق منه جل جلاله، ذلك أنه عقاب سبقه إنذار ووعد ووعيد، فضلا عن ذلك أنه متحقق لكل الخلق عند قيام الساعة ، إذ يقول تعالى:{وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}443 فقد ورد الهلاك في القران الكريم ثمان وستين مرة ،ومن خلال استقراء السياقات التي ورد فيها الهلاك بكل صيغه يمكن أن نؤشر الدلالات الآتية:

يأتي الهلاك بمعنى الموت الحقيقي قي معظم مواضعه ،مع ملاحظة أسلوب الذم والعنف والتعذيب في هذه المواضع ولننظر إلى هذه الآية،إذ يقول تعالى :{قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}444، والكلام عن قارون المتكبر وإهلاك من هو أقوى منه،

---

442 - تفسير السعدي ج 1 ص 695.

443 - القصص 88.

444 -القصص 78.

وأكثر جندا، فقد تكرر الحديث في القران الكريم عن إهلاك الأقوام والقرى الظالمة التي كذبت الرسل وكان عقابهم الهلاك الجماعي ، فإهلاك القرى في مثل قوله: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}445 والفرق بين إهلاك الأقوام وإهلاك القرى، أن إهلاك القرى يعني إبادة أهلها وتخريبها، وإهلاك الأقوام يعني إبادتهم هم فقط فإهلاك القرى شامل لإبادة سكانها وعمرانها، فهو أشد نكالا بالظالمين والكافرين، يقول تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}446، والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها. وإنما علق الإهلاك بالقرى للإشارة إلى أن شدة الإهلاك بحيث يأتي على الأمة وأهلها وهو الإهلاك بالحوادث التي لا تستقر معها الديار بخلاف إهلاك الأمة فقد يكون بطاعون ونحوه فلا يترك أثراً في القرى447. ولعل جرس مفردة الهلاك ذات الأحرف التي تقترب أصواتها من التأوهات الخارجية من أعماق الصدر، فالهاء واللام والألف والكاف حروف تشعرك بالامتداد الذي يدل ولاشك على الشمول حين تجمع فتبدو مفردة الهلاك أشد وأفزع من مفردة الموت وذلك لأنها عامة تشمل في الغالب جمع من المخلوقات والموت خاص الغالب عليه أن يقع على المخلوق الواحد تلو الواحد مع فاصل في الزمن أم الهلاك فلا فاصل زمني له، لعل هذا الجرس هو الذي سوغ استعمالها في سياقات العذاب الجماعي بالموت .

جاء الهلاك بدلالته المجازية الدالة على الهلاك المعنوي الدال على سوء الحال والضر الشديد من كفر وشرك وضلال، قال تعالى: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ}448 وقال تعالى: {وَهُمْ

445 - الأعراف 164.
446 - القصص 59.
447 - التحرير والتنوير ج 10 ص 418.
448 - الأنفال 42.

يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}449، وأصل الهلاك الموت . ويطلق على المضرّة الشديدة لأنّ الشائع بين الناس أنّ الموت أشدّ الضرّ. فالمراد بالهلاك هنا ما يلقونه في الدنيا من القتل والمذلّة عند نصر الإسلام وفي الآخرة من العذاب 450 ويلاحظ على سياقات الإهلاك أسلوبيا غلبة الصيغ الفعلية الماضية والمضارعة، وهذا ملمح أسلوبي مطابق للواقع، إذ أن الهلاك فعل حدث ويحدث وسيحدث مستقبلا ،فطبيعته متحركة لا ساكنة عبرت عنها السياقات التي ورد فيها .إلا أن صيغ اسمية كان لها حضور في مواضع استدعتها سياقاتها، كقوله تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}451، إذ استعمل الأسلوب القرآني اسم الفاعل – هالك – الدال على الثبات والدوام، بمعنى أن كل شيء سيهلك أو هلك حتما ماضيا أو مستقبلا، فالهلاك جزء من كيان كل حي إلا الله الحي الذي لا يموت. كما جاء اسم الفاعل في موضع أخر للدلالة على حكم عام لا يعدل عنه الله ،إذ قال تعالى: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}452، فمن سنة الله تعالى في قانون الإهلاك أن الله تبارك وتعالى لا يهلك أحدا بظلمه حتى يبعث إليه رسولا يبشره وينذره حتى لا تبقى له على الله حجة ،هذا ما أفاد اسم الفاعل – مهلك – في هذه الآية. والموضع الآخر قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}453 هذا إخبار من الله تبارك وتعالى، انه ما من قرية يتمرد أهلها على نبيهم إلا ويبيدهم، أو ينزل عليهم العذاب الشديد الذي يستحقونه، وهذا الأمر لا يتعلق بزمان أو مكان بل هو يشمل جميع الأزمنة والأمكنة، وفي جميع الأمم الظالمة .

3 . الخسف:

449 - الأنعام 26.
450 - التحرير والتنوير ج 4 ص 398.
451 - القصص 88.
452 - الأنعام 131.
453 - الإسراء 58.

الخسف صورة من صور العقوبة المتحققة في الأرض، وهو إرادة الله تعالى النافذة لا راد لها، فتحققها إرادة كونية لاختصاص هذا الشكل من الموت في القرآن الكريم بقارون المتكبر لترابط واضح بين تكبره وتعاليه ودلالة الخسف، وخَسَف الله به الأَرض خَسْفاً أَي غابَ فيها454، والخسف يشبه الزلزال العظيم الذي يضرب الأرض ثم يحدث فيها شق كبير فيسقط فيه كل ما هو موجود على سطح الأرض، فيموت كل ما دخل فيه إلا ما شاء الله ،فعقاب قارون كان متناسبا مع جرمه ،إذ غيبه تعالى في باطن الأرض كما تغيب الفضلات من كل شيء جزاء على تكبره وتعاليه، ولعلنا نلمح من لفظ الخسف بما توحيه أصوات أحرفه الثلاث، صوت تكسر أضلاع قارون شيئا فشيئا وهو يغيب في الأرض، وهو صوت يشبه تكسر ورق الشجر اليابس تحت أقدام الناس!!

ولقد هدد الله تعالى في كتابه الظالمين بعقوبة الخسف، فقال تعالى: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا}455، فالسياق في إثبات قدرة الله تعالى المطلقة على إهلاك الظالمين سواء في البر أو البحر ،لكن لما كان البر أكثر إشعارا بالأمان من الماء واستبعادا للهلاك ذكره تعالى تأكيدا لقدرته على إهلاك الظالمين في أي جانب كان البر أو البحر فهما على السواء بالنسبة لقدرته تعالى،وفي قوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}456، يلاحظ في هذه الآية مقابلة بين السماء والأرض، أظهرت قدرت الله تعالى العظيمة، فمن في السماء هو الله تعالى يقابله من في الأرض، وفي هذا إشارة إلى عظيم القدرة إذ لا يحتاج تعالى أن يكون في موضع الإهلاك ليكون قادرا على الإهلاك كعادة الناس، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون بلا أسباب موصلة لذلك إن شاء .

4 . الغرق:

---

454 - لسان العرب ج 9 ص 67.

455 - الإسراء 68.

456 - الملك 16.

وهو صورة من صور الإرادة الكونية ففيه دمار وموت، وهذه الإرادة نافذة رغم الصور المروعة التي فيها، فصورة تسونامي لا تزال عالقة في الذهن، فهي صورة حية بثلاثة أبعاد رسمت لنا صورة من صور العذاب الذي تحقق على قوم نوح عليه الصلاة والسلام وعلى فرعون وقومه. ولا بد من الحديث عن الغرق بكل تفصيلاته، ذلك لأنه كان من مظاهر فعل الإرادة الكونية التي أرادها الله تعالى. ورد هذا الشكل من أشكال الموت في القرآن الكريم اثنتين وعشرين مرة في اثنين وعشرين موضعا، ودلالته في هذه المواضع "كلها على اختلاف صيغها، فعلا ومصدرا واسم مفعول. ومن الغرق بمعناه الأول القريب، بصريح سياقها في اليم والبحر والموج، أو في قوم موسى والكفار من قوم نوح"457 قال تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آَيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}458، الغرق هو البلاغ في الشيء إلى غايته بحسبه، فإن كان في الهلاك فهو غاية وظهر معناه في الماء والبحر لبُعد قعره، وهو في الماء بمنزلة الخسف في الأرض459، ويلاحظ هنا أن هنالك ربطا بين الغرق والخسف وذلك لان كليهما موت بالاختناق وانقطاع النفس بسبب الغور في باطن البحر أو الأرض .

والآيات السابقة كما نلاحظ تربط بين هلاك فرعون وقومه وقوم نوح عليه السلام "فلما أخبر الله تعالى أنه دمر أل فرعون تدميرا أخبر بأنه أغرق قوم نوح، وكل من الفعلين (دمر) و(أغرق) يُعين الآخر في بيان هول العقوبة ونوعها، فأما (دمرناهم) فإعلام بعقوبة الفناء التام العام لفرعون وجنوده، وأما (أغرقناهم) فأخبار بنوع العقوبة وتخصيصها وهي الغرق، وكلا الفئتين أبيدت غرقا، فتماثلت العقوبتان باتحاد الذنب وهو تكذيب الآيات والرسل"460.

ففائدة الفعل (أغرقناهم) هو تكرار معنى الإهلاك بالتدمير وبيان نوعه. ويلاحظ أن الآيات السابقة ولأنها جاءت لإثبات قدرة الله تعالى المطلقة على إهلاك الظالمين، عمد الخطاب

457 - التفسير البياني ج 1 ص 110.
458 - الفرقان 35 – 37.
459 - ألبقاعي ج 1 ص 90.
460 - أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم ص 19.

القرآني إلى حذف كثير من تفاصيل القصتين اللتين تتحدثان عنهما موجها السياق نحو صورة الإهلاك وقوته، كما نلاحظ ذلك من قوله تعالى: {فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا}461، إذ حذف من السياق دعوة موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام لقومهما، والأحداث التي جرت بينهما وبين فرعون، ووجه السياق مباشرة بعطفه بالفاء الدالة على التعقب السريع إلى النتيجة النهائية وهي التدمير غرقا، وهو غرق السياق الأول لإثبات قدرة الله تعالى المطلقة في إهلاك الكافرين. وبالمعنى نفسه ورد قوله تعالى:
{وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آَيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا}462.
إن استعمال- الغرق – بصيغة المصدر الدال على الثبات المطلق والحدث المجرد يرسم لنا صورة مخيفة لعظم الماء الذي غمر فرعون وجنوده ،وكان هذا الغرق راسخ لفرعون وجنوده وهو نوع خاص بهم عقوبة لهم على كفرهم ،عمق هذه الصورة مجيء الفعل أدرك قبل فعل الغرق والذي يدل على بلوغ أقصى الشيء. وهو يؤذن بأن الغرق دنا منه تدريجياً بهول البحر ومصارعته الموج ، وهو يأمل النجاة منه، وأنه لم يُظهر الإيمان حتى أيس من النجاة وأيقن بالموت، وذلك لتصلبه في الكفر463. ومعنى هذا الكلام أن الله تعالى لم يقبل توبته لأنه قالها بعد أن غرق وكأنه قالها في نفسه تحت الماء،ولعلنا نلمح من لفظ أدرك تشخيصا للغرق، وكأنه وحش مخيف يجري وراء فرعون وهو يحاول الخلاص منه!!
بعد التعرف على أنواع الإرادة الكونية تبين لنا أنها تحقق العدالة الإلهية في الأرض، فالهلاك والخسف والغرق صورة تحققت في الدنيا، لكن هذا التحقق يرسم أمرين:

461 - الفرقان 36.
462 - الفرقان 37 – 40.
463 - التحرير والتنوير ج 7 ص 60.

الأمر الأول: إن هذا التحقق سبقه إنذار ووعد ووعيد ورغبة ورهبة، فلم يبق شيء يوضح دعوة الله تعالى إلا وقد تحقق، وماذا بعد ذلك إلا تحقق العقوبة المترتبة التي وعد بها الله جل جلاله.

الآمر الثاني: في تحقق هذه الإرادة تتحقق العدالة الإلهية، فصور الهلاك والخسف والغرق ترسم صورة الجزاء الذي وُعد به الكافرون والمشركون، فضلا عن ذلك أنها تحيل إلى صور العذاب الأخروي فهي جزءٍ من العذاب الموعود، إذ يقول تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}464.

ولا تلازم بين هذه الإرادة ومحبة الله وأمره الشرعي، فقد يريد الله ويشاء وقوع شيء يكرهه لحكمة يعلمها وبأسباب من خلقه أنفسهم كوقوع الزنا والكذب والكفر والله تعالى لا يحب ذلك ولا يأمر به شرعاً وإنما نهى عنه لكنه يقع بإذنه ومشيئته يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}465، ويقول تعالى عن هذه الإرادة: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}466.

الإرادة الشرعية:

الإرادة الشرعية فهي متعلقة بالمحبوب لله تعالى وإن كان لم يقع، فهي أقرب لمعنى المحبة.

و«الإرادة الشرعية» قد يقع المراد، وقد لا يقع، يقول الله تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا}467 هذه الآية فيها تخصيص أي أن الله تعالى وحده هو الذي يريد أن يتوب عليكم، فهو يحرضكم على التوبة والإقلاع عن المعاصي، فالإرادة هنا إرادة شرعية فلو كانت كونية لكان الله يتوب على كل الناس، فهي محبوبة لله تعالى بان يتوب الناس جميعا لكنها غير متحققة بفعل البشر أنفسهم.

---

464 - غافر 46.
465 - الأنعام 112.
466 - يس 82.
467 - النساء 27.

وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}468 هنا الله تعالى عمم الإرادة الشرعية بقوله: (إِلاَّ لِيُطَاعَ)، وبيّن التخصيص في الطاعة بالإرادة الكونية بقوله: (بِإِذْنِ اللّه) فالدعوة عامة، والتوفيق خاصّ.

وتحقيق النسبة بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية الدينية، أنه بالنسبة إلى وجود المراد وعدم وجوده، فالإرادة الكونية أعمُّ مطلقاً؛ لأن كل مراد شرعاً يتحقق وجوده في الخارج إذا أُريد كوناً وقدراً، كإيمان أبي بكر. وليس يوجد ما لم يرد كوناً وقدراً ولو أريد شرعاً، كإيمان أبي لهب. فكل مراد شرعي حصل فبالإرادة الكونية، وليس كل مراد كوني حصل مراداً في الشرع469.

والإرادة الشرعية بصورة عامة كل الأحكام التي أرادها الله تعالى من عباده من صلاة وزكاة وصيام وحج وغيرها من التكاليف الشرعية. ويتشكل مع الإرادة الشرعية رضا الله تعالى، فالرضا لا ينفك عن الإرادة الشرعية فكل مراد لله تعالى بالإرادة الشرعية مرضي له سبحانه، إذ يقول تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}470.

مطلقات الإرادة

الإرادة هي اتخاذ موقف بالإقدام على أمر أو الإحجام عنه وفق معطيات معينة يحددها المريد على ضوء ما استجمع من معلومات قبل اتخاذ القرار. فقد" قيل لعنترة: أأنت أشجع العرب وأشدها؟ قال: لا، قيل له: فبم شاع لك هذا في الناس؟ قال: كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً، ولا أدخل موضعاً لا أرى فيه مخرجاً لي"471

468 - النساء 64.
469 - دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ج 1 ص 47.
470 - الزمر 7.
471 - التذكرة الحمدونية ج1، ص 270.

وامتلاك الإنسان الإرادة، يعني امتلاكه الحرية، فالإنسان هو مريد ضمن دائرة النسبية، وطالما أنه مريد فهو في حالة اختيار، وهذا الاختيار هو مدعاة لتحمل الإرادة مسؤوليتها بشقيها الدنيوي والأخروي،قال تعالى: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}472 فالمقتول قبل أن يقتل أراد أن لا يبسط يده إلى أخيه حتى لا يرتكب إثما، ولا يردّ اعتداءه باعتداء مماثل كي لا يكون في الدنيا من النادمين وفي الآخرة من الخاسرين، فقد تحمل بإرادته المسؤولية في الدنيا والآخرة، وكذلك القاتل فقد أراد عكس إرادة أخيه.

إن الإنسان يحمل مجموعة من الأخلاق والقيم تشكل طريقة التفكير والسلوك، وبهذا يكون مميزا لما يريد من خلال الفكر والإدراك.

فالسلوك مرتبط بسلسلة الأفكار التي يحملها الإنسان، لأنه ناتج عنها، وهي التي تمنح الإرادة إرادتها المبنية على درجة من الوعي والوضوح والشورى والاختيار.

وعلى هذا يكون مكمن الإرادة في هذا الكم الأخلاقي من القيم التي تنمو بها الإرادة وتتعاظم من خلال أدواتها التي تحصل على العلم والمعرفة والاطلاع على الخير والشر والجمال والقبح والنفع والضرر والسمو والدنو والتجريدي والواقعي والمادي والمعنوي والطبيعي والميتافيزيقي، وما إلى ذلك مما يُفسح المجال ويطلق حرية الاختيار وصولا للتهيؤ قبل قرار الإرادة.

فالإرادة تأتي بعد مرحلة التهيؤ وتتكون من استنتاجات العقل فيما يحمل من أفكار عن معلومات وتجارب كانت مصادرها إما عن طرق السماع المختلفة أي المقصودة أو العفوية، أو المشاهدة أو الممارسة، وإما نتيجة تلاقح الأفكار التي يحملها الإنسان في عملية موازنة بين الخطأ والصواب أو بين الجمال والقبح أو بين الفضيلة والرذيلة بحيث يقف على الاختيار الأفضل في قضية ما خدمة للإرادة من أجل اتخاذ قرارها السليم، وسوف نتناول العناصر المغذية للإرادة بشيء من التفصيل كل على حدة على النحو الآتي:

1- الوعي:

---

472 - المائدة 29.

هو تقدير الأمور ووضعها في نصابها الصحيح في عملية التفكير السليم والنظرة العقلية الفاحصة، من أجل وزن الأمور المُتخذة بإرادة والتي توصل إلى النتائج السليمة.
وعلى هذا يكون الوعي ظاهرة فكرية يقدر العقل من خلال وعيه، نتائج القرارات قبل اتخاذها ضمن مصلحة معينة وإطار محدد، فهو وجود فكري لا نقول أنه مستقل عن سلسلة الأفكار العقلية، وإن كان هو جزء منها، وإنما يقوم على مجموعة حقائق يقبلها المنطق السليم لما تلقاه العقل من تجارب سابقة، أو تصورات مستقبلية استنتاجا من المعلومات التي يحملها، والفرق بين الوعي وعدمه يتضح لكل ذي لبّ من خلال نتائج القرار الذي تتخذ بإرادة قياسا لنسبة الوعي.
إن العقل يستمد وعيه من مصدرين أساسيين يرفد بهما الإرادة وهما:
أ- الصحيح المعقول الذي يوافق المنطق السليم، وهو ما تواطأ على صحته جمع من الخاصة يقبله منهم العامة.
ب- الصحيح المنقول الذي تواتر به الخبر، ولا نقتصر هنا على الكتاب والسنة، ولكن إضافة إلى ذلك، هناك نصوص نقلية صحيحة في مجالات إنسانية كثيرة، يكون العلم بها مدعاة لرفع درجة الوعي كونها تجارب إنسانية أدت إلى نتائج إيجابية.
فالوعي يجمع ما بين المعقول والمنقول، ذلك أن العقل وحده يكون قاصرا في مجالات لا يسعفنا فيها إلا المنقول، إضافة إلى أن العقل يتعثر أحيانا كثيرة، لذلك وجب التنبه إلى متممات الوعي من الرغبة والرهبة. والرغبة لا بمعنى الهوى والنزوة، وإنما هي رغبة في الوصول إلى الهدف من حيث أفضل النتائج بأقل الخسائر عندما يُتخذ قرار الإرادة، وكذلك الرهبة لا بمعنى الخوف، وإنما هو تحسب وحذر من وقوع الممكن غير المتوقع الذي يدخل في دائرة الوعي الفردي، وليس في دائرة الوعي الجمعي، لأن الأمر عندما يكون في دائرة الوعي الجمعي يصبح من البديهيات حيث يتساوى فيه جميع الإفراد.
فالوعي هو ما حفظه الإنسان من التجارب النقلية والعقلية وما يستنتجه من تلاقح هذه التجارب بصرف النظر عن الوجهة التي يسخر فيها وعيه خدمة لقرار الإرادة، وقوله تعالى

في محكم التنزيل: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ}[473]، أي بما يضمرون ويحفظون. وعليه فالوعي الفردي هو الذي يحدد طبيعة الفروق في دائرة الوعي الجمعي.

2- الشورى:

وتعني: أخذ الرأي بعد تبيان الأمر واستيضاحه مصداقا لقوله تعالى: {وشاوِرْهم في الأمر}474 ، ويقول أبن منظور: "شاورهم تعني استخرج آراءهم"475 أما الشيخ الشعراوي فيقول: "فالمشورة هي تلقيح الرأي بآراء متعددة"476 . وهذا يدل على أن الشورى في الفكر الإسلامي تماثل الديمقراطية عندما تكون ممارستها حقا للجميع الذكور والإناث، ولذلك يستوجب ممارسة الشورى في الأمر. والأمر هو، كل ما يتعلق بالإنسان من ممارسة حقوق وأداء واجبات وحمْل مسؤوليات، سواء كان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية، أو كان هذا الأمر في حالة السلم أو في حالة الحرب، وسواء كان اقتصادا أو علاقات اجتماعية، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر، أي وكأنه يقول، في وجودك يا رسول الله لا ينبغي أن تقرر أي شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم، ولذلك كانت الآية (وشاورهم في الأمر) موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبيِّن له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلق الأمر بهم.

وفي حالة ما لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام معهم يصبح الأمر بينهم شورى مصداقا لقوله تعالى: {وأمْرُهُم شُورى بينهم}477. إذن بكل وضوح إن الأمر الذي يتعلق بالناس في فترة الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حالة شورى بين الرسول والآخرين الذين يتعلق الأمر بهم . أما من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورى يقررون ما يشاءون فيه، وينفذونه كما يشاءون ، ولهذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلق بهم من

---

473 الانشقاق 23.

474 سورة آل عمران ، الآية 159 .

475 تفسير الجلالين . بيروت : دار الفكر ، ص 94 .

476 محمد متولي شعراوي ، تفسير الشعراوي . القاهرة : أخبار اليوم ، المجلد الثالث ، ص 1840 .

477 الشورى 38 .

أمر. وكلمة أمرُهُم ، تتكون من جزأين هما : أمْرُ ، وهُم ، فالأمر هو ما سبق تبيانه، أما هم فجاءت مطلقة أي كل من هم على علاقة ارتباط مع الأمر ، أما لفظة بينهم الظرفية فتعني أن تقتصر الشورى في الأمر على الذين يعنيهم الأمر فقط ولا مكان لغيرهم، ولتأكيد هذا الاقتصار قال عزّ وجل بينهم ، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين ، أو بين السادة والعبيد ، أو بين المسئول وغير المسئول .

والشورى صفة أصيلة من صفات العقلاء كونها رافدا مهما في حسن الاختيار الذي يصب في قرار الإرادة الناتج عن الوعي الجمعي، ومن شاور الناس شاركهم في عقولهم، وذلك من أجل تحري أفضل السبل التي تقود إلى نجاح فكرة ما، ذلك أن أي قرار للإرادة لا يستند إلى المشاورة فهو مبني على نقص في الفكرة، لأن الإرادة تتخذ قرارها وفق معطيات واقعية، وهذا الواقع إنما يتمثل في أفراد المجتمع، فكلما كانت دائرة الشورى متسعة، كان الاختيار أقرب إلى الواقع، وبالتالي كان قرار الإرادة ينسجم مع هذا الواقع الذي يهيئ له دائرة الممكن.

ذلك أن الأعمال تتفاضل وتختلف درجاتها، وشرط نجاح الأعمال، نجاح الفكرة أو الأفكار التي تقوم عليها تلك الأعمال، ومن أجل تطابق الفكرة النظرية مع الواقع العملي قدر المستطاع وجبت الشورى التي توسع مجال الاختيار.

والشورى لا تقتصر على فرد أو صديق أو جماعة دون أخرى، وإنما كلما اتسعت دائرة الشورى، اتسع مجال الاختيار، وحتى الذين لا تظن بهم خيرا يدخلون ضمن الشورى، لتطلع على حقيقة ما يفكرون به، وكذلك فإن الحكمة تقتضي أن تأخذ ما في رؤوسهم وتدع ما في نفوسهم لعلها تتطهر أو تقتدي للأحسن، لأنك من خلال الشورى تستطيع أن تحصل على أفكار عقلية وخلاصة تجارب تستند إلى أساس واقعي، من خلال الذين تستشيرهم، فمجموع الأفكار التي تستخلصها من خلال الشورى إنما هي تجارب مدفوعة الثمن من حيث الوقت والجهد والنتائج، فهي إما مقتبسة من الواقع من خلال المشاهدة بإعمال الفكر وعملية التأمل، أو مكتسبة منه على أساس تجربة سابقة، فهذه الشورى وإن كانت فكرة ذهنية، إلا أنها تكونت من معطيات واقعية، وعلى هذا الأساس يستطيع المشاور أن يركب من خلال إدراكه

تصورات جديدة مختلفة في قضية معينة من خلال المشورة بتشكل لتهيؤ جديد يفضي إلى الاختيار خدمة لقرار الإرادة الذي سوف يتعامل مع الواقع من جديد.

ولما كانت الشورى من الفضائل لأنها تؤدي إلى الاختيار الصحيح، لذلك أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بها في قوله تعالى: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[478]، فالمشورة هي إغناء الفكرة من استظهار آراء الآخرين لمعرفة ما لديهم من جهة، وكذلك فإنها تشدّ أواصر الرابطة المجتمعية بين من يتعلق الأمر بهم.

قبل إقدام الإرادة على اتخاذ قرارها تكون الاستشارة فيها من عين الصواب، فالمشورة تنوّر الأفكار وتوضّح الأمور، مما يضفي زيادة في الفهم عندما يقدم العقل على الاختيار وخاصة في الأمور المصيرية التي تحتاج إلى إمعان النظرة وتقليب الفكرة، فإن في ذلك من الفوائد والمصالح ما لا يخفى على عاقل، إضافة إلى ذلك فإنها للمسلم من العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى.والمستشير عندما يعمد إلى المشورة يكون قد أدى حقوق من أوكلوا إليه أمرهم لأن:" فيها تسمحا لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس -إذا جمع أهل الرأي: والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث- اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة"[479]. فالاستشارة تؤدي إلى صواب الرأي، ولا يكاد المشاور أن يخطئ، وإن أخطأ فقد شارك من استشارهم بتحمل المسؤولية.

---
478 آل عمران 159.
479 تفسير السعدي ج1، ص154.

وعلى ما تقدم فإنه كلما اتسعت دائرة الشورى، كان مجال الاختيار رحب في اقتناص الصواب الذي يخدم قرار الإرادة عند الإقدام على الفعل وهذا معنى قوله تعالى (فإذا عزمت فتوكل على الله) فبعد استكمال المشورة تصبح الخيارات متعددة لوضع الإرادة لما تريد.

3- الوضوح:

عندما نتكلم عن الوضوح، فالكلام ينصبّ على أمر من الأمور أو قضية من القضايا، وليس على واقع حسّيٍّ ملموس، ذلك أن الأمر الواقعي هو واضح من حيث مادته وأبعاده وتكوينه، وأما إذا أردنا أن نستوضح الأشياء المادية، فإن الاهتمام ينصب على ماهية تلك الأشياء من الجماد والنبات والحيوان وليس على مادتها، فإذا أردنا أن نستوضح هذه الأشياء، فإن الاهتمام يكون بحقائقها الخفية، وليس بظواهرها المادية البادية للعيان، أنظر إلى قوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[480] فالرؤية البصرية لدى الإنسان متحققة بمشاهدة الإبل من حيث شكلها وحجمها والصورة التي هي عليها، ولكن الأمر دعوة إلى التبصر، وهو الذي لا يتحقق إلا بإعمال الفكر في عملية تأملية تفضي إلى الوضوح، فالدعوة للنظر إلى الإبل، إنما هي دعوة إلى استيضاح عجيب ما أودع الله فيها من طباع، من تحمّل المشاق وصبرها على العطش واكتفائها بالقليل من الشوك وانقيادها السهل على ضخامتها وتأثرها بالحداء، وفرط حنينها، حتى أنها تقتل نفسها من شدة الحنين.

فالدعوة هي نظرة التبصر من أجل وضوح ماهية الإبل وطباعها التي يدل على بديع صنعة الخالق من خلال عملية التأمل وصولا إلى الوضوح، لذلك قال تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[481] .

ولذا فإن الوضوح أو استيضاح أمر أو قضية إنما يتعلق بالجانب العقلي من اهتمامات الفكر الإنساني لاستبيان الأمور والوقوف على حقائقها، تلك القضايا التي نريد أن تكون واضحة

480 الغاشية 17.
481 الحج 46.

لنا، كي لا نضع أنفسنا في تهيؤ خاطئ يعطي الإرادة تصورا مغايرا لماهيات القضايا وعلاقاتها فيما بينها، فتقع في مزالق اتخاذ القرار.

ولكي نقف على وضوح الأمر يجب أن نعمد إلى المنهج الصحيح في الوصول إليه، وذلك عن طريق الأدوات، وهي السماع والتبصر.

أ- السماع: عندما تريد أن تعالج قضية ما، فإنك لا تلم بجميع حيثياتها وإن كنت على علم بها، فالأمر يتطلب منك أن تسمع من الآخرين، وعملية السماع هذه سوف توسع لك مجال الرؤية في أبعاد هذه القضية بإضافات جديدة سواء أكانت مخاطر أم فوائد، وعلى ضوء ما تمتلك من معلومات مع الإضافات الجديدة، فإنه يتولد لديك أسئلة توجهها للآخرين لكي تشبع الحاجة التي تولدت لديك، وتساؤلات تجيل الفكر فيها على ضوء ما استجد من أجل القصد والغاية، والسماع أحد الوسائل المهمة التي تصل بصاحبها إلى الوضوح، فقد قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا}[482]، أي تمهل علينا حتى تعي عقولنا ما تقوله ونقف على حقيقته من خلال السماع، ذلك أن تقصي الوضوح يعتمد على حركة الذهن والفكر، لأن البحث العقلي ينحي العواطف جانبا ويضع الإنسان في دائرة الاختيار الصحيح، والسبب في ذلك أن إعمال العقل يقيد العواطف مما يبعدك عن الانفعال، لأن الوضوح يحتاج إلى الذهن، لذلك وجب استبعاد النتيجة الانفعالية أثناء السماع.

ب- التبصر: يأتي التبصر بعد السماع من أجل الوضوح، ذلك أن التبصر هو عملية التفكير التأملي فيما سمعت وفيما تمتلك من أفكار ومعلومات تفضي إلى القناعة بأن ما توصلت إليه هو الرأي السليم.

وعلى هذا فإن التبصر يحتاج إلى الحكمة التي تولد الروية والأناة في التفكير الهادئ، باستبعاد المؤثرات الخارجية التي تؤدي إلى الانفعال الذي يدفع للانصياع وراء هوى النفس، فالروية والتفكير يؤديان إلى وضوح الأمر قبل الحكم له أو عليه، والتبصر يمنح الهدوء والتريث في التثبت من صحة الخبر، وبهذا يكون الإنسان قد استبعد التسرع في لحظة الإقدام

---

[482] البقرة 104.

على الاختيار، علما أن المؤثرات الخارجية لا بدّ أن تحرك الانفعال، ولكن درجات الاستجابة لانفعالات العواطف تكون متفاوتة من شخص لآخر، و كلما ازدادت معلومات المعرفة بالموضوع الذي نريد أن نستوضحه، اضمحلت هذه الانفعالات بحجم المعلومات التي امتلكناها عنه، إذ أن ردود الفعل السريعة في قضية ما، والاختيار الخاطئ في معالجتها، إنما هو نتيجة الجهل بحيثياتها، والجهل بحيثيات أي موضوع دون أن تستوضحه، لابدّ أن يكون قرارك فيه أو الحكم عليه من قبيل الانفعال، لذلك قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}[483]، فالتبيين هو التثبت مما يقوله لك في استيضاح الأمر والوقوف على حقيقته في الأناة والروية وإعمال العقل، وهذا التصرف صفة من صفات الحزم، ذلك أن أخذ الخبر المجرد ممن عرفت وممن لم تعرف فيه خطر كبير، قد يؤدي إلى عكس النتيجة التي تستوضح من أجلها الخبر.

4- الاختيار:

يتصور كثير من الناس أن الاختيار هو الإرادة، ولو كان الأمر كذلك، لما كان مسميان لمعنى واحد، والدليل على ذلك أن الإرادة عندما تكون أمام أمرين فإنها تختار أحدهما دون الآخر، وكذلك فإن الإرادة عندما تتخذها قرارها، يكون هذا القرار في اللحظة نفسها اتجاه هذا الأمر، أما الاختيار فيكون من أمور متعددة يقع الاختيار على واحد منها يتم دفعه للإرادة التي تتخذ قرارها فيه.

والاختيار إما أن يكون بين أمرين، وإما أن يكون من متعدد:

أ- الاختيار بين أمرين كما في قوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}484، فأنت هنا بالخيار بين أمرين ظاهرين وثالث خفي محسوس هو ترك الرد، وإذا سأل سائل لماذا الإخفاء نقول ليتوافق مع الإرادة الإلهية بوجوب رد الإسلام وانتفاء مطلق للخيار الثالث في هذه الإرادة، لذلك فإن تغييب هذا الخيار جاء لمناسبة الإرادة، لذلك فإذا

---

483 الحجرات 6.

484 النساء 86.

اختار الأمَّ الثالث وهو السكوت وعدم ردّ التحية فهو آثم، ومثل ذلك أيضا قوله تعالى: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}[485]، فالمطلقة هنا بالخيار بين أمرين إما أن تأخذ نصف المهر، أو أن تعفو فلا تأخذ شيئا، والذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، وهو أيضا بالخيار بين أمرين، ولكن إما أن يدفع لها نصف المهر، أو أن يعفو فيتنازل عن كامل المهر لمطلقته، وهذا من عجائب الاختيار بين أمرين، بحث أنّ المرأة إن اختارت العفو فقد تنازلت عن نصف المهر المقرر لها، فإن عاد الزوج واختار العفو على اختيارها، أعاد لها كامل المهر بهذا الاختيار.

ب- الاختيار من متعدد: وهذا النوع من الاختيار لا يختلف عن سابقه من حيث أنك تختار أمرا واحدا في لحظة الاختيار، ولكن من أمور كثيرة، بحيث يكون مجال الاختيار أوسع، فهناك خيارات كثيرة يتجه خيارك لأفضلها وفق اعتقادك بناء على ما تحمل من معلومات وتجارب تمنحك نتيجة تقديرية وليست واقعية لهذا الاختيار، ونقصد بالتقديرية أن الاختيار يكون إما أعلى من المتوقع أو أدنى منه أو مساوٍ له.

الأول: أعلى من المتوقع في دائرة الاختيار وهو قوله تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}[486] فقد كان اختيار المؤمنين طاعة الله هو اختيار للجنة والخلود فيها إلا أن المزيد الذي يكرم الله به عباده هو أعلى من المتوقع في دائرة الاختيار.

الثاني: أدنى من المتوقع في دائرة الاختيار وهو قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}[487]

الثالث: ما كان مساوٍ للاختيار في قوله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا}[488].

منتزعات الإرادة

---

[485] البقرة 237.
[486] ق 34- 35.
[487] البقرة 61.
[488] الأعراف 44.

إن الإرادة القوية هي ذات العزيمة التي تتخذ الموقف في قضية من القضايا ويكون الرأي فيها صائباً بعد اتخاذ القرار، وعندما تتصف الشخصية بهذا النوع من الإرادة فإنها تحقق أهدافا خارجية ليست لها علاقة بالقضايا التي تجزم الإرادة فيها الموقف، وإنما هي أهداف معنوية تنتزع من أفراد المجتمع على رضا منهم، وهذه الأهداف التي تحققها الإرادة إنما سميناها منتزعات الإرادة لأنها تنتزع من نفوس الآخرين قياسا للمواقف الإرادية التي حقق صاحب الإرادة أهدافه، ومن أهم هذه المنتزعات:

1- الاعتبار: يعطي أكثر من مفهوم، حيث أن العبور بداية هو المجاوزة من قضية جزئية إلى قضية كلية، من خلال النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها، وعلى هذا يكون التعبير نقل الفكرة من الذهن إلى الواقع، وهي قدرة على التبصر بالأمور لاستخلاص العبرة، ولما كانت هذه الخاصية لصاحب الاعتبار أصبح له اعتبار في نفوس الآخرين، إذ ليس كل إنسان يمتلك خاصية الاعتبار، لأنه من متممات الإرادة السليمة، علما أن كل إنسان يمتلك إرادة، غير أن هذه الإرادة إذا لم تعزز بالاعتبار لا تصل إلى درجة الحزم، وإنما غالبا ما ينتابها التردد لحظة اتخاذ القرار.

وعلى هذا فإن من يمتلك الاعتبار له مكانة خاصة ليست لغيره بسبب ما يعرف عنه من قوة الإرادة، لذلك وجب على الآخرين اعتباره في مكانة ليست لأحد في نفوسهم هذا من جانب، وأما من جانب آخر من مفهوم الاعتبار، فإنه أصبح عبرة للآخرين، أي يأخذون من تجربته ما يعتبرون بها كون هذه التجربة غنية بالايجابيات لمواقف الإرادة وبهذا يتحقق الاعتبار.

والاعتبار لا يتحقق إلا بالنزوع الذي يأخذ اتجاهين:

أ- نزوع عن الغضب والشهوة والتسرع والتردد دوما إلى ذلك من الأشياء التي ترغبها النفس الأمارة مما يعدل بها عن إنسانيتها إلى الشهوانية، فالذي يمتلك هذا النزوع يصبح له اعتبار، فهو قدوة يحتذى، وكذلك هيبة تقتدى لأنها ترفعت عن الدنايا.

ب- نزوع إلى الحكمة والحلم والأناة التي تحقق فيها النفس مصالحها وتصلح بها النفوس الأخرى وهو النزوع باتجاه الفضيلة التي هي أهم أسباب الاعتبار في نظر الآخرين.

وعليه فالاعتبار طرفي الحوار في حالة مساواة، وأن كل منهما في حاجة للآخر، وأنهما لن يكونا مثالا ما لم يعملا معا، وأن لكلاهما طاقات وإمكانات لا يمكن الاستهانة بها، ولذا في حالة الاختلاف والفرقة قد يضر كل منهما بالآخر، ولكي تعم المنفعة ويزول الضرر يجب أن يتم الحوار المحقق للاعتبار. {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهد بانّا مسلمون}489. والكلمة سواء هنا تعني كلمة الحق التي نستوي أمامها بالطاعة باعتبار المتحاورين أو المستهدفين بالحوار هم الإبراهيميين. إذن الاعتبار أن تجعل لي مكانة عندك ونجعل لك مكانة عندي، وأن لا يستهين بعضنا ببعض أو يسخر منه.

2-الاحترام:

إن الاعتدال في النظرة للأشخاص هو من استقرار الإرادة، والاعتدال إنما هو إعطاء كل فرد حقه عند التعامل معه، فإنه حين يصل الأمر إلى هذا المستوى من عدم التفرقة في التعامل، فإنك تحظى باحترام هؤلاء في نظرتهم إليك وإن خالفتهم الرأي، والسبب في ذلك أن النفس الإنسانية حتى وإن واجهتها بما تكره من الحق وأبدت رفضا ظاهريا، فهي تقر في الباطن بأحقية ما تقول أنت، ولكن يصعب عليها التصريح بذلك حفاظا على استقلالية هذه النفس وإثبات وجودها كمؤثر في الآخر، إلا أنها تكن لك الاحترام في داخلها ما لم توجه إليها إساءة وإن خالفتها في الرأي، وهذا رفض للموقف ظاهريا، مع بقاء الاحترام الشخصي في الباطن.

إن معظم أفراد أي مجتمع، يرى أن أفضل قدوة له، من يتملك معظم مقومات الإرادة التي تكون محط الأنظار، فهو موضع الاحترام بالنسبة لهم، ومن ثم يسعى أفراد هذا المجتمع إلى تقليدها للوصول لمكانتها، فيبدأ بعملية التقرب منها، بحيث يجعل التعبير لها عن الإعجاب بها ستارا يوصله إليها، ومن هنا نرى ظهور القدوة الحسنة التي هي موضع الاحترام، لأنه قائم على احترام الآخر في الحوار والمنطق وطريقة التفكير في استقبال رأي الآخر والرد عليه بما يتقبله بصرف النظر عن قناعة الآخر أو عدمها، ولكن هناك حدود لا يتخطاها

---

489 آل عمران 65.

بحيث يحافظ على ديمومة الحوار فيترك فسحة لتقليب الرأي والنظر في الأمور عند الآخرين كما قال تعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[490] لأن العاقل يعلم منهج المعرفة من خلال التأمل الفكري الدقيق لميول النفس ورغباتها وأهوائها، فيتعامل معها وفق معرفته من حيث إظهار خطئها بطريقة لا تمس الشخصية ، ويجعله تقر بهذا الخطأ وتستبدله بالصواب دون أن يجرح مشاعرها ويبقي لها احترامها، فينال احترام الآخرين.

3- الاعتراف:

هو إقرار بما تعتقد بحيث ينقاد القلب واللسان والجوارح إلى ذلك الاعتقاد، وهذا الانقياد هو اعتراف منك، لا يكون إذعانا لقوة قاهرة للإرادة، وإنما هو صادر عن إرادة موقنة بحق هذا الانقياد اعترافا بحقائق معنوية أو قيم سامية تنتج عن ممارسة أفعال تلك الحقائق المعبرة عن جوهرها من قبل من يتصف بها، و مشاهدة النتائج المادية من قبل المعترف أدت إلى يقين القناعة بالاعتراف لصاحب تلك النتائج.

والاعتراف لا يكون للقضايا المادية الناتجة عن ممارسة القيم المثلى من قبل حاملها، ذلك أنها معروفة ومعترف بها .ولكن وجوه الخلاف تكون دائما على القضايا المعنوية، وعندما أقول أنا أعترف بفلان بكذا، أو أن فلانا انتزع اعترافا مني. فهذا الاعتراف ينصب على ما تحمل الشخصية من سجايا فضيلة لها المكانة العالية في نفوس أفراد المجتمع .قلما نقف عليها عند الآخرين.

ويتحقق هذا الاعتراف من الآخرين بمعطيات معنوية عن طرق إعمال العقل، لأنه لا سبيل إلا إدراك ذلك عن طريق الحواس، فالخير والحق والعدل والفضائل جميعها، إنما هي قضايا يدركها العقل بالشخص الذي يحمل هذه الخصائص. إذ لا سبيل لإدراك حقائقها إلا عن طريق الحدس، وإن كنا نقف على نتائجها عن طريق الحس من خلال ممارسات من يحمل

---

490 - النحل 125.

هذه الخصائص، فإننا نحكم عليه بالفضيلة اعترافا من خلال العقل، وبذلك ينال اعترافنا إقرارا منا بفضله، وعلى هذا يكون الاعتراف للأخر منتزعا انتزاعا.

الحصول على الاعتراف هو نتيجة استحواذ الشخص على مجموعة من الفضائل عن طريق الاختيار يحتاج إلى نوع خاص من الإرادة كي يمارس هذه الأخلاق. و بالتالي فإنه يدفع الآخرين لإعمال العقل من أجل استبصار تلك الصفات التي تستعصي على الوصف، وتكون المعرفة بها عن طريق الحدس، و المعرفة بها احترازا عن نتائجها، لأن نتائجها مادية حسية، بينما هي نفسها حدسية، فالكرم مثلا نستشعره حدسيا ونقف على نتائجه حسيا. فممارسة الفضيلة للاختيار الصحيح عن طريق الإرادة أدى إلى انتزاع الاعتراف .

فالاعتراف منطق التسليم بالحقيقة، وهو حاجة لكل إنسان على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي، ومن لم يتم الاعتراف بوجوده وبإمكاناته، وبقضيته، سيكافح حتى يحقق هدفه، وهو تحقيق الاعتراف من قبل الآخر.

إرادة المؤمن وسبل تحقيقها:

لاشك أن المؤمن الحق هو الحريص على القيام بما أمره الله على أكمل وجه بحيث يكون أنموذجا قادرا على التأثير في جموع من حوله على اختلاف قناعاتهم واتجاهاتهم، ولا يحدث ذلك إلا عن طريق تحقيق إرادته، لأنه بتحقيق الإرادة يحدث التغيير، فالإرادة قوة في النفس تمكن من اعتماد أمر ما وتنفيذه[491]. وبخلافه سيكون الإنسان عبارة عن كيان مهمل يمكن الاستغناء عنه بسبب هامشية الدور الذي يرغب هو بالقيام به، حيث سيكون عمله عبارة عن تقليد لآخر أو تكرار لسابق وفي الحالتين عجز واضح عن تحقيق إرادة المؤمن في التأثير الموجب.

وتحقيق الإرادة عند المؤمن المستخلف يهدف إلى التغيير في الآخر الممثل في ثنائية الأرض والإنسان، وهذه هي في الحقيقة ثنائية الاستخلاف التي قام عليها أمر الاستخلاف، {وَإِذْ قَالَ

---

491 معجم لغة الفقهاء ج1، ص 53.

رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[492]، تغيرا بأبعاد مختلفة (انجاز، اختيار، ترك)، وهذا لا يتأتى للإنسان إلا بالفهم الحقيقي لطبيعة العلاقة التي تربطه بالآخر وتبعا لتجربته الأمر الذي من شأنه تحصيل الفهم المطلوب.

وبتحقيق الإرادة ترتقي مراتب الإنسان المؤمن في الدنيا بأن يعتلي صهوة الإبداع والتألق فيكون عمّاراً للأرض لأنه مستخلف، وفي الآخرة بأن ينال ما وعده ربه جل وعلا إن هو قام بأمر إعمار الأرض كما أمره من غير إفساد أو سفك للدماء .

فعلى الإنسان أن يعي أن حقيقة وجوده في الواقع مرتبطة بقدرته على إثبات إنسانيته المتمثلة بتحقيق الإرادة عن وعي، ويجب أن يكون أول وجه من وجوه تحقيق الإرادة هو رفض الإنسان القاطع للتخلي عن دوره في الاستخلاف بل عليه أن يتشبث بهذا الدور ويجتهد للقيام به ما أستطاع.

ومحققوا الإرادة هم الخلفاء، وذلك يتم بحرصهم الشديد على الاهتداء بصفات خالقهم الذي استخلفهم فيتحلون بالعقل وبالقوة وبالفعل وبالسمع وبالبصر وبالفؤاد لأنها أدواتهم لتحقيق الإرادة، هذه الصفات وغيرها تجعلهم قادرين بشكل أكبر على التأثير في الآخر (الأرض والإنسان) مما يحدث التغيير المنشود لغاية الاستخلاف وهو إعمار الأرض ماديا ومعنوياً، - ماديا بأن يُنشأووا الحضارات التي تُسّهل على الإنسان استعمار الأرض.

- ومعنويا بأن يعمروا القيم المثلى في نفوس الناس لينتشر العدل والإصلاح ويختفي الظلم والإفساد.

"والإرادة صفة توجب للحي حالاً يقع منه الفعل على وجهٍ دون وجه"[493]. ومصدرها الوعي على وجه التحديد ، فكل ما صدر عن شهوة أو أمنية فهو ليس من الإرادة في شيء[494] لأنها ترتبط بالغريزة.

---

492 البقرة 30.

493 التعريفات ، الجرجاني ج1ص 4.

494 الفروق اللغوية ج1ص 36.

وترتبط الإرادة بالحاضر وبالمستقبل، أما الماضي فله الحسرات للسالب، {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}[495]، والمسرات للموجب، {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}[496].

وفي ضوء ذلك يمكن القول أن الإرادة من شؤون الدنيا حيث لا إرادة في الآخر إلا لله الواحد القهار، وعلى الإنسان أن يفهم أن تحقيق الإرادة موقوتة بأمرين هما:

1- مشيئة الله وهو أمر نص عليه الخالق عز وجل على وجه التحدي للكفرة به وعلى سبيل التسلي والتهوين لعباده المؤمنين، {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}497، "والمشيئة عبارة عن تجلي الذات والعناية السابقة لإيجاد المعدوم أو إعدام الموجود"[498]، فإذا كان الأمر كذلك تتحصل استنتاجات على مستوى الإرادة البشرية مفادها:

-كل إرادة بمشيئة.

- لا إرادة من غير مشيئة.

- المشيئة أصل.

- الإرادة فرع.

2- الفناء الدنيوي، معلوم أن إرادة الإنسان مرتبطة بحياته فزمنها محدود وموقوت بميقات الحياة، أما بعد الموت فلا إرادة لإنسان، يقول الحق موضحا صورة الإنسان آنذاك: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}[499]، "وذلك لأن الملائكة أعظم المخلوقات قدراً ورتبة ، وأكثر قدرة ومكانة، فبين أنهم لا يتكلمون في موقف القيامة إجلالاً لربهم وخوفاً منه وخضوعاً له ، فكيف يكون حال غيرهم"![500].

---

495 البقرة 167.
496 الحاقة 21-24.
497 التكوير 29.
498 الفروق اللغوية ج1ص 71.
499 النبأ 38.
500 تفسير الرازي ج16ص309.

وإذا عرفنا ذلك وجب أن نصل إلى حقيقة أن كل تفصيلات إرادة الإنسان التي ذكرنا وسنذكر إنما هي في حدود ما ذكرنا (المشيئة والحياة)، لان إرادة الله الفعل لا غير، يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا قول: ولا نطق بلسان، ولا همة ولا تفكر، ولا كيف لذلك، كما أنه لا كيف له[501].

ولذا فإن الإنسان المؤمن بدوره خليفة واجب عليه السعي لتحقيق إرادته وذلك من التفاعل مع الأمور للوصول إلى مُحققات الإرادة وهي:

أولاً: الاختيار: وهو أخذ ما هو خير، كقوله تعالى: (واخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ)؛ والاختيار تكلف ما هو خير[502]. والاختيار الإرادي غالبا ما يكون بعد تأمل ونظر في المتباينات والمتوافقات للخلوص إلى الحق الحقيق بالاختيار ، أو الأفضل الجدير بالتقديم ، أو الأحسن الأنسب للعمل. وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

1- اختيار الحق، وهو اختيار محض أوجبته حقيقة المُختار وأحقيته في ذاته، فهو لا على سبيل المفاضلة لانتفاء الفاضل، فاختيار سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن عن طريق المفاضلة -حاشا لله- بل هو اختيار للحق بالمطلق ورد الباطل مطلقا، يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}503. والمعنى: "مثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره. ملكوت السموات والأرض: يعني الربوبية والإلهية ونوفقه لمعرفتها ونرشده بما شرحنا صدره وسدّدنا نظره وهديناه لطريق الاستدلال. وليكون من الموقنين وكان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم

501 الفروق اللغوية ج1ص36.
502 الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ج1ص 131.
503 الأنعام 75-79.

علـى الخطـأ فـي ديـنهم ، وأن يرشـدهم إلـى طريـق النظـر والاسـتدلال، ويعـرفهم أن النظـر الصحيح مؤدّ إلى أن شيئاً منها لا يصحّ أن يكون إلها، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، مدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها (هذا رَبّـى) قـول مـن ينصـف خصـمه مـع علمـه بأنـه مبطـل ، فيحكـي قولـه كمـا هـو غيـر متعصب لمذهبه . لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطلـه بالحجـة (لا أُحِبُّ الأفلين) لا أحـبّ عبـادة الأربـاب المتغيـرين مـن حـال إلـى حـال، المتنقلين من مكان إلى آخر، المحتجبين بستر، فإنّ ذلك من صفات الأجرام (بَازِغاً) مبتدئاً في الطلوع (لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبّى) تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلها وهو نظير الكوكب فـي الأفـول ، فهـو ضـال ، وأنّ الهدايـة إلـى الحـق بتوفيـق الله ولطفـه (هـذا أَكْبَرُ) مـن بـاب استعمال النصفة أيضـاً مـع خصـومه (إِنّـى بَرِىء مّمَّا تُشْرِكُونَ) من الأجرام التـي تجعلونهـا شـركاء لخالقهـا (إِنّـى وَجَّهْـتُ وَجْهِـىَ لِلَّـذِى فَطَـرَ السـماوات والأرض) أي للـذي دلـت هـذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها. وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه، فحكاه الله"[504].

وأهل الكهف اختاروا حقا حقيق بالاختيار كما يصفهم المولى عز وجل: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا}[505]، فزدنـاهم هدى بان ثبتنـاهم على الدين الحق وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه.

و سماهم باسم الفتوة لأنهم آمنوا بالتحقيق لا بالتقليد وطلبوا الهداية من الله إلى الله بالله ولكنـه طلبوا الهداية في البداية بحسب نظرهم وقدر همتهم فالله تعالى على قضية « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا » زاد فـي هداهم فضـلا منـه وكرمـا كمـا قال (وزدنـاهم هدى) أي زدنـا علـى متمنـاهم فـي الهدايـة فإنهم كـانوا يتمنـون أن يهديهم الله إلـى الإيمـان بـالله وبمـا جـاء بـه الأنبيـاء وبالبعث والنشور وإيمانـا بالغيب فزاد الله علـى متمنـاهم فـي الهدايـة حين بعثهم من

504 تفسير الزمخشري ج2ص 137.
505 الكهف 13-14.

رقدتهم بعد ثلاثمائة وتسع سنين وما تغيرت أحوالهم وما بليت ثيابهم فصار الإيمان يقينا والغيب عينا وعينا[506].

وأمثلة الاختيار الحق على مستوى الإنسان أكبر من أن تحصر بل يكاد يكون هو القاعدة العامة لدى الشعوب، ففي قراءة شاملة لاختيارات المجتمعات الإنسانية لنظمها نجد توخي الحق المستمد من الخالق واضح وجلي في مسيرة المجتمعات، فالعدل مثلا نظام اختارته المجتمعات الإنسانية في كل بقاع الأرض وباتفاق جمعي في الوعي واللاوعي، في الوعي من خلال النظم التي أقرتها ، وفي اللاوعي من خلال تشكل صورة مشوهة وقبيحة للظلم .

إن قراءة في ماهية الأخلاق الإنسانية وطبيعة اختيارها للقيم وتوحدها في المجتمعات المختلفة تاريخيا وفكريا وعقديا تؤدي إلى نتيجة مؤدها أن مصدر هذه القيم واحد، ولاشك أنه الحق، لأنها وجدت فيه ما لا مفاضل يفاضله، فطبيعة الاختيار لم يكن خياراً تفضيلاً وإنما خيارا حتميا تبعاً لتجربة متحققة.

2- اختيار التفضيل، والتَّفاضُل بين القوم أَن يكون بعضهم أَفضَل من بعض ورجل فاضِل ذو فَضْل ورجل مَفْضول قد فَضَله غيره ويقال فَضَل فلان على غيره إذا غلب بالفَضْل عليهم[507]، قال تعالى: {وفَضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تَفْضِيلاً}[508]، وفَضَّلته على غيره تَفْضِيلاً إذا حكَمْتَ له بذلك أَو صيَّرته كذلك[509].

فالمفاضلة هي اختيار تفرضه الكينونة، فالفاضل بين التفاضليين موجود في كينونة الفاضل دون المفضول، يقول الحق جل وعلا: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِيءتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}،

---

506 تفسير حقي ج7ص327.

507 لسان العرب ج11ص 524.

508 الاسراء 70.

509 لسان العرب ج11ص 524.

والتقدير واختار موسى قومه لميقاتنا وأراد بقومه المعتبرين منهم إطلاقاً لاسم الجنس على ما هو المقصود منهم وقوله (سَبْعِينَ رَجُلاً)عطف بيان[510].

3- اختيار الأحسن: في هذا الاختيار يكون طرفي الاختيار على درجة من التطابق الكلي في الأصل مع استحسان في أحد على الآخر، يقول الحق سبحانه وتعالى: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}511، فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ أي فالإخفاء خَيْرٌ لَّكُمْ من الإبداء، و خير لكم من جملة الخيور512، وكذلك الأمر بالنسبة لآية صيام المسافر والمريض، {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[513]، أنه تعالى ذكر حكم المريض والمسافر في هذه الآية ، ثم ذكر حكمهما أيضاً في الآية التي بعد هذه الآية الدالة على صوم رمضان، فلو كان هذا الصوم هو صوم رمضان، لكان ذلك تكريراً محضاً من غير فائدة وأنه لا يجوز الثالث : أن قوله تعالى في هذا الموضع : (وَعَلَى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ) يدل على أن الصوم واجب على التخيير، يعني: إن شاء صام، وإن شاء أعطى الفدية"[514].

وعليه يكون الاختيار تفضيل الشيء بدلا من غيره، وأصل الاختيار الخير، فالمختار هو المريد لخير الشيئين في الحقيقة أو خير الشيئين عند نفسه من غير إلجاء واضطرار ولو اضطر الإنسان إلى إرادة شيء لم يسمى مختارا له لان الاختيار خلاف الاضطرار515.

و"المختار في عرف المتكلمين يقال لكل فعل يفعله الإنسان لا على سبيل الإكراه، فقولهم: هو مختار في كذا، فليس يريدون به ما يراد بقولهم فلان له اختيار؛ فإن الاختيار أخذ ما يراه خيرا"516.

---

510 تفسير الرازي ج7ص259.
511 البقرة 271.
512 تفسير الالوسي ج2ص 366.
513 البقرة 184.
514 تفسير الرازي ج3ص85.
515 الفروق اللغوية ج1ص28.

وقد يكون الاختيار عن عدة طرق منها:

1- القناعة: وهي الثبات عند عدم المألوفات[517]. فالقناعة في اللغة هي الرضا، وهي من أسباب الاختيار الإرادي، يقول ربي سبحانه: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[518]، فالقانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال[519].

2- القبول ويقع حكمة ومصلحة، من أمثلته الصلح مع الآخر فإذا كان في الصلح حكمة ومصلحة وجب القبول به كما فعل رسولنا الأكرم بأمر ربه العزيز الحكيم، {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[520]. أما إذا كان في الصلح مذلة ومهانة فلا يجب على الإنسان اختياره على وجه القبول ولا على أي وجه لم يأمر الله به، يقول الحق سبحانه وتعالى: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}[521].

3- الاهتداء ويختص بما يتحراه الإنسان على طريق الاختيار؛ وإما في الأمور الدنيوية، أو الأخروية قال تعالى: {هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها}[522] .

4- التوطين فمن وجوه الاختيار توطين النفس على الشيء ويقع بعد الإرادة له ولا يستعمل إلا فيما يكون فيه مشقة ألا ترى أنك لا تقول وطن فلان نفسه على ما يشتهيه[523]. والمؤمن الحق هو من وطن نفسه على طاعة ربه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالمداومة على الطاعات كما وصفهم ربهم المولى عز وجل: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ

---

516 مفردات ألفاظ القرآن الكريم ج1ص 325.
517 التعريفات ج1ص57.
518 الحج 36.
519 تفسير الزمخشري ج4ص292.
520 الأنفال 60-61.
521 محمد 35.
522 الأنعام 97.
523 الفروق اللغوية ج1ص 147.

فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ}[524].

ثانيا: الانجاز: وهو مراعَاةُ الوَعْد، والإنْجازُ في الفِعْل كالصِّدْقِ في القَوْل[525]، فالانجاز في الحقيقة هو بلغ لهدف محدد معلوم وله أدوات منها:

1- العزيمة، وهي عبارة عن الإرادة المؤكدة، قال الله تعالى: {ولم نجد له عزماً}[526]، أي لم يكن له قصد مؤكد في الفعل بما أمر به[527]. والعزيمة تحتاج الجد والاجتهاد يقول الحق مخبرا عن أنموذج أصحاب العزم: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}[528]، "والعزم يطلق على الجد والاجتهاد في الشيء وعلى الصبر عليه"[529]

2- القدرة، وهي الصفة التي تمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة وهي على أنواع منها

- القدرة الممكنة وهي عبارة عن أدنى قوة يتمكن بها المأمور من أداء ما لزمه، بدنياً كان أو مادياً، وهذا النوع من القدرة شرط في حكم كل أمر، احترازاً عن تكليف ما ليس في الوسع.

- القدرة الميسرة: ما يوجب اليسر على الأداء، وهي زائدة على القدرة الممكنة بدرجة واحدة في القوة، إذ بها يثبت الإمكان ثم اليسر، بخلاف الأولى إذ لا يثبت بها الإمكان، وشرطت هذه القدرة في الواجبات المادية دون البدنية، لأن أداءها أشق على النفس من البدنيات، لأن

---

[524] المعارج 23-35.
[525] تاج العروس ، الزبيدي ج1ص 3281.
[526] طه 115.
[527] التعريفات ، الشريف الجرجاني ج1ص48.
[528] الاحقاف 35.
[529] تفسير الالوسي ج19ص24.

المال شقيق الروح، والفرق بين القدرتين في الحكم: أن الممكنة شرط محض، حيث يتوقف أصل التكليف عليها، فلا يشترط دوامها لبقاء أصل الواجب[530].

3- التَمَكن قوة للانجاز، فالأمر المراد تحقيقه يحتاج ولا شك إلى تمكن يعطي المحقق للإرادة سلطان وسيطرة علة هذا الأمر. ومعلوم أن تمكن الإنسان نسبي والى ذلك أشار الحق المتمكن المطلق بقوله: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُون}[531]

ثالثاً: الترك: الترك عند المتكلمين فعل أحد الضدين اللذين يقدر عليهما المباشر وقال بعضهم كل شيئين تضادا وقدر عليهما بقدرة واحدة مع كون وقت وجودهما وقتا واحدا وكانا يحلان محل القدرة وانصرف القادر بفعل أحدهما عن الآخر سمى الموجود منهما تركا وما لم يوجد متروكا، والترك عند العرب تخليف الشيء في المكان الذي هو فيه والانصراف عنه532. كما في قول الله جل وعز: (وَتَرَكْنَا عليهِ في الآخِرِين) أي أبقينا عليه ذكراً حسناً533. وبالترك تتحقق الإرادة لاسيما إذا كان المتروك مما له حظوة في النفس أو أثر في الجسد ويتجلى ذلك وبأوضح الصور ترك الصائم الأكل والشهوة في رمضان وهي صورة عظيمة لمحقق الإرادة لذلك لم يرد نص قرآني صريح عن أجر الصائم لعظمة هذا الأجر وخصوصيته، وقد بين لنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ذلك فقَالَ:" كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِى بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِى لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ"[534].

كذلك فإن ترك الإنسان ما عند الغير رغبة لا رهبة غنى لان الترك رغبة في الحقيقة هو نوع من الغنى[535]، أما الترك رهبة فهو خوف أو ضعف لا إرادة فيه، وعليه فإن الترك

---

530 التعريفات ج1ص 55.
531 الزمر 39.
532 الفروق اللغوية 124/1.
533 تهذيب اللغة ، الأزهري ج3،ص347.
534 صحيح مسلم ج3ص 158.
535 جامع الرسائل ، ابن تيمية ج1ص 294.

ضربان، ضرب على سبيل الاختيار[536] وفيه تحقيق لإرادة حقيقة بالإعجاب والاقتداء ولنقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: { وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[537]، فالإيثار هنا ترك على سبيل الاختيار مع حاجة للمتروك وهو أعلى صور الترك . وضرب على سبيل الإجبار وهو ما لا إرادة فيه وذلك لأنه محكوم بإرادة الغير، وكل ما محكوم بإرادة الغير لا إرادة فيه.

الهداية والضلال وتعلقهما بالإرادة البشرية:

هيأ الخالق عز وجل الإنسان للاستخلاف في الأرض ولم يتركه عبثاً في سبل الضلال والظلام، بل أنار نفسه بالإيمان والوعي بما يحيط به من خير وشر، وبعدها ترك للإنسان قيادة هذه الإرادة باتجاه أي منهما، قال تعالى: {قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}538 ، وقال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}539، خلق الله تعالى الخلق جميعاً بإرادته عز وجل وجعل لكل منهم عقلا وهيأ سبل الهداية لهذا العقل لأن يكون الخليفة في الأرض، فمن كان مريداً ذلك عمل عليه ومن كان غير ذلك كان مريداً للفساد والضلال.

إرادة الإنسان في اختيار طريق الخير أو الشر:

لم يرد الله تعالى من الخليفة إلا فعل الخير والرشاد ودليل ذلك إرسال الرسل لتوضيح طريق الخير من الشر، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ

---

536 النشأتين وتحصيل السعادتين/الراغب الأصفهاني ج1ص20.

537 الحشر 9.

538 البلد 4- 10.

539 الإنسان 1- 5.

وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}540، فطريق الخير إذاً واضحة لدى الخليفة وكذلك طريق الشر، فيتهيأ الخليفة لأفعال الخير وتكون لديه الإرادة لفعل الفعل ل يوفقه الله تعالى لهذا الفعل حيث أنه يتخذ الخليفة قراره بفعل الفعل بتيسير من الله تعالى فيباشر بعد ذلك بالاستعداد من أجل القيام بهذا الفعل الذي تهيأ له مسبقاً وتأكدت إرادته للقيام به ليستعد له، وفعل الخير ييسر له المولى عز وجل السبل لنجاحه لأنه تعالى مريد له، لذلك فإن إرادة الخليفة واتجاهه للخير يتوافق مع ما أراده الخالق عز وجل ، قال تعالى: { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ }541 فهي بهذه المخالفة تُبعِد الإنسان عن توفيقه تعالى وذلك من شأنه أن يضعفها ويحط من شأنها، فلا قوة إلا بعون الله وموافقته ولا ضعف إلا بالبعد عن الخير الذي أوصانا الله به ، فرسالة الإنسان على الأرض كانت ومازالت وستظل هي نشر الخير والحفاظ عليه وإصلاح الأرض وإعمارها .

وقد أوجد الله هذه الإرادة ومنحها للبشر وترك توجيه هذه الإرادة على عاتق الإنسان نفسه حسب تهيئه النفسي تجاه كل من الخير والشر، فإذا تهيأ الإنسان لفعل الخير تكونت لديه طاقة تدفعه للاستعداد له بكل الإمكانيات المتوفرة لديه، وإذا تهيأ الإنسان للشر تكونت لديه هذه الطاقة للاستعداد له.

أثر الإرادة في الإنسان

الإرادة من مكونات شخصية الإنسان وهي قابلة للقوة والضعف حسب معطيات عديدة منها الاقتناع بالفكرة والثقة بنجاحها والرغبة في الوصول، ويحضرني هنا في هذا المجال شخصية بلال بن رباح رضي الله عنه، فبإرادته الصلبة استطاع أن يصل إلى ما أراد، فما الذي جعل بلال يتحمل عذاب الكفار وجعل لجسده قوة تتحمل صخرة ثقيلة لا يتحملها الكثير من البشر؟

---

540 النساء 170.

541 النساء 79.

بلال تهيأ لأن يكون مؤمناً بالله تعالى وبهذا التهيؤ توجهت إرادته تجاه الصمود والثبات مع إدراكه وعلمه بما سيكون من العذاب فاستعد بالصبر للوصول لهدفه وهو البقاء على الإيمان. ولكي تكون الإرادة فاعلة يجب أن تكون إرادة على قدرٍ من الوعي الذي يخطط لهذا الهدف ويحدده بما يتناسب مع طموحات الخليفة ، فالوعي منذ البداية بكل خطوة وبأساس ما تهيأنا له سبب قوي في نجاح ما نريد ونيله، ولنا في سيرة سيد الخلق محمد – صلى الله عليه وسلم– أعظم أسوة وأفضل مثل ، حيث تتمثل الإرادة الواعية والقوية والمؤمنة بهدفها في كلماتٍ خرجت منه في قوله رداً لعمه على طلب كفار قريش بالرجوع عن دعوته متخذين الأغراء والتهديد رديفين لهذا الطلب: " فَقَالَ رَسُول الله صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَا عَمّ ، وَاَللّهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ "542.

فإيمانه–صلى الله عليه وسلم– بالقضية وبرسالته جعلت من إرادته أنموذجا قادراً على مواجهة العالم بقوته وجبروته واستطاعت هذه الإرادة بتوفيق الله تعالى أن تنتصر وتصل إلى هدفها، فالإرادة القوية تعوّد الخليفة على الصبر وفي الصبر مفاتيح الوصول إلى ما نريده.

وهذا يعتمد أيضاً على درجة وعي الخليفة التي تتناسب طردياً مع قوة الإرادة، وهذا يتضح في الخليفة على الأرض فكلما كان وعيه أكبر برسالته في الأرض كانت إرادته لأداء هذه الرسالة أكبر وأقوى وهذا هو السبب في اختلاف البشر من هذه الزاوية، فمنهم من كان أميناً ومنهم من تردد ومنهم من أهمل هذه الرسالة التي رفضت الجبال والأرض بأرادتهما أن يحملانها فأراد الإنسان حملها وتهيأ لذلك، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }543، بهذه الأمانة تحمّل الإنسان المسؤولية وتطلبت إرادة قوية للعمل على أدائها.

وعندما يصل الإنسان إلى القناعة بتحقيق الهدف وضرورة التحمل من أجل الوصول إليه، والقناعة لا تحصل إلا إذا توفر الوعي الكامل بالموضوع المراد الوصول إليه، فعندما تتبلور

542 سيرة ابن هشام ج1،ص266.
543 الأحزاب 72.

مفاهيم أو فكرة داخل العقل البشري تأتي الإرادة لتحدد ما تحتاجه هذه الفكرة من قوة وتصميم وصبر لتشكل الفعل المراد حدوثه، والحمد لله بإرادتنا كتبنا عن الإرادة.

الاستعداد

الاستعداد هو تجميع القوة وتأهبها للمواجهة والعمل مع اخذ الحيطة من الوقوع في الفشل أو الغفلة، ولا يكون إلا من أجل أهداف قابلة للتحقيق. ويعرَّف بأنه "كون الشيء بالقوة القريبة أو البعيدة إلى الفعل"[544].

والاستعداد تجميع قوة وتحديد قدرة وتسخير وسيلة لأداء فعل وإنجاز هدف وتحقيق غرض وبلوغ غاية.

وهو استمداد القوة المعنوية والمادية من مصادرها بوسائلها، وتحديد دلالة كل مفردة من المفردات، مع اختيار الأجود والأنسب لأداء الفعل مع مراعاة الظرف الزماني والمكاني.

- وقد يتساءل البعض: الاستعداد لمن وممن؟
- الاستعداد لأداء الفعل من الفاعل المتهيئ الذي امتلك الإرادة بتجميع متطلبات الاستعداد لأجل تحقيق أهداف واضحة ومحددة.

والاستعداد هو المرحلة التي يتم فيها إعداد العدة وحصر الإمكانيات بعد دراسة وافية وخطة محكمة لتنفيذ الفعل.

وعليه فمن الأهمية بمكان أن ننوه إلى أن الاستعداد يشمل ثلاثة مفاهيم، وهو يغلب عليها مع وجود الصلة الملاصقة بينها من ناحية، والفرق البيّن من ناحية أخرى، فنجد المفاهيم الثلاثة تجتمع على الجذر اللغوي وتتفرق في المعني الدلالي، وهذه الألفاظ :

- العدة.
- الاستعداد.

---

[544] التعريفات ج 1، ص 5.

- الإعداد .

والصلة بين المفاهيم الثلاثة واضحة وضوحاً لا شك فيه، أما الفروق التي تكمن في ثنايا كل كلمة فيمكن أن نبسطها في الآتي:

-العدة:

وهي استحضار القوة المادية بأدواتها التي تُمكِّن من أداء الفعل، وهي مجموعة الوسائل التي يستعين بها الإنسان ليتوجه إلى ما يمكن أن يحدث في دائرة المتوقع وغير المتوقع.

فما يعده الإنسان لحوادث الدهر من مال وسلاح لمواجهة ما يهدده، لكي يتمكن من أداء فعل يجلب له نفعا أو يدفع عنه ضررا يسمى العُدة.

- الاستعداد:

يتشعب في عدة مناح ولا يتفرق، لأنه يتجمع في نقطة مركزية واحدة كأن الشمس قد بعث بأشعتها لتتفرق في الكون، مع كونها مجتمعة في نقطة المركز، وعليه سنجد أكثر من معنى للاستعداد وهذه التعدد تعدد ائتلاف لا اختلاف .

-الإعداد:

وهو الذي يُمكِّن من ممارسة الفعل بنجاح ويمنح المستعد الكفاية، وهو تدريب عملي على استخدام ما امتلكه المستعد من عدة تعينه على جلب نفع أو دفع ضرر.

والعلاقة وثيقة بين الاستعداد والفعل، فلا يقدم على الفعل إلا المستعد بإعداد جيد.

"فمثلا الخطيب إذا خرج للخطبة كان مستعدا لها، والمستعد للشيء كالشارع فيه، ولهذا ألحق الاستعداد بالشروع في أمر الصلاة"545.

وعلى كلٍّ فالاستعداد يستوجب اجتماع النية وتمام القصد في أداء الفعل مع تحمّل نتائجه سلبا وإيجابا، وهذا يجعل (الاستعداد) من الرسوخ في القلب بمكان، فإذا امتلك المرء أدوات الاستعداد أقدم على فعل منجز عنده وغير متوقع الانجاز عند غيره، لأن أي عمل لا ينجزه

545 خطبة الجمعة وأحكامها الفقهية ج 1 ، ص 238.

صاحبه فهو فشل وهذه الكلمة غير واردة عند من تهيأ واتخذ القرار بإرادة وأعد عدته فاستعد، فما يتبقى لديه إلا الإنجاز وفق دائرة المتوقع وغير المتوقع.

والاستعداد تحفز ذاتي عقلي ونفسي واستحضار الأسباب المادية التي تؤدي إلى نجاح الفعل بعد اتخاذ الإرادة قرارها، في تأمين هذه الوسائل والأدوات من التنظيم وحساب الزمن والجهد، والاستعداد العقلي والفكري والنفسي والمادي، فكل هذه الأمور تدخل في مجال الاستعداد العام للحدث، قال تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}[546]، ففي هذه الآيات الكريمات إشارة صريحة إلى الاستعداد من وجوه شتى لأمور كثيرة، فوجوه الاستعداد هي عقلية ونفسية ومادية، وأما الأمور التي أشارت إليها الآيات بأخذ الاستعداد لها، فهي السفر وملاقاة العدو والمرض والمطر.

فالضرب في الأرض أو السفر بعقد النية، يوجب قصر الصلاة، وهذا القصر أحد أوجه الاستعداد للسفر، إن خفتم أن يتعرض لكم عدوكم بما تكرهون من القتال وغيره فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة.

وأما الاستعداد أثناء الصلاة فقد أمر به الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام (فلتقم طائفة منهم معك) بجعلهم طائفتين واحدة تصلي، وتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو استعدادا للحراسة، وحتى الذين يصلون يأخذون أسلحتهم استعدادا لا يضعونها ولا يلقونها، فإذا أتموا صلاتهم، أخذوا موقع إخوانهم في موضع الاستعداد للعدو، وجاء إخوانهم للصلاة وهم حاملو أسلحتهم لا يضعونها، بحيث يكون الجميع في وضع الاستعداد.

---

546 النساء 101- 102.

فالاستعداد أمر ضروري في جميع المواقف التي تواجه الإنسان ليضمن نجاح الفعل، إذ أن تجاوز مرحلة الاستعداد، من التهيؤ إلى الإرادة ومباشرة الفعل دون الاستعداد له، لن يكتب لهذا الفعل النجاح ويكون حليفه الفشل، إلا في حالة واحدة، وهي غياب الاستعداد في الطرف المقابل، وتفوق التهيؤ والإرادة للطرف المواجه، وبهذا يكون قد انعدم الاستعداد لكلا الطرفين وأصبحت المرجحات هما التهيؤ والإرادة وهذا نادر جدا.

إن الاستعداد هو أخذ الانتباه والحذر واستحضار أدوات الفعل في مواجهة الموقف، وطالما أن المواقف مختلفة، فهذا يستدعي تغيّر حالات الاستعداد لتلك المواقف، فالأفراح والأحزان والحرب والسلام والأعياد والمناسبات، كلها مواقف يتم الاستعداد لها باستمداد القوة المادية والمعنوية التي نستطيع من خلالها أن نسيطر على تلك المواقف، وتسخيرها وفق الإرادة. ومع هذا لا يمكن أن تكون وسائل الاستعداد من أفكار عقلية، ومعنويات نفسية وروحية، وأدوات مادية اتجاه قضية من القضايا أو حدث من الأحداث لكل القضايا، أو أن تنسحب أدوات استعداده على بقية الأحداث أو القضايا، لأن لكل موقف أدواته من المفردات الفكرية والحالات النفسية والوسائل المادية، في تحديد نوعيتها من أجل الاختيار الأفضل لإنجاح الفعل في الوقت المناسب الذي يحدده الاستعداد وفق الرغبة والوضوح واليقين والمعرفة من أجل إنجاز هدف وتحقيق غرض وبلوغ غاية وفق معطيات الاستعداد.

إن الاستعداد لا يقتصر على جانب معين لأننا لا ندري طبيعة الفعل الذي سوف نواجهه قبل حدوثه، لذلك وجب امتلاك أدوات الاستعداد العقلية والنفسية والمادية التي يمكن أن يُسخر استعدادها اتجاه الأحداث.

إن أهمية الاستعداد تكمن في مرحلة حصر الإمكانيات وإعداد العدة المناسبة للفعل المتوقع، ولا يتم ذلك إلا عن طريق دراسة وافية لمستلزمات الاستعداد العقلي والنفسي والمادي، وأول هذه الأمور التي تنظم العلاقة بين أنواع الاستعداد، هو الاستعداد العقلي الذي يُؤسس عليه بقية فروع الاستعداد، و من أجل تبسيط الأمر سوف نتناول كل واحد منها على حدة وهي: العقلي الفكري والنفسي المعنوي والمادي الحسي.

1- الاستعداد العقلي:

الذي ينضوي تحته الاستعداد الفكري والثقافي حيث إن للعقل مظاهر مختلفة من النشاط في جميع مجالات الفكر التي تصب في النهاية في خدمة قضية معينة، حيث أن العقل البشري يختزن معلومات شتى من العقائد والعلوم والفنون والبيئة والحياة العامة وكل ما له علاقة بحياة الإنسان وما يتعلق بهذه الحياة، خاصة أن الجانب الفكري هو عماد الأمور في جميع المسائل التي تصب في مصلحة الإنسان أفراد وجماعات، بحيث لا يمكن لأي مجتمع أن يستغني عن العقائد والآداب والعلوم والفنون والسياسة والاقتصاد والاجتماع وما إلى ذلك.

إن هذه القضايا إن لم تكن مخزونة في الوعي الجمعي لمجتمع معين، فلا بدّ أنها موجودة في الوعي الشخصي على مستوى أفراد في ذلك المجتمع، وهذا الوعي في المجالات التي ذكرناها، هو عبارة عن سلسلة من الأفكار في موضوعاتها، وهذه الأفكار تسخر استعداداً لما تروم الإرادة القيام به من عمل في مواجهة حدث، ففي قوله تعالى: {قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[547] يتجلى لنا إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يدرك كما يدرك قومه أن تلك الآلهة لا تنطق ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، فإن كانت لا تنطق ولا تملك لنفسها النفع أو الضر فمن باب أولى أن لا تملكه لغيرها، لذلك بنى إبراهيم عليه الصلاة والسلام موقفه من قومه قياسا على الاستعداد المؤهل للمحاجة، بما رسخ في وعي الجميع بأن هؤلاء لا ينطقون، لذلك لم يكن جواب قومه سوف نسألهم، بل قالوا: (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)، أي قد علمت أنت كما نعلم نحن أن هؤلاء لا ينطقون، فالنطق إرادة وليس كلام وأصوات، والإرادة ناتجة عن ملكات عقلية أخرى، وهذه الملكات تضر وتنفع وتصلح وتفسد، فعندما افتقدت تلك الآلهة المزعومة الملكات التي تؤدي إلى الفعل والحدث والتغيير في النفع والضر، أصبح وجودها وعدمه

[547] الأنبياء 62- 67.

سواء، فكان استعداده على استعدادهم من هذا المنطلق وفق المفهوم، وهو استعداد عقلي من أجل المحاجة.

إن الاستعداد العقلي لا يكتسب لحظة الحاجة إليه، وإنما هو موجود ضمن الملكات العقلية، ينمو ويتطور من التجارب والمعلومات والمشاهدة، ولكنه يستحضر ويستدعى لحظة الحاجة عن طريق الإرادة، لأن هذه القضايا كانت حاجات ضرورية في وقتها، وأصبحت فيما بعد صورة ذهنية بعد أن انتفت الحاجة إليها، وبناء على تلك الحاجات الضرورية التي كانت تجربة لمجتمع أو لبعض أفراده، فإنها تتحول إلى صور وتصورات عقلية في الذهن، وهذه التصورات الذهنية وإن كانت مجردة، ولكنها تنطلق من الواقع الحسي، بمعنى أن الاستعداد العقلي وإن كان يكمن في الذهن، إلا أن مصدره موضوعي وإن كانت منطلقاته ذاتية، ففي قوله تعالى على لسان المنافقين: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[548] فهذه صورة مكتسبة من واقع معاش، ذلك أن الذي يذهب إلى الحرب والغزو هو الذي يكون عرضة للموت، وطالما أنه بين أهله وقومه فهو بعيد عن الشر والأذى، علما أن الأمر ليس كذلك، فالإنسان يموت إن كان بين أهله أو بعيدا عنهم، ولكن من يموت في الغربة أو الحرب يكون وقع الموت والمصيبة فيه أعظم من الذي يموت بين أهله، وبالتالي فإن الأمر الخارج عن العادة، يطغى على الأمر الطبيعي، لذلك يكون حضوره في الذاكرة أشد من الطبيعي، ولهذا رسخت هذه الصورة الواقعية في أذهانهم، إذ لا يمكن أن يتصور الذهن صورة ليس لها أساس واقعي مكتسب، وحتى فكرة الإبداع التي تظهر لأول مرة من مبدعها، إنما هي نتاج تلاقح الأفكار بعضها ببعض و يُستنتج من خلالها فكرة جديدة في موضوع جديد إنما تعود في أصولها إلى مصدر واقعي.

وعلى كثرة ما يختزن العقل من معلومات وأفكار وإن كانت تتفاوت من شخص لآخر، قياسا إلى عمر التجربة الإنسانية وحرص صاحب هذه التجربة على تطويرها بما يمكنه الحصول عليه واختزانه، من المشاهدات والسماع والتفكير، فهذه الأدوات المغذية للعقل هي التي تمنح

---

548 آل عمران 168.

الإنسان استعداده حيث قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[549] فقوة السمع التي تلتقط الأصوات والبصر الذي يقع على الصورة، كل منهما يدفع بهذه المعلومات إلى العقل الذي يشكلها صورا ذهنية، ومن خلال المسموعات والمشاهدات تتكون الأفكار إما مفردة وهي التي جاءت عن طريق السمع أو عن طريق البصر، وإما مركبة من أكثر من فكرة سمعية أو مشاهدة بصرية، وإما من اتحاد فكرة سمعية مع مشاهدة بصرية، وهذا ما نعبر عنه بسلسلة الأفكار التي أصبحت خاضعة للإرادة التي تخرجها إلى الاستعداد، بحيث يكون التركيز الذهني منصب على استحضار الأفكار والمعلومات ذات العلاقة في الموقف أو الحدث التي تخدم الإرادة في قضية ما.

نستطيع أن نقول أن مصادر الاستعداد العقلي مستمدة من واقع معاش تحولت إلى فكرة يمكن استخراجها وقت الحاجة لها، عندما تتخذ الإرادة قرارها استعدادا لمواجهة الحدث. وإن لم تكن لديك تلك الحلول أو جزء منها موجود لدى طالب الاستعداد، فإنها موجودة لدى غيره يستطيع أن يحصل عليها من خلال الشورى.

إن الاستعداد لأجل حل أي قضية هو دائما موجود في الفكر الإنساني قبل استدعاء تلك الحلول، ولكن الذي يستدعيه ويستحضره إما طلب أو موقف خارجي:

أ- استحضار الاستعداد عن طريق الطلب: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا}[550] فالحذر هو احتراز وتيقظ، وهو أعلى أنواع الاستعداد، وقد جاء استدعاؤه هنا من العقل عن طريق الطلب، كونه كامنا في الذهن، لذلك لم تفصل الآية الكريمة عملية الاستعداد والسبل التي تؤدي إليها، والطرق التي يجب أن تتبع للوصول إلى حالة الاستعداد.

ب_ استحضار الاستعداد بسبب موقف خارجي: قال تعالى: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ}[551] فهنا جاء الاستعداد

---

[549] المؤمنون 78.
[550] النساء 71.
[551] الأنفال 42.

من موقف خارجي عندما شاهد المسلمون جيش قريش، وربّ قائل يقول إنهم كانوا مستعدين قبل ذلك بدليل خروجهم، ونحن نقول نعم. ولكن الأمر ليس كذلك لأن الاستعداد كان لمواجهة قافلة تجارية، غير أنهم عندما وقعوا في دائرة الممكن غير المتوقع، لا بدّ أنهم استبدلوا استعداد ملاقاة القافلة التجارية باستعداد آخر يناسب مواجهة جيش مقاتل، مما يستدعي التنازل عن خطة الاستعداد الأول، واستبدالها بخطة استعداد تكون بحجم الموقف الجديد عن طريق الاستدعاء العقلي بما يناسب الاستعداد المادي المتوفر الذي أحدثته المفاجأة.

إذ ليس هناك قضية منطقية غير قابلة للحل، ذلك أن القضايا العقلية تقوم على أسس سليمة مصدرها المعلومة المفردة أو المركبة، وبما أن العقل يعلم هذا، فإن لديه القدرة أن يستحضر الاستعداد الذهني لمواجهة الحدث إما عن طريق إعمال العقل بما يمتلك من معلومات، وإما عن طريق الشورى وكلاهما يصدران عن الأفكار.

إن الاستعداد لحل أي قضية أو مواجهتها أو الحصول على الأسباب المؤدية إلى نتائج إيجابية فيها، متوفر دائما في العقل الإنساني وذلك لسبب بسيط وهو أن الكليات عبارة عن مركبات جزئية، وتشكل الكليات الفكرية المركبة، إنما هو ناتج عن اتحاد أفكار جزئية توفر لها ذهن متقد فضم أجزاءها المتجاذبة بحيث أصبحت قضية كلية، ولا يستطيع فهمها إلا عقل يوازي العقل الذي ركبها عن طريق فهم جزئياتها، وبهذا الفهم يتولد الاستعداد الفكري.

وقولنا يتولد الاستعداد الفكري ذلك أن الإرادة عندما تتخذ قرارها ربما تمتلك جزءاً من الاستعداد اتجاه القضية لا يكفي لمواجهتها، فتبدأ بتنمية الاستعداد لمواجهة الفعل بصرف النظر عن الزمان والمكان كونها قضية فكرية.

وبما أن الجزيئات هي قضايا بسيطة فيمكن فهم كل جزئية على حدة، وعندما نعلم المتجاذبات والمتنافرات والأصول والفروع يسهل علينا الاستعداد لهذه الكليات.

وكما أن بعض الكليات ينشأ من اتحاد أجزاء الأفكار وتلاقيها، كذلك فإن البعض الآخر ينشأ من تصادمها سواء أكانت كلية أو جزئية، وهنا يكون دور الاستعداد أكبر من سابقه ذلك أن

الاستعداد عادة ما يكون للمواجهة في القضايا الخلافية وهنا يكون الاستعداد مركباً بحيث إنه لديه القدرة والإمكانات من تفنيد ادعاءات القضية المخالفة من خلال فهم حيثياتها من أجل إبطال فعلها، ومن ثم تقديم البديل من خلال استعداده ليحل محل الفكرة المخالفة ويشغل حيزها الفكري ومن ثَمّ المكاني باستعداد آخر موافق للفكرة بعد وقوع الحدث. كما في قوله تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}[552] إن الاستعداد العقلي لضعفاء الإيمان قائم على أنهم إذا أصابوا فوزا ونصرا وغنيمة فهي من عند الله، وإن أصابهم غير ذلك مما يكرهون، يقولون هذا من عندك وبسببك، غير أن كل ما يصيبهم مما يحبون أو يكرهون هو من تقدير الله تعالى، لأن الخير والشر هما من خلق الله، والله سبحانه وتعالى متفضل على خلقه بجميع النعم التي تصيبهم، وأما الشر فبما كسبت أيديهم، فهم لا يريدون أن ينسبوا ذلك إلى أنفسهم تهربا من الذنوب والمعاصي التي يقترفونها فيكون بسببها المصيبة جزاء وفاقا.

علما أن كل ذلك من عند الله، ولكنهم بنوا استعدادهم على عكس ذلك، فالخير والشر والحسنة والمصيبة جميعها من عند الله، ولكن المصيبة التي تصيبهم مكتوبة عليهم بسبب ما يرتكبون من ذنوب تكون سببا في جلب المصيبة، فدخلت في قضاء الله وقدره بأن كتبها عليهم بعلمه المسبق لما سيقع قبل وقوعه. فالخير مطلق من الله تعالى للإنسان، والشر مخصوص بأعمال وذنوب، وعلى هذا تكون الحسنة من الله والسيئة من أعمالهم، لذلك وجب تغيير الاستعداد لتقبل الأمر، وهذا معنى تغيير الاستعداد اتجاه قضية، في تقديم فكرة لاستعداد جديد يشغل الحيّز الفكري للاستعداد السابق.

2-الاستعداد المعنوي النفسي:

يكون هذا النوع من الاستعداد رافداً مهماً للاستعداد العقلي. إذ أنه يكون محفزاً من حيث اجتماع قوى النفس في الجانب المعنوي استعداداً لمواجهة الحدث، ويمكن أن نوضح هذا

[552] النساء 78.

الاستعداد بأنه شعور نفسي ينتاب الإنسان اتجاه الحدث و يجعله مستعداً له، علما أنه ينتج عن الفكرة من الجانب العقلي، ولكنه ليس بمعلومة ولا فكرة، وكذلك فهو لا يمت إلى الواقع المادي بصلة، كونه شعوراً يدركه صاحب الاستعداد في نفسه ونلحظه نحن، بمعنى أن هذا الاستعداد لا يمكن أن يكون له صورة في الخارج، لأنه لا يُستمد من الأشياء الحسية الواقعية وان كانت مؤثرة فيه، وليس له صورة في الداخل، أي أن العقل لا يستطيع أن يرسم له صورة متخيلة، علماً أن هذا الشعور نستطيع أن نقف عليه عندما ينعكس تأثيره على صاحب الاستعداد من خلال المادة أو أعضاء الشخص المستعد، فالغضب والحذر والابتسامة والخجل والتعرق والعزم والحزم والهمة، إنما هي انعكاسات قوى النفس المعنوية على الجانب العضوي استعداداً للحدث، فهذا الاستعداد إنما هو صورة مجردة أو هيولى الصورة المجردة، لأننا ندرك أثر الانفعال من تلك الصورة على صاحب الاستعداد وهو يدرك شعوراً لا يستطيع أن يصفه أو يعبر عنه إلا بانعكاسات الانفعال المولدة للاستعداد، كما في قوله تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}[553] .

إذن الاستعداد النفسي هو قوى مجردة ذات طاقات متفاوتة من شخص لآخر اصطلح عليه تسميته بالجانب المعنوي في الاستعداد، حيث يتكون نوع من ملكات النفسية اتجاه الحدث من خلال إثارة الذهن الذي يعكس انفعالا نفسيا من خلال الأفكار ذات العلاقة بالحدث كقوله تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا}[554]، فتحريض المؤمنين على القتال، هو من باب الاستعداد النفسي في رفع المعنويات ودرجة التأهب، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط نفسي يؤدي إلى الرغبة في المواجهة بحيث يصبح الاستعداد النفسي من قبول القتال والرغبة فيه مطلبا جماعيا، ومما يرفع درجة الاستعداد في هذا المجال، الإخبار بضعف الأعداء وفشلهم، والنزاعات التي تكون بينهم، وكذلك يتم هذا النوع من الاستعداد بالتذكير بوعد الله

[553] الأعراف 154.
[554] النساء 84.

تعالى للمؤمنين بإحدى الحسنيين، إما النصر على الأعداء وهو الفوز والغنيمة، وإما الشهادة وبلوغ الجنة وما أعد الله تعالى من نعيم للشهداء، وما لهم من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله يدخل في التحريض على القتال استنهاضا للاستعداد النفسي المؤثر إيجابيا في معنويات المقاتلين.

إن علاقة النفس بالاستعداد هي من خلال الأعضاء إذ أن النفس هي الصورة الخفية في الجسم تؤثر فيه دون أن ندرك حقيقة ذلك التأثير وكيفيته، إلا أننا نستطيع أن نقول أن لكل انفعال صورة حسية كانت أم حدسية ولا نقصد بالصورة أبعاد وحجم تلك الصورة، وإنما الصورة الخفية المؤثرة في هذه الجسم التي تمنحه الاستعداد من قوى نفسية كامنة.

هذه القوى النفسية الكامنة في كل إنسان بقدر ما، تستنهض استعدادا للحدث عن طريق تداعي أفكار معينة في موضوع محدد أو مشاهدة بصرية، مما يجعل بعض الغدد تفرز عصارات مختلفة، بعض منها موضوعها ذاتي داخلي كدموع الفرح ودموع الحزن واللعاب، وبعض منها موضوعها خارجي كحمرة الخجل والتعرق الناتجين عن فكرة أو مشاهدة، وليس عن زيادة حرارة المحيط الخارجي لأنها كانت كامنة واستثيرت بمؤثر.

ولتوضيح ذلك نقول: وجود الأشياء كونها موجودة قبل علمنا بوجودها حاصل، وهي موجودة أيضا بعد أن علمنا بوجودها، ولكنها لا تدخل ضمن وجود القوة ووجود الفعل، وإنما هو وجود من باب العلم بها أو عدمه، وبمعنى أوضح أنك لو دخلت مكاناً شديد الظلمة فأنك لا ترى الأشياء الموجودة في هذا المكان، فإذا أضأت المكان فسوف تبدو لك هذه الأشياء على حقيقتها بمؤثر خارجي وهو الضوء الذي جعلك تقف عليها حقيقة، وكذلك استعداد القوى النفسية موجود لدى كل فرد على تفاوتها، وإنما تبدو صورة انعكاسها بهذا المؤثر الخارجي الذي ذكرناه، ولكننا لا نقف على ماهيتها كصورة، وإنما نحس انعكاساتها من خلال انفعالات تظهر على الشخص بأنه استعداد لأمر سيواجهه قبل وقوع الحدث.

وإذا جاز لنا أن نضرب مثلا لذلك في الاستعداد النفسي قبل وقوع الحدث نجده في قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[555] حيث أن مريم عليها السلام دخلت في دائرة هذا النوع من الاستعداد من خلال بشرى جبريل عليه السلام، وإخبارها بما سيكون عليه هذا الوليد، وما يصدر منه في مهده دفاعا عن أمه، وفي كهولته من المعجزات التي تجري على يديه، وهو استعداد نفسي لتقبل أمر خارج عن العادة في ولادته، واستعداد نفسي أيضا أن هذا الغلام الذي بُشرت به سوف يكلم الناس في مهده، وهو أمر خارج عن العادة أيضا. "يكلمهم حال كونه طفل وكهلا كلام الأنبياء عليهم السلام من غير تفاوت يعنى أنّ تكمله في حال الطفولية والكهولة على حد واحد وصفة واحدة من غير تفاوت بأن يكون كلامه في حال الطفولية مثل كلام الأنبياء والحكماء لا شك انه من أعظم المعجزات"[556].

وعلى هذا فالاستعداد النفسي المعنوي قوى خفية تدفع الإنسان إلى وضع يكون فيه متحفزاً للحدث الذي قررت الإرادة قراراً معيناً بخصوصه، فيتصاعد مستوى الاستعداد النفسي بدرجة يناسب الاستعداد الفكري العقلي، ذلك أن الفصل بين العقل والنفس محال.

لأن الاستعداد النفسي ناتج عن انفعالات تولدت من فكرة يجيل صاحبها فيها النظر، ولا نقصد الانفعال بمعنى التسرع وإنما انفعال يوازي الفكرة في الجانب النفسي اتجاه ما يقرره العقل، ولهذا فالاستعداد النفسي لا يكاد ينفصل عن الاستعداد العقلي لتلازمهما.

3- الاستعداد المادي:

إن هذا النوع من الاستعداد وإن كان ينصب على الجانب المادي وأكثر أدواته منه، إلا أن الاستعداد العقلي والنفسي هو الذي يحدد طبيعة الاستعداد المادي ونوعيته وأدواته.

---

555 آل عمران 45 -49.

556 تفسير حقي ج1، ص 182.

إن أي فكرة أو نظرية بطبيعة الأمر، إنما هي مسائل ذهنية عقلية وأفضل هذه الأفكار والنظريات ما كان قابلا للتطبيق على أرض الواقع لتوفر أدوات الاستعداد المادية التي يتصرف بها الاستعداد العقلي والنفسي وفق الإرادة.

إذ أن كثيرا من النظريات والأفكار التي تنتج عن العقل وتتوجه إلى استعداده، لا نقول إنها غير منطقية، وإنما البعض منها يبقى مثاليا غير قابل للتطبيق على أرض الواقع لعدم توفر الاستعداد المادي له، مثل جمهورية أفلاطون الذي بنى تلك الجمهورية في الجانب النظري وبقيت كما هي لعدم توفر أدوات الاستعداد المادي إضافة إلى ذلك على ما فيها من الظلم والحرمان، حيث يخرج منها العبيد ولا يساويهم بالبشر ويحرم الطفل من أبويه ليربيه وفق نظام الجمهورية ويمنع الشعر لأنه يفسد الأخلاق، وكذلك الفارابي في المدينة الفاضلة من أجل بلوغ السعادة، إلا أن الفرق بين الجمهورية والمدينة الفاضلة، أن الفارابي جعل مفتاح السعادة أن يتخلق الإنسان بأخلاق الخالق عز وجل، وهو ما ندعو إليه بالتخلق النسبي لصفات أسماء الله الحسنى، ولكن تبقى القضية نسبية.

حيث لا يمكن لجميع البشر أن يتحلوا بالصفات النسبية للأسماء الحسنى، وكذلك الاتصاف بالأسماء الحسنى هو نسبي أيضا، و لذلك فإن النظريتين فقدتا أدوات الاستعداد المادي للخروج إلى الفعل في مواجهة الحدث.

فالمدينة الفاضلة إن لم تكن فقدت جميع أدوات الاستعداد المادي، فإنها لا شك فقدت الجزء الأكبر منها، وإن توفرت الشروط الإثنى عشر التي يجب أن يتحلى بها الرئيس[557]، كما حددها الفارابي، فإن هذه الشروط لا يتحلى بها جميع المرؤوسين الذين هم مكون أساسي من مكونات الاستعداد المادي لقيام المدينة الفاضلة.

لقد توفرت تلك الشروط وأكثر منها في شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام، قبل ولادة الفارابي بـ(260) سنة على الأقل، وكان ذلك المجتمع أقرب شيء إلى المثالية، ونقول أقرب لأن بعض أفراد المجتمع خرجوا عن الأسس المثالية التي حددتها الشريعة، بمعنى أن هؤلاء

557 لقد حدد الفارابي إثنتي عشرة صفة لرئيس المدينة الفاضلة منها - أن يكون تام الأعضاء ، جيد الفهم والتصور، محبا للعلم ، محبا للصدق والعدل ومبغضا للجور والظلم ......الخ

لم يستطيعوا أن يصلوا إلى مرحلة الاستعداد المطلوبة لجعل المجتمع مثاليا لذلك نبههم الله تعالى إلى ذلك بقوله: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[558] فالإيمان أرفع درجة من الإسلام، وإن كان الإسلام باب الدخول إلى الإيمان، فوضح لهم أدوات الاستعداد لوصول الإيمان، وهي الطاعة التامة لله ورسوله في الأوامر والنواهي، وهذا يعني أن الاستعداد هنا متنامٍ للوصول إلى المرحلة المطلوبة، فمنهم من أخذ بأدوات الاستعداد الموصلة إلى الإيمان، ومنهم من لم يفعل وبقى على موقفه فأعلم الله تعالى نبيه بهؤلاء في محكم التنزيل بقوله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}[559]، وقوله تعالى (ثم يردون إلى عذاب عظيم) علم أنهم ثابتون على موقفهم في النفاق ولن يأخذوا بأسباب الاستعداد للخروج منه.

وبكلمة وجيزة إن الاستعداد المادي للجانب المثالي الذي يكون أحد مكوناته ذات الإنسان، لا يمكن أن يكتمل ويكون واقعيا لأسباب نذكر منها:

ا- أن تعدد أفراده يجعل الرغبات والأهواء والنوازع متفاوتة مما يؤجج أنواعا من الصراعات التي تجعل المثالية مستحيلة.

ب- أن سنة الله في خلقه قضت بأن يميز الخبيث من الطيب من خلال مغريات الدنيا ليعلم من يصبر عليها ومن يتبع هواه فقد قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[560]، فكثير من الناس ليس لديهم الاستعداد لمواجهة زينة الأرض ومغرياتها، فهم جزء من الاستعداد الممتنع للمثالية.

ج- وجود الخير والشر والصراع القائم بينهما يبقى المثالية نظرية مجردة غير خاضعة للواقع، وبوجود هذا الصراع يكون إعمار الأرض حيث قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ

---

558 الحجرات 14.

559 التوبة 101.

560 الكهف 7.

بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}[561]، فانتفاء الاستعداد الموصل إلى المثالية على مستوى الخلق من البشر احترازا (النحل خلية مثالية والنمل قرية مثالية) لعدم إفساد الأرض.

إن الاستعداد العقلي والنفسي يجب أن يطابق الاستعداد الواقعي المادي، ذلك أن العقل يطابق المعرفة الذهنية بموضوعها الخارجي، لأن المعرفة العقلية يقوم استعدادها على الكليات من جزئيات الواقع، والمعرفة الحسية تسعى إلى إدراك الجزئيات التي تتكون منها الكلية العقلية.

ولتوضيح الاستعداد المادي على سبيل المثال نقول: إن مهندسا طُلب منه بناء بيت أو مدرسة، فإن ذلك يتطلب جمع أنواع الاستعداد لمواجهة الحدث بعد التهيؤ وقرار الإرادة، فهو عندما يتصور الشكل النهائي لهذا البناء ويأخذه الاندفاع لتنفيذ هذا العمل، فيكون بذلك جمع بين الاستعداد العقلي والنفسي، وعندما يبدأ بوضع خارطة لهذه البناء بشكلها التفصيلي، يبدأ بالانسلاخ من التجريد إلى الواقع شيئا فشيئا ويدخل مرحلة الاستعداد المادي، وكلما استحضر جزئيات هذه الكلية اقترب من الواقع الحسي المادي، إذ أن الاستعداد المادي لهذه القضية يكون بتأمين الأرض التي يقوم عليها البناء وما يقتضي ذلك من مواد وأدوات وأيدي عاملة وما إلى ذلك مما يدخل في الاستعداد المادي قبل الشروع في مواجهة الحدث.

فهذه قضية عقلية تم الاستعداد لها من جميع الجوانب بما يوافق الواقع لأنها تقبله.

وعلى هذا يمكن أن نفرق بين المثالي والواقعي، حيث إن القضية المثالية تقوم على نوعين من الاستعداد هما: العقلي والنفسي، ولا تنزل إلى مستوى الحدث لعدم توفر شروطها، غير أن أهميتها تكمن في الدعوة إلى السمو قدر المستطاع لتأمين الاستعداد المادي للقضايا الأخرى التي تقبله.

أنواع الاستعداد

---

561 البقرة 251.

1 . الذهني: هو بالبحث الذي به يتم الاستقصاء والتفحص، وبالقراءة الوافرة حتى المعرفة عن وعي، وبالتفكر فيما يجب، وبالتذكر لما كان، وبالتدبر في الأمر قيد الانشغال الذهني، وذلك: كاستعداد الطلبة لدخول الامتحانات. وهو من صور الاستعداد التي لا يمكن ملاحظتها بالعين المجردة، فهو جلب صور ذهنية متحققة في الوعي الجمعي، من ذلك على سبيل المثال الاستعداد لفعل الخيرات، وفعل الخيرات لم يتحقق تلقائيا عند النفس البشرية دون دوافع تثري الاستعداد وتنميه حتى ينتقل إلى مرحلة الفعل، ومن هذه الدوافع القدوة الصالحة والموعظة والصحبة. وهي أمور شغلت حيزا معرفيا كبيرا ضمن نطاق الفكر البشري نتيجة الإحالات الكثيرة للنصوص الدينية والوضعية. فمن النصوص الدينية، قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[562]، وقوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[563]. وفي سياق الموعظة ، يقول تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[564] .

ومما ورد في الشعر العربي:

عَنِ المَرْءِ لا تَسَلْ وسَلْ عَن قَرِينه ... فكُلُّ قَرِين بالمُقارن يَقْتَدِي[565].

من خلال هذه النصوص المتشكل منها الوعي الجمعي، يتشكل الاستعداد الذهني المراد له ضمن هذه المعاني.

---

562 الأحزاب 21.
563 الممتحنة 4.
564 النحل 125.
565 العقد الفريد ج 1 ص 190.

2 . النفسي: الوضوح مع النفس من خلال وضوح الأهداف والأغراض والغايات حتى يتم القبول وتطمئن النفس بما سيترتب على الموضوع من كسب أو خسارة، ولذا فالاستعداد توجه نحو ممارسة السلوك بما يحقق الرضا للشخصية.

3 . البدني: التمرن على الحركة المناسبة لأداء الفعل عند الإقدام على أدائه، كتمرن الرياضيين على ممارسة التمارين المناسبة لكل رياضة من الرياضات المتعددة والمتنوعة، إنه الاستعداد الذي به تصقل العضلات ويبنى الجسد. وهذا النوع من الاستعداد يتشكل مع حركات الجسم وهيئاته، فلغة الاستعداد متهيئة للفعل ومنتظرة الإشارة، فكل جزء في الجسم يشير إلى ما يفكر به هذا الشخص مع كثرة رمش العينين باتجاه الوجهة المقصودة. ويكون الجسم في وضع التحفز والاستعداد، فان كان جالسا تجد يديه تستند على مساند الكرسي، ورجليه بوضع الاستعداد للقيام.. الأشياء الداخلة تحت قبضة اليد يكون مشدودا عليها.. وانتباهه منصب على ما هو مستعد له .. الأرجل غير متقاطعة .. اليد قابضة على الحقيبة .. يعدل الملابس.. بصورة اعم كل ما فيه على استعداد. هذه صورة من صور الاستعداد التي يمكن ملاحظتها بالعين المجردة.

4 . المادي: إعداد عدة بتوفير المال والعتاد والوسائل الممكنة من أداء الفعل وحصر البشر المنفذين لذلك مع مراعاة توفر القدرة والقوة وفقا لدائرة الممكن.

الاستعداد للعبادات

عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :"بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"566.

لمّا بيّن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم أركان الإسلام ووضح أنواع العبادات ،عرفنا أن هذه العبادات مفتاح بابها (لا إله إلا اله محمد رسول الله) فيدخل المسلم بعد استعداده الأكبر لقبول التوحيد إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج.

---

566 صحيح البخاري ج 1 ، ص 11.

الاستعداد للتوحيد:

التوحيد هو معرفة، واعتراف، وإشهار، وشهادة، وإقرار.

- معرفة:

من خلال أدوات اليقين القلبية والمعرفية، والاستنتاجات العقلية بأن الله واحد أحد متصرّف في ملكه وملكوته لا إله غيره.

-واعتراف:

بأنه الواحد الأحد والاعتراف بما عنده من ثواب وعقاب، وما له من كمال وجلال وجمال على وجه الإطلاق.

- وإشهار:

والإشهار بإظهار الاعتراف والنطق به على مرأى ومسمع من الذات والآخرين، وهذا ما يسمى النطق بالشهادة.

-الشهادة:

تكون إخلاصاً لله، والتخلص من فتنة الشرك، وتكون على المستوى النفسي الذاتي بعدم الحاجة إلى من لا يملك النفع ولا يقدر على الضر، والغنى بالله الذي له مقاليد السموات والأرض، وآي القرآن في هذا الصدد كثيرة وواضحة الإشارة، قال الله تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آَللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أأله مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أأله مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أأله مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أأله مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}567 .

---

567 النمل 59- 63.

وبذكر الشهادة يكون الإعلان بميلاد موّحد، وبالنطق بها تخرج من طور الاستعداد إلى الفعل، وهذا الفعل لا يتحقق إلا بأدوات الاستعداد و منها:

- الإقدام على امتلاك العدة التي تُمكِّن من تنفيذ القرار.
- النية الخالصة بحسن القصد والتوجه باللجوء إلى كنف الله.
- الإقرار بالله ربا.
- بالنبي صلى الله عليه وسلم رسولا خاتماً.
- التوجه للقبلة.

ولشرف كلمة التوحيد قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ }568 .

(كَلِمَةً طَيِّبَةً) وهي كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، ولا تكون في كلمة التوحيد زيادة، ولا نقصان، ولكن يكون لها مدد، وهو التوفيق بالطاعات في الأوقات كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ وهي النخلة. كما أنه ليس في الثمار شيء أحلى وأطيب من الرطب، فكذلك ليس في الكلام شيء أطيب من كلمة الإخلاص، ثم وصف النخلة فقال:

(أَصْلُهَا ثَابِتٌ) يعني: ضاربة في الأرض (وَفَرْعُهَا في السماء) قامتها في الهواء فكذلك الإخلاص يثبت في قلب المؤمن، كما تثبت النخلة في الأرض. فإذا تكلم المؤمن بالإخلاص، فإنها تصعد في السماء، كما أن النخلة رأسها في السماء، وكما أن النخلة لها فضل على

---

[568] إبراهيم 24-31.

سائر الشجر، في القامة، واللون، والطيب والحسن، فكذلك كلمة الإخلاص لها فضل على سائر الكلام، فهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول: المعرفة في قلب المؤمن العارف، ثابتة كالشجرة الثابتة في الأرض، بل هي أثبت، لأن الشجرة تجتث وتقطع ومعرفة العارف لا يقدر أحد أن يخرجها من قلبه، إلا المعرِّف الذي عرفه. ويقال: (وَفَرْعُهَا في السماء) ترفع أعمال المؤمن المصدق إلى السماء، لأن الأعمال لا تقبل بغير إيمان، لأن الإيمان أصل، والأعمال فروعه، فترفع الأعمال، ويقبل منه"569.

-الصلاة:

الصَّلاة الدُّعاء. والصَّلاة من الله تعالى الرَّحْمة. والصَّلاة واحدة الصَّلَوات المَفْرُوضة وهو اسمٌ يوضَع موضِع المَصْدَر يقال صَلَّى صلاة570.

استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها المشروعة المشهورة.

ومن أدوات الاستعداد في الصلاة:

-النية.

- الطهارة.

-الوضوء.

-استقبال القبلة.

- حفظ ما تيسر من القرآن.

- الصلاة باللغة العربية التي نزل بها القرآن.

- الامتناع عن الأكل والشرب والكلام والتلفت وغير ذلك من مبطلات الصلاة.

ويا سبحان الله فإن الصلاة تكتمل فيها خماسية الأركان، وإذا أمعنا النظر متأملين في هذه الشعيرة التي تصل المخلوق بالخالق نجد أنها تشتمل على بقية أركان الإسلام.

569 بحر العلوم للسمرقندي ج 2 ، ص 431.

570 مختار الصحاح ج 1، ص 176.

– الشهادة: فلابد للمصلي من النطق بالشهادتين في التشهد الأوسط والأخير.

– الصلاة هي دعاء وأداء فعلي للشعيرة على الوجه الذي فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[571]، وعَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ قَالَ: أَتَيْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً فَظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا وَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا فَأَخْبَرْنَاهُ وَكَانَ رَفِيقًا رَحِيمًا فَقَالَ:" ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي وَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ"572.

– الزكاة : ففي الصلاة يزكي المسلم ببعض وقته ويمكن لنا أن نسميها زكاة الوقت.

أليس الوقت وسيلة من وسائل الربح؟؟

والصلاة فيها من الفضل ما يجزي عن الربح الدنيوي قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}573.

الصوم: ويتحقق الصوم في الصلاة فالمصلي لا يأكل ولا يجوز له في أثناء صلاته، وهنا تجمع الصلاة بين الأركان التي بني عليها الإسلام.

الحج: ويظهر الحج في الصلاة بتوجه المصلي إلى القبلة التي يتوجه لها المسلم لأداء فريضة الحج، والحج لا يكون إلا بالتوجه إلى مكة، وكذلك فلا صلاة إلا بالتوجه للكعبة المشرفة في أم القرى ولا طواف إلا حولها.

وتتداخل خماسية الأركان في الصوم فلا يصوم الصوم الموقوت بوقت الإسلام ولا بنيته إلا من موحد لله مقر برسالة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ولا صوم إلا بصلاة، ولا صلاة إلا بقبلة والقبلة رمز للحج، وهكذا دواليك في الزكاة فهي مع الصوم في حالة توأمة في شهر

---

571 الحشر 7.

572 صحيح البخاري ج 18، ص 423.

573 الجمعة 9-10.

رمضان، ولا تقبل إلا من مسلم والمسلم الذي يؤدي أركان الإسلام المتداخلة، وكلها لابد لها من وسائل استعداد لتكتمل وتقبل عند الله، ولكن الصوم لأنه من العبادات الأكثر سرية فله من الثواب الجزيل الذي لا يكون إلا له، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ"574.

وعليه نقول:

- إذا اكتمل الاستعداد تيسَّر أداء الفعل.
- وإذا لم يكتمل الاستعداد انتقص أداء الفعل بوجه من الوجوه.

الاستعداد الدنيوي للآخرة

الدنيا هي دار استعداد للآخرة ففيها يكون الامتحان وتكون النتيجة في دار البقاء، حيث يكون الحساب حسب استعداد كل إنسان لعمل الخير أو الشر، فقد تباين البشر في مدى استعدادهم للخير والشر منذ بداية الخلق كما يتضح لنا من خلال قصة قابيل وهابيل حيث استعد قابيل لفعل القتل الذي قصد به أخيه، بينما استعد هابيل لأن يمسك يده بعدم مدها لقتل أخيه، والحالتان تتطلبان استعداد نفسي وبدني يُظهر هذا الاستعداد لأرض الواقع ويترجمه كفعل، فالقتل استعداد للقيام بذلك الفعل القبيح، والإمساك عن رد الفعل بمثله هو استعداد للخير، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ

574 صحيح مسلم ج 6 ، ص 18 .

مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[575]، ومن الآية الكريمة السابقة نستطيع أن ندرك مدى استعداد قابيل المبكر في سلوك طريق الشر منذ اعتراضه على عدم تقبل قربانه، فتهيأ بإرادته ثم استعد لأن يخرج ما في صدره من غل لأداء الفعل.

وقد أشار المولى عز وجل في أكثر من آية قرآنية كريمة إلى استعداد البشر الاختياري للخير والشر، فمنهم من يكون مستعداً للشر بحجبه الحق عن عينيه، ومنهم من كان مستعداً للخير بإتباعه نور الخالق عز وجل، فلكل إنسان استعداد يميل بصاحبه لاختيار طريق الهداية أو طريق الضلال، وذلك الاستعداد هو من اختيار الإنسان نفسه بعد أن رفع الله الحجة عنه بأن أوضح له طريق الحق وطريق الضلال بإرساله الرسل كما جاء في قوله تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[576] فرفع الحجة هنا أي ما يختاره الإنسان ويستعد له من فعل الخير أو الشر هو الاتجاه الذي تحدده النفس البشرية ويدخل في تحديد هذا الاستعداد للاختيار عدة أمور منها :

. درجة الإيمان والعلم، فكلما كان الإيمان متمكناً من نفس الإنسان كان تهيؤه وإرادته يعدانه للعمل من أجل الحياة الخالدة التي يرجو فيها الفوز بالنعيم وهذا لا يمكن أن يكون بدون الوعي الكامل والعلم النافع والفعل الصالح الذي ينير الدرب للفوز بالجنة لعلمه بما يجب أن يفعل، كما جاء في قوله تعالى:{ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}[577] فمن الآية الكريمة السابقة نجد أن الفرق في درجة الإيمان يحدد سرعة اتجاه الإنسان نحو الاستعداد للطاعة، فالمسارعون في فعل الخير هم الأعلون درجة ممن يتمهلون في ذلك وهذا كله يرجع إلى الإرادة التي توجه الاستعداد لذلك.

والاستعداد قد يكون صفة تلتصق بالإنسان كما جاء في قوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[578] لأن الفلاح هنا لن

---

[575] المائدة 27- 31.
[576] النساء 165.
[577] آل عمران 133.
[578] البقرة 3- 5.

يصل إليه المؤمن إلا بالاستعداد للإيمان الصادق بالخالق والرسل والكتب والملائكة والقدر واليوم العظيم وهذا الإيمان يسلتزم الاستعداد لترك المحرمات وعمل الصالح من الأفعال، فالفلاح هنا هو نتيجة الاستعداد الذي يلزم للقيام بالأفعال التي تؤدي للفلاح في الآخرة ولأن هذه الأفعال بحاجة إلى صبرٍ وجلد فلابد أيضاً من الاستعداد لهذا الصبر بتقوية روح الإيمان والإرادة الحقيقية.

وبما أن لكل إنسان ميل واستعداد تجاه الخير أو الشر كما سبق القول فإن هذا الاستعداد الذي يعلمه المولى عز وجل بعلمه المطلق الأزلي يحدد المكان الذي يستحقه كل إنسان والدرجة التي يستحقها باستعداده، قال تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}[579] لذلك كان السيئ والحسن من ميلنا تجاه الخير والشر باختيارنا وبإرادتنا لأن المولى عز وجل قد هيأ سبل الخير للإنسان ولكن هذا الإنسان هو الذي يظلم نفسه بالاستعداد للشر ، قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[580]، فالعبد هو الذي يجلب الخسارة لنفسه بما صنع في الدنيا باستعداده للضلال والفساد.

ولابد أن يكون للاستعداد ضوابط توجهه للحق والصلاح والخير إذ أنه لابد أن يأخذ حقه من الإرادة الصلبة والعلم والنافع فيهدي صاحبه للخير والصلاح.

والاستعداد الحق للخير يمنع الإنسان من التوجه للفساد والسوء ويجعل من النفس البشرية حصناً منيعاً ضد الخطيئة والمعاصي، وإلا لكان الإنسان سهل التذبذب هنا وهناك كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}[581].

وكل ما يقوم به العبد يحتاج لاستعداد سواء كان عملاً حسناً أو سيئاً حتى أن التوبة تحتاج لاستعداد نفسي وجسدي للدخول في رحمة المولى عز وجل، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا

---

579 النساء 79.
580 آل عمران 182.
581 النساء 142- 143.

فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[582] فالتوبة لا يستطيع أي مذنب أن يكون مكتمل الاستعداد للقيام بها لأنها فعل يخرج به الإنسان من ظلام المعصية إلى نور المغفرة فنجد أن هناك من يتقبل الله تعالى توبته وهناك من لا يتقبلها ذلك حسب استعداد كل فرد للخروج من طريق الضلال وكلما كان هذا الاستعداد قويا تدعمه إرادة صلبة كانت النتيجة حسنة.

وفي قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[583] يتضح أن النصر والهزيمة مرتبطان بمدى الاستعداد النفسي والمادي لذلك أمر المولى عز وجل المسلمين بالاستعداد قبل أي شيء آخر، وأول سبب من أسباب النصر هو طلب الآخرة واستحبابها عن الدنيا، على عكس من غرته الدنيا وألهته بما فيها من مغريات عن الاستعداد للفوز كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[584]، فالاستعداد لطلب الآخرة يجعل من الخليفة الفائز ذلك اليوم، والحياة الدنيا هي دار الامتحان للبشر فمنهم من يجعلها استعداداً لطلب الآخرة ولقاء الله تعالى ومنهم من يرتاح في الدنيا لاهياً عن آخرته، قال تعالى، {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}[585] فالنسيان هنا هو نسيانهم للاستعداد للحساب.

كما إن النصر والهزيمة مرتبطان بالاستعداد لدى الإنسان فرداً كان أو جماعة، فالاستعداد قد يكون لنفس بشرية واحدة تجاه أمرٍ ما خاص به، وقد يكون الاستعداد جماعي تجاه أمر لصالح الأمة مثل الاستعداد للجهاد والدفاع عن الدين والعرض، قال تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا

[582] آل عمران 135-136.
[583] الأنفال 60- 61.
[584] فاطر 5.
[585] الأعراف 51.

وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }[586]، وكذلك قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[587] ، وهذا الأمر الجماعي بالاستعداد من شأنه أن يوحّد مشاعر المجتمع المسلم ويوحّد هدفه وكذلك من شأنه أن يقوي شوكتهم ويمنحهم النصر بهذا الشعور الموحّد داخل صدورهم.

ولابد أن يكون لدينا الاستعداد للإلتزام بما علينا فعله بأن يكون الاستعداد مكافئاً للعلم به، فلا يمكن أن نستعد لمجهول لا ندرك أساسه بل يجب أن يكون الخليفة واعياً لهدفه كي يستعد له بالقدر الذي يستحقه، والإيمان الصادق يجعل من الخليفة قوياً صابراً مستعداً للنصر، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[588]، فمن الآيات القرآنية السابقة نجد أنه:

الاستعداد أمر من الله تعالى للمسلمين.

بالاستعداد تتضاعف العزيمة وتقوى.

قد يتحول المؤمن بالاستعداد التام إلى درع صلب لا يخترقه الخوف أو الضعف.

لذلك فلا تهزم الأمم من قلة جيشها أو عدتها بل بعدم الاستعداد لنيل الانتصار.

والاستعداد الدنيوي له عدة اتجاهات تبعا لنوع الفعل نذكر على سبيل التقريب ما يلي:

1. الاستعداد للعمل: بالمهنة والحرفة والتأهل التدريبي مع مراعاة ظرفه الزماني والمكاني والموضوعي.

2 . الاستعداد للتعليم: بتوفير متطلباته من كتب وكراسات وأدوات وأجهزة والإلمام بنظمه وتشريعاته، ولذا فالاستعداد يُمكِّن من التقبل والفهم والتفهُّم.

---

586 التوبة 41.

587 البقرة 190.

588 الأنفال 65- 66.

3 . الاستعداد للسفر : بتجميع المستندات اللازمة للحصول على جواز السفر ومن ثم تقديمه لمصدر الحصول على التأشيرة، مع حجز تذكرة على الخطوط المناسبة لذلك وتوفير ما يلزم خلال مدة السفر المتوقعة لأداء المهمة أو الفعل.

4 . الاستعداد للسرقة: ولتوضيح ذلك اقتبس قصة صغيرة من كتابنا (سيادة البشر) بعنوان (سرقت الليمونة مع أنها لازالت في الشجرة).

قرر مجموعة من اللصوص سرقة الليمونة من الشجرة، كل وفق الفرصة التي تُمكِّنه من النجاة بها.

فالأول قرر السرقة ونفذ قراره. وقبض عليه متلبسا في حالة سرقة وجُرم وفق القانون.

والثاني قرر السرقة ولكنه لم ينفذ قراره، وبالتالي لم يتهم بالسرقة. ولكن بما أنه قرر سرقة الليمونة وهو عاقل، ألا يعد بالنسبة للعقل سارقا؟. مضمون القصة هنا تأثر بالزمن وحدوث المتغيرات. أنه قرر السرقة والوقت كان منتصف النهار تقريبا، وفى قراره أنه سيسرق الليمونة في الليل، وعندما جاء المساء علم بأن الأول قد قبض عليه أثناء قيامه بسرقة الليمونة المستهدفة، وبالتالي الليمونة التي يود سرقتها قد سُرِقت، مما جعله لا ينفذ قراره. انه في هذه الحالة ووفق المدركات العقلية مثله مثل السارق الذي قبض عليه، مع أنه لم يتهم بالسرقة لعدم قيامه بها. ولا فرق في هذه الحالة بين السارق الأول والثاني، إلا أن الأول قد نفَّذ قراره ولم ينج، والثاني لم تتح له فرصة التنفيذ فنجا من القبض، وقد يعتقد البعض أنه خال من عيوب السرقة. ولكن لو لم ينفذ الأول قراره في ذلك اليوم، يجوز أن يكون الثاني هو السارق الذي قبض عليه.

أما الثالث فهو الذي قرر سرقة الليمونة من شجرة الجيران، وفق خطة تتضمن بدائل استعدادا لتنفيذ عملية السرقة. الخطوة الأولي: يقوم بسرقة الليمونة عندما يكون جيرانه خارج المنزل، وهذه تتطلب منه مراقبة الجيران عند خروجهم من المنزل. والبديل ألاستعدادي الثاني: إذا لم

يخرج الجيران جميعهم من المنزل قرر أن يكوِّن علاقة مع الحارس والكلب الذي قد يعيقه أثناء تنفيذه قرار السرقة. والبديل الثالث: أن يقتل الحارس والكلب.

كل هذه العملية الحسابية عملية عقلية، وغير عفوية، لأنها وفق خطة وإصرار واستعداد لدخول المخاطرة، وبعقل مدبر. وما التنفيذ إلا خطوة من خطوات الخطة، ولهذا لم تكن المشكلة في فعل السرقة، بل المشكلة في العقل الذي قرر السرقة ووضع لها خطة استعدادا لفعلها. وعليه ينبغي أن يستهدف العلاج العقل.

والرابع قرر سرقة الليمونة، ولكنه تراجع نتيجة خوفه من أن يقبض عليه. في هذه الحالة لا يختلف عن سابقيه. أنه سارق ولكن الخوف حال بينه وبين ارتكاب فعل السرقة. لم تمنعه الأخلاق، ولا القيم والأعراف، ولا الدين، بل شيء أخر أنتج الخوف. انه العقل المدبر الذي يقرر، ويخطط، ويغير قراراته وخططه وفق المواقف، والظروف، والمتغيرات.

وعليه تعد الليمونة في كل الحالات مسروقة، وتعتبر سرقت منذ أن اتخذ قرار سرقتها، وما التنفيذ إلا خطوة لاحقة لذلك.

ومن المهم بعد هذا كله الوقوف أمام تساؤلات هي:

-هل يمكن تخطي الاستعداد في أداء الفعل؟

- وهل ينجح الفعل بدون الاستعداد؟

- ما مؤشر وجود الاستعداد؟

نقول لا نجاح إلا بإعداد ولا فشل إلا بالقفز على مرحلة الاستعداد مصداقا لقوله تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}589، فإن لم يعد المحارب القوة اللازمة لمواجهة عدوه فهولا محالة سيقع في الفشل ويهزم لأنه ترك أسباب النصر، فتمكين النصر لابد له من أسباب يؤخذ بها لا بالأماني والتمني يقول تعالى:{ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا}590.

---

589 الأنفال 60.

590 الكهف 84-85.

والفشل يكون بالاستغناء عن مرحلة من مراحل الاستعداد، ولو ضربنا المثل في العبادات لكان الأمر سهلا فمن يترك غسل يد من اليدين فلا وضوء له ولا صلاة لمن لا وضوء له.
وفي الحرب الاستغناء عن الطيران يجعل المشاة والمدرعات في حالة ضعف تمكن العدو من القضاء عليهما، إلا بوجود مضادات للطيران، أمّا بالاستغناء عن الاثنين ستكون الهزيمة محققة.

ويشير الاستعداد متى ما نمى وتطور إلى قدرة ، وهذا الأمر متحقق مع الإنسان منذ نعومة أظافره بدا من ذلك قدرة الطفل على الجلوس والتركيز والتأمُّل في رموز القراءة ، ثم قدرة الطفل على النطق السليم للحروف والكلمات ، ثم قدرة الطفل على فهم تعابير وكلمات جديدة ، ثم القدرة على الانطباع من قصة والتعقيب عليها ، ثم القدرة على تمييز الشعر من النثر.
هذه المراحل المختلفة والتي تشير إلى التطور المعرفي للإنسان يتشكل أيضا معها الاستعداد المتطور وفق نمو مستمر .

الفعل

الفعل: حدث في زمن معين وقع من (فاعل) على(مفعول) في (زمان) و(مكان) بسبب (مفعول لأجله) بهيئة للفاعل أثناء عمل الفعل(الحال)، والنحاة قد توسعوا في هذه المفردات وأوردوا الأمثلة الشواهد التي تؤيد وتخالف وتشذ، ووضعوا تصورا لزمن الفعل من ماض انتهى زمن حدوثه، وأمر سيقع في المستقبل القريب أو البعيد ولم يوضحوا متى سيحدث بالتحديد، ومضارع يحدث الآن ويأخذ حيزا من الماضي والحاضر والمستقبل.
وعلى كلٍّ فقد تنبه بعض اللغويين أمثال ابن مضاء القرطبي لهذا الخلل في كتابه الرد على النحاة.
وهنا يجب أن نثير تلك الرؤية التي تدعو للنظر بشكل جديد في النحو العربي لينسجم مع العقل المنفتح لا مع العقل المنغلق، وهذا ليس عيبا في اللغة العربية التي لم توظّف التوظيف

الأمثل من خلال تطوير قواعدها لتعبر عن الزمن لحقيقي لوقوع الفعل ومدلوله لا عن نظرية قد تجمدت وضعها علماء أجلاء في عصر يختلف بشكل كبير مع العصر الذي نعيش فيه.

والتساؤل: هل من الممكن أن نضيف للغة بعض الأزمنة في الفعل غير الماضي والمضارع والأمر؟

على سبيل المثال: المستقبل، والمستقبل القريب، والمستقبل البعيد، هذه أزمنة موجودة في قواعد اللغات الأجنبية ومأخوذة من مصادر عربية أندلسية، وغير موجودة في نظرية النحو العربي بالرغم أن أصلها عربي وله من الشواهد الثابتة في الاستخدام اللغوي وفي القرآن الكريم ، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}591.

(إذا نودي) لم يناد بعد ونقول فعل ماض... كيف؟!

وقوله تعالي: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}592

(إذا جاء) جاء: فعل ماض، كيف وهو في لم يحدث بعد؟ ودخول إذ عليه يؤكد عدم حدوثه، ودلالته علي المستقبل لاعن الماضي.

وقوله تعالى:

{سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}593 سيصلى: فعل مضارع، ودلالته في الآية إنه لم يحدث بعد، والنحاة يقولون الفعل المضارع بدأ، وهذا لم يبدأ، وهذا عين التناقض، ولهذا ندعو للنظر من جديد في دلالة الفعل وأزمنته بشكل يتناسب مع الدلالة الحقيقة للفعل بصرف النظر عن الموروث النحوي.

---

[591] الجمعة 9.
[592] النصر 1-3.
[593] المسد 1-5.

ونحن في هذا المجال لسنا نحاة ولكن نتكلم من منظور فلسفة المفاهيم، وعليه فسينصب حديثنا على دلائل الفعل من وجهة فلسفية منطقية عقلية تستفيد من المنظور النحوي، ومن المؤكد أنها ستفيده من منظور آخر.

دلائل الفعل:

تكمن دلائل الفعل في مكونات ذات صلة بالفعل لا تنفك عنه وتشمل:

الحركة

الزمان

السلوك

الإنجاز

الحركة:

خروج من دائرة السكون إلى دائرة الفعل لإنجاز الأهداف.

وهي التي تحدث عندما تمتد القوة في مجالها الذي تتمكن من الوصول إليه كلما سنحت لها الفرصة في ذلك، وللحركة نوعان هما:

1- الحركة الفكرية: هي التي تحدث عندما تمتد الأفكار من عقول وصدور حامليها إلى عقول وصدور أخرى، فتشغل حيزا عندهم نتيجة امتدادها إليهم، وتنتشر بين الناس حسب قوة تأثيرها سلبا وإيجابا،وحسب قوة الفكرة أو الحجة التي تتضمنها

2- الحركة المادية:

وهي التي تمتد بقوتها الملموسة أو المحسوسة والقابلة للمشاهدة والملاحظة، ويكون لها أثرها الإيجابي أو السلبي باختلاف المتأثرين بها والمؤثرين فيها وباختلاف الزمان والمكان.

ولا حركة إلا في زمان والزمان هو الوعاء الذي يستوعب الحركة والحركة هي نواة الزمان التي يقاس بها، وعليه فلا فصل بين الحركة والزمان، ولكن وصل بينهما لأنهما في حالة أشبه بالتوأمة المتماثلة.

وعليه فالحركة من حيث الاتصال والانفصال حركتان:

- الحركة المتصلة .
- والحركة المنفصلة.

الحركة المتصلة:

هي الحركة التي تكون بين جزيئاتها رابطة علمية ومنطقية تجعل لها وحدة تجمعها، والحركة المتصلة قد تكون فكرية عندما تتعلق بتوصيل المعلومة كموضوع بين المتحاورين، وذلك لأن الكلمات والجمل التي تعبر عن حقيقة الموضوع إذ لم تكن متصلة ومسترسلة من حجة إلى حجة لا يمكن أن يكون لها أثر موجب أو أثر سالب، ولا يمكن أن يكون للموضوع وحدة متصلة إذ لم يكن لحججه رابطة وأهداف، فلولا صلة الأفكار التي تكوّن الموضوع ما كان موضوعا واحدا، لذا فالحركة المتصلة تكوّن وحدة الموضوع، وانتقال المواضيع الفكرية إنما تنتقل من المرسل إلى المستقل أو تتبادل بين المتحاورين من خلال الحركة المتصلة في الكلمة والجملة والمنطق البنائي لهما، لذا تنتقل المواضيع من عقل إلى عقل في حركة متصلة غير مشاهدة.

الحركة المنفصلة:

هي الحركة التي تتجسد وتعرف من خلال الكلمة المحمولة فيها التي تميزها عن غيرها في اتجاه التطور أو في تجاه الثبات أوفي اتجاه التساوي، فكلمة انسحاب على سبيل المثال فيها شيء من التراجع، وكلمة مقاومة فيها ثبات للحركة المتوازنة بين طرفي القوة (المادية والفكرية) والتي قد تؤدي إلى تطور في الموقف، وكلمة هجرة فيها حركة منفصلة عن غيرها من الكلمات ذات الحركة، فالهجرة الداخلية تنفصل عن الهجرة الخارجية ، وهجرة الأسماك من المياه الباردة تنفصل عن هجرة الطيور من فصل إلى فصل ، وكل هجرة تنفصل في موضوعها ومعناها عن هجرة الرسول صلى الله عليه من مكة إلى المدينة.

وكل كلمة سواء أكانت متصلة أو منفصلة تحتوي على حركة يمكن تصورها ، ففي هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة تبرهن عن حركة متقدمة، والحركة قد تكون في اتجاه التطور (موجب) كما في الهجرة، وقد تكون مؤدية إلى النهاية(سالب) كما في

تقدّم الأسماك نحو شباك الصيد ، ولا يمكن تصورها(الحركة) إلا بالعناصر المشتركة فيها من البشر والإمكانيات الممولة لها والكيفية التي هي عليها، وهكذا تنفصل المواضيع وتتصل بانفصال متغيراتها وأسبابها وعللها مما يجعل لكل منها حركة منفصلة عن الأخرى، وإلى النهاية الحركة متصلة ومنفصلة، وكل منها قد يؤدي إلى التطور.

الزمان:

وهو الملاحظ الذي لا يمكن مشاهدته، والذي لا يقاس بغيره أو من خارجه، فالزمان لا يقاس إلا بالزمن ، والزمن لا يقاس إلا بالأعوام،والأعوام لا تقاس إلا بالشهور كمواقيت طبيعية، إذا الزمان هو المتدرج من الكل إلى الجزء الذي هو الآخر يتجزأ.

والزمان متصل بالحركة ، فلا حركة بلا زمان ولا زمان إلا بحركة، ولهذا لا يمكن أن يسبق أحدهما لآخر، فلو كان الزمان سابقاً على الحركة لكانت الحركة عبارة عن حدث من أحداث الزمان ، ولو كانت الحركة سابقة على الزمان لكان الزمان عبارة عن حدث حركي أو مولود الحركة الأول، وعليه فكل منهما مترتب وجوده مع الآخر، لا مترتبا عليه، ولهذا لو توقفت الحركة لتوقف الزمان، وإذا توقف الزمان لتوقفت الحركة، فلا حركة إلا بزمان ولا زمان إلا بحركة.

وعليه فالزمن:

ماض: وهو المنتهي الباقي بأثره في:

-المنجز من الأفعال.

- العبر المأخوذة من الأفعال المنتهية والتي يمكن الاقتداء بها.

الحاضر: وهو الآن المعاش الممتد من الماضي إلى المستقبل، وهو في نقطتين تفصلانه عنهما في الوقت الذي لا يمكن إدراك ذلك فيه لا بالملاحظة ولا بالمشاهدة لكن بالفكرة ، ومن أفعاله التي بانجازها تصبح مفعولات الحاضر:

- التخطيط:

بقياس الحركة مقارنة بالزمن لإنجاز الفعل في الوقت الذي يتحقق فيه الهدف الموجب.

- القياس:

عن طريق قياس ما سيتحقق من أفعال في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع بأخذ الحيطة والحذر لمواجهة كل الاحتمالات.

-الاتصال:

بخلق الروابط المناسبة بين أجزاء وجزئيات الفعل لتشكل جميعا وحدة لا يمكن أن تنفصل إلا لتتصل.

- الإنتاج:

الثمرة المرجوة من حدوث الفعل الموجب الذي يؤثر إيجابيا في الفاعل والمفعول المستفيد من منتج الفعل.

المستقبل:

وفيه الأمل القائم على المتوقع وغير المتوقع، ويتضمن الأفعال الباقية، كقول الحق الباقي بأسباب الحق.

أوجه الفعل

الفعل هو إيجاد الشيء بعد أن لم يكن ويكون بسبب وبغير سبب[594] ، ويدل الفعل بالوضع على شيئين، أحدهما الحدث، وثانيهما الزمن، ويدل على المكان بدلالة الالتزام، لان كل حدث يقع في الخارج لابد أن يكون وقوعه في مكان ما[595]، ونضيف على ذلك ما يقع من أفعال في الداخل (الباطن) كالإسرار والكتمان والتآمر وغير ذلك.

وبناءً على ما تقدم نصل إلى نتيجة مفادها: أن الفعل يقع في الخارج وفي الداخل وعلى الوجه الآتي:

- أفعال الخارج؛ وتتمثل بكل ما تقوم به اليد أو أي جزء من أجزاء الجسد لتؤثر في آخر سلبا أو إيجابا. بما يؤدي إلى نفع الآخر أو ضرره أو مشاركته في أمر من الأمور الآتية:

---

594 الفروق اللغوية ج1 ص 53.

595 شرح ابن عقيل ج1 ص 582.

1- النفع: هو ترك الأثر بالموجب في الآخر أو في بعض أحواله، ومثالنا آية كريمة تبين طبيعة النفع، يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}[596]. ففعل السقي هنا أدى إلى نفع هاتين الفتاتين ومن سقاهم وترتب عليه منافع كثيرة هي:

- انتفع الحيوان بالسقي.
- أراح الفتاتين.
- سبب التعارف مع سيدنا شعيب عليه الصلاة والسلام.
- أمن موسى عليه الصلاة والسلام كيد الكائدين.
- عمل موسى وكسب.
- تزوج موسى.

ففعل السقي هو فعل مولد، أي فعل واحد ترتبت عليه عدة أفعال، وقد فعل سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف[597].

وربما يكون النفع الناتج عن الفعل مادياً كما في المثال السابق، وبما يكون معنويا كما حصل مع سحرة فرعون، {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}[598]، فالفعل الذي أتي به موسى عليه الصلاة والسلام أدى إلى

596 القصص 23-24.
597 تفسير الزمخشري ج5ص131.
598 الاعراف117- 123.

نفع معنوي روحي يتمثل بإيمان السحرة اليقيني لان تهديد فرعون لهم بالتقطيع وبالصلب ثم القتل لم يزحزح إيمانهم.

2- الضرر: وهو ترك الأثر سلباً في الآخر بوجه من الوجوه، ويتباين ذلك بين شدة مفرطة ربما ينتج عنها القتل كما حدث لهابيل من قابيل، { لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[599]،ففعل الضرر هنا نتج عنه القتل. وبين ضرر أقل شدة كما حصل لسيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام من إخوانه، { اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}600، والمقترح لفعل الإلقاء في الجب "كان يعلم أنه إذا طرح فيها يكون إلى السلامة أقرب ، لأن السيارة إذا جازوا وردوها، وإذا وردوها شاهدوا ذلك الإنسان فيها ، وإذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان إلقاؤه فيها أبعد عن الهلاك"[601].

3- المشاركة: هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعدا؛ عينا كان ذلك الشيء، أو معنى[602]. قال تعالى: {وأشركه في أمري}[603]، فالمشاركة من أفعال الخارج التي تخص الفاعل وآخر، وما ينتج عنها يصيب طرفي المشاركة بالتساوي إذا كانت المشاركة بالحق، وبرجحان طرف على آخر إذا كانت على غير وجه حق .

---

599 المائدة 28-31.

600 يوسف 9-10.

601 تفسير الرازي ج9ص3.

602 مفردات ألفاظ القرآن الكريم ج2ص27.

603 طه 32.

– أفعال الداخل؛ وهي تلك الأفعال التي يقوم بها الإنسان ولا يظهر منها إلا أثر بسيط عليه أو على غيره، وهذه الأفعال تتعلق بالنفس على مختلف أنواعها، فما هي النفس ؟ وما هي أنواعها؟

النفس لا أحدا يراها بالرغم من وجودها والاتفاق عليها بين الناس في مختلف أديانهم وأعراقهم وأعرافهم ومعتقداتهم وعلومهم، النفس هي النفس وإن تنوعت بين ضالة ومهتدية، وبين أمّارة بالسوء ومطمئنة، وبالرغم من أن كل موجود وبالعينين يُرى يُصوَّر إلا أنها الموجود الذي لا تراها العينين لا يصور، وإلا هل هناك من يصور لنا النفس أو الابتسامة أو الغضب أو السعادة؟ كل هذه موجودة ويُحس بها وترتسم على الوجوه حتى تلحظها العقول المدركة للحقيقة. ومن يحاول قول غير ذلك ندعوه لأن يرسم لنا ابتسامة أو يرسم لنا نفساً أو يرسم لنا سعادةً، وعليه أن يفكر قبل أن يحاول الرسم في الفارق الكبير بين الابتسامة وبين المبتسم، وبين النفس والروح والبدن، وبين السعادة ومن تجول السعادة في نفسه حتى ترتسم عليه.

ومع أنَّ النفس ذائقة للموت، فهي التي تموت دون أن نراها، وإلا هل هناك من يرى النفس بأم عينيه في حالتيها في الحياة والممات؟

بالتأكيد النفس بالرغم من وجودها فهي لا تخضع للمشاهدة، وفي هذا الأمر ألا يكون عدم رؤية الموجود معجز أمام من لم يفقدوا أبصارهم؟ وبما أنها موجودة وهي لا تُرى مُعطية صادقة، إذن ألا يكون من ورائها خالق لا يمكن رؤيته بالقوة التي جعلت عدم التمكن من رؤية النفس بالرغم من وجودها؟

ومع أن النفس في أساس خلقها رفيعة إلا أنها لا تتصف إلا بما تفعل، ومع أنها رفيعة الخلق إلا أنها لا تعلم علم الغيب فهي لا تدري بما ستكسب غداً: قال تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا}[604]، ما تكسبه النفس في غدها خير أو شر وربما كانت عازمة على خير ففعلت شراً، وعازمة على شر ففعلت خيراً، وهي لا تدري بأي أرض تموت: قال تعالى: {وَمَا تَدْرِي

[604] لقمان 34.

نَفْسٌ بأيِّ ارض تموت}[605]، أين تموت، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها وأقبر فيها. فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ولا حدّثتها به ظنونها، سبحانه عز وجل إنه الخبير العليم. روي أنّ ملك الموت مرّ على سليمان عليه الصلاة والسلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل من هذا؟ قال: ملك الموت، فقال: كأنه يريدني. وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند، ففعل. ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظري إليه تعجباً منه، لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك[606]. والذي يعلم ذلك كله هو الله تعالى وحده لا اله إلا هو العليم الخبير، به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري وأسرتي وما أملك إليه إنه ربيّ الخبير الحفيظ جل جلاله.

وعليه علاقة قوية تربط كل نفس بما تفعل، ولهذا الأنفس تتعدد وتتنوع وتختلف ولتبيان ذلك أعرض أنواع الأنفس وفقا لأفعالها.

أنواع الأنفس:

* **النفس الأمارة بالسوء:** هي التي تعرف ما يجب وتأمر بغيره، قال تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي}[607].

وما أبرىء نفسي، والنفوس مائلة إلى الشهوات أمارة بالسوء. ومعناه: وما أبرىء نفسي مع ذلك من الخيانة فإني قد خنته حين قذفته وقلت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن، وأودعته السجن تريد الاعتذار لما كان منها أن كل نفس لأمارة بالسوء إلا نفساً رحمها الله بالعصمة إن ربي غفور رحيم، استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت. ولذا فالنفس الأمارة بالسوء هي التي لا تفعل الخير، السوء فتنة، فمن يفعله فعل إثما وبهتان كبيرا، والفتنة اشد

---

605 لقمان 34.

606 – الكشاف ج 5 ص 292

607 يوسف 53.

من القتل، وهذه النفس هي التي وضعها الكريم في امتحان فإن استغفرت وتابت رحمها الله بالاستخلاف في الأرض وإن لم تفعل ذلك خسرت الدنيا والآخرة[608].

القاعدة:

1 . النفس أمارة بالسوء. وبالخصوص النفس السوية.

2 . برحمة الله تبرأ النفس من الأمر بالسوء.

الاستثناء:

1 . النفس لا تأمر بالسوء. وبالخصوص النفس غير السوية.

2 . لا تبرأ النفس من ارتكاب السوء.

* **النفس الهاوية:** النفس الهاوية هي المنحدرة عن مستوى القيم والفضائل التي يرتضيها الله تعالى، وإن هوت وأثرت الحياة الدنيا وقعت في الرذيلة، قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}[609] يقول ابن كثير: من تَمَرّد وعتا، وقدم الْحَيَاةَ الدُّنْيَا على أمر دينه وأخراه، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى أي: فإن مصيرَه إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم، {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[610].

قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}[611]، الهوى ميل عن الحق وحياد عن إحقاقه، ولذا فالهوى منهي عنه، والقاعدة هي:

1 . النفس تهوى.

2 . الخوف من الله تعالى يؤدي إلى نهي النفس عن الهوى.

والاستثناء:

1 . النفس لا تهوى.

---

[608] تفسير البحر المحيط ج7ص31.

[609] النازعات 37- 38.

[610] النازعات 40-41.

[611] النازعات 40.

2 . عدم مخافة الله لا يؤدي إلى نهي النفس عن الهوى.

وقد جاء أمر الله تعالى لنا في أكثر من آية بعدم إتباع هوى النفس كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[612] ففي هذه الآية نهي عن إتباع هوى النفس في ترك العدل وظلم الناس، وقال تعالى آمراً لمن يخلفونه في الأرض بعدم إتباع الهوى، وهذا ما نراه جليّاً في أمره لسيدنا داوود صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[613] يُفهم من هذه الآية الكريمة إن استخلاف داوود عليه الصلاة والسلام كان ليحكم بين الناس بالعدل، لا أن يحكم الناس بالهوى، ولهذا فالفرق كبير بين الحكم بين الناس الذي يأتي في حالات الاختلاف، وبين حكم الناس الذي قد يكون على حساب حريتهم وممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمْل مسؤولياتهم. ففي هذه الآية وصية من الله تعالى لخلفائه في الأرض ولولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، وأن لا يعدلوا عن هذا الحق بإتباع ما تحدثهم به أنفسهم من أهواء، فيضلوا عن سبيله، وقد توعد الله عز وجل الذين يضلون عن سبيله بالعذاب الشديد والمهين يوم القيامة[614]، وقد وصف الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه لا يتبع الهوى فيما يخبر به أتباعه وفيما يطبق فيهم من شرائع فقال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[615].

*** النفس الزكية:**

---

[612] النساء 135 .

[613] ص 26 .

[614] تفسير ابن كثير ج 7 ، ص 62 .

[615] النجم 3 . 5 .

هي التي تتطهر من الخطيئة والذنوب، والتي تذنب وتتوب كلما أذنبت، ولهذا فهي تتطهر بالتوبة حتى توصف أفعالها بالزكية، ولو كانت لم تُذنب قط لكان الوصف لها بالنفس الزكية التي لم تقع في أفعال الذنوب. قال تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا}[616]. نزلت هذه الآية الكريمة لتوضح من أدرك علم الغيب وهو الرجل الصالح (السيد الخضر صلوات الله وسلامه عليه)، ومن يؤمن بعلم الغيب ويُسلم به بالمطلق إيمان بالكريم المطلق جل جلاله وهو (سيدنا موسى صلوات الله وسلامه عليه). وعليه فالفرق كبير بين من أظهره الله تعالى على شيء واسع من علم الغيب وأدركه به فيرى ما لم يره الآخرون، وبين من أظهره على شيء محدود من علم الغيب فآمنا به وسلم تسليما صادقا مطلقا. ويتضح هذا الأمر في قوله تعالى: (قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا). النفس التي قُتلت بالنسبة لسيدنا موسى صلوات الله وسلامه عليه هي نفس زكية، وبالنسبة للسيد الخضر صلوات الله وسلامه عليه، فهي لم تكن كذلك، مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[617].

***النفس المجادلة:**

قال تعالى: {يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[618]. يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ، تخاصم عن نفسها، وتحتجّ عنها بما أسلفت في الدنيا من

[616] الكهف 74.

[617] الكهف 78. 82.

[618] النحل 111.

خير أو شرّ أو إيمان أو كفر، (وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ) في الدنيا من طاعة بالجزاء الأوفى الذي به تورَّث في الجنة، ولهذا قال الله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[619] والجدل لا يتم بيسر، بل يتم بنقاش يؤدي إلى البيّنة التي بها الإنسان يدرك مميزا بين ما يجب ويقدم عليه وبين ما لا يجب ويبتعد عنه، ولذلك فالجدل يؤدي إلى اليقين إذا سادت روح الديمقراطية والمشاورة بكل شفافية بين المتحاورين حيث لا غالب ولا مغلوب إلا سيادة الحق وإحقاقه.

* **النفس المفرَّطة:** هي التي يتاح لها الأمر المناسب واللائق بها وتهمله وتغفل عنه وعن أهميته، وعندما تضيع الفرصة تندم يوم لا يفيد الندم. قال تعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ}[620].

القاعدة:

1 . التحسُّر على التفريط في جنب الله تعالى.

2 . الإقرار بذلك التحسر العظيم.

. وإذا حدث الاستثناء وظهر الفساد في الأرض:

1 . أن لا يتم التحسّر من قبل المفرط في جنب الله تعالى.

2 . أن يحس المفرط في جنب الله بالتحسر ولا يقر به.

* **النفس المطمئنة:** هي الآمنة بما دخل قلبها من إيمان، وهي التي تعلم أن ما دخل قبلها هو الحق فتكون على اليقين الذي يزيح المخاوف، قال تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}[621]، وعليه فإن اتجهت النفس إلى صواب الصواب ونزلت عليها السكينات الإلهية تطمئن إلى ذكر الله عز وجل وتسكن إلى المعارف الإلهية، فيقال: نفس مطمئنة.

القاعدة:

---

[619] الكهف 54.

[620] الزمر 56.

[621] الفجر 27 - 30.

1. النفس المطمئنة طائعة لربها تعالى.

2 . النفس المطمئنة ترجع إلى ربها تعالى راضية مرضية.

الاستثناء:

1 . النفس غير المطمئنة عاصية لربها تعالى.

2 . النفس غير المطمئنة لا ترجع لربها تعالى راضية مرضية.

وللنفس المطمئنة أفعال هي:

أ . التوحيد: قال تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}[622].

ب . الرحمة: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[623].

ت . السلام: قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[624]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}[625]، وقال تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا}[626]

ث . الإيمان: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}[627].

ج . العزة: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[628].

ح . اللطف: {وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[629].

---

[622] الفجر 27 - 30.
[623] الأنبياء 107.
[624] الأنفال 61.
[625] النساء 94.
[626] النساء 86.
[627] الأحزاب 36.
[628] لقمان 17 - 19.
[629] النساء 128.

خ . الحلم: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}[630]، وقال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}[631].

د . الغفران: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[632]

ذ . الشكر: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ}[633].

ر . الكرم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[634]

ز . الحكمة: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا}[635].

س . المودة: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[636].

ش . القوة: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}[637].

ص . المتانة: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ}[638].

ض . الحمد: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ}[639].

ع . القدرة والاقتدار: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[640]

غ . التوبة: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[641]

---

630 الصافات 99 - 101.
631 هود 75.
632 آل عمران 135.
633 النمل 40.
634 البقرة 267.
635 البقرة 261.
636 الروم 21.
637 هود 52.
638 القلم 34، 35.
639 الزمر 74.
640 النازعات 40، 41.

ف . العفو: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[642].

ق . الرأفة: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[643]

ك . الغنى والاغتناء: غنى النفس بالإيمان والوقوف عند الحق وممارسته والإقدام على الواجب وأدائه وحمْل المسؤولية بالإرادة، فالغني هو الذي لا يطمع ولا يضعف إلا في الحق وللحق وهو المستغني بخير خلقه في أحسن تقويم وبإيمانه بالله الغني الذي يغنيه عن العباد فلا تطمئن نفسه إلا به جل جلاله. "واتقوا يوما لا تقضي نفس عن نفس شيئا ولا تغني عنها غنى"[644].

ل . النفع: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[645]، وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[646].

م . الهداية: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}[647].

ن . الرشد: قال تعالى: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا}[648] وقال تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا}[649].

---

[641] البقرة 283.

[642] الشورى 40.

[643] الأنعام 151.

[644] تفسير الطبري ج 1 ، ص 27، 28.

[645] النحل 97.

[646] فصلت 46.

[647] يونس 108.

[648] الكهف 10 - 14.

[649] الجن 14.

هـ . الصبر: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}[650]، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}[651].

و . الإصلاح: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[652].

* **النفس المجزية:** التي تكافئ من يستحق الجزاء، ولذا فالجزاء مقابل عمل بالسلب أو الإيجاب (ثواب أو عقاب)، والنفس المجزية هي المقدّرة للآخر حق قدره ولا تظلم أحدا، قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}[653].

"أصل الجزاء: القضاء والتعويض، وجزيت عنك فلانا: إذا كافأته "واتقوا يوما لا تقضي نفس عن نفس شيئا ولا تغني عنها غنى"[654].

القاعدة:

1 . النفس لا تجزى عن النفس. ولنا في الآخرة خير المثال.

2 . النفس المجزية متقية يوم الجزاء.

3 . تقبل الشفاعة من النفس المجزية.

4 . يؤخذ العدل من النفس المجزية.

الاستثناء:

1 . النفس تجزي عن النفس. ولنا في الدنيا الأمثلة.

2 . النفس المجزية غير متقية يوم الجزاء.

3 . لا تقبل الشفاعة من النفس المجزية.

4 . لا يؤخذ العدل من النفس المجزية.

---

650 يونس 109.
651 ق، 39.
652 هود 88.
653 البقرة 48.
654 تفسير الطبري ج 1 ، ص 27، 28.

* **النفس العاملة:** هي التي تسعى من أجل مستقبل أفضل، وهي التي تؤمن بذلك الأفضل دون ظن في بلوغه بالعمل الذي به تنال الجزاء الأوفر. قال تعالى: {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ}[655].

العمل فعل خير في كل أوجهه للمؤمن، وقد لا يكون كذلك لغيره، ولذا يقول تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[656] الآية جاءت موجهة للمؤمنين لتحثهم على العمل، ولكن أيُ عمل؟، إنه العمل الصالح مصداقا لقوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}[657]. ولذلك فالله تعالى يخاطب النفس العاملة للخير، مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}[658].

وعمل النفس لا يوافق بالضرورة عمل الجسد، فكل ما لا يظهر في أفعال الجسد ويؤثر في الآخر هو من أفعال النفس، فالنوايا من عمل النفوس يقول الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى"، ومع أن النفس العاملة تحاسب على أفعالها بالنيات، إلا أن الجريمة ما بين البشر يكون الفعل فيها دليلا شاهدا حتى ولو كان الفعل نتاج خطأ، ولهذا أوجب الله تعالى التكفير عن الخطايا، {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}[659].

---

[655] الزمر 70.

[656] التوبة 105.

[657] الكهف 110.

[658] آل عمران 30.

[659] النساء 92- 93.

* النفس الماكرة: والمكر من صفات النفوس التي طالما أشار إليه الله جل وعلا متحدياً كيد النفس الإنسانية: مصداقا لقوله تعالى: {ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين}[660]_* النفس المكيدة: الكيد محاولة للمغالبة بأسلوب تحايلي حيث إظهار كل ما يعيق ويعرقل مسيرة الناس ولأن الله خير الكائدين فبكيده الحق يتم إبطال كيد المكيدين بغير حق، قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}[661] فالكيد من عمل النفس، وفي سورة يوسف عليه الصلاة والسلام يتعالى عز وجل على كيد النفس الإنسانية فيقول: {كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[662]. لأنه يعلم في علم الغيب عنده أن كيد الشر في نفوس إخوة يوسف أقوى من كيد الخير في نفس يوسف فهو يحسب لغضب الله حساباً كما يحسب لرضاه عز وجل، فنفس يوسف عليه الصلاة والسلام تأبى أن تخوض في الباطل الذي هو مباح لنفوس أعداءه. والكره من عمل النفس لأنه لا يظهر في أفعال الجسد لكنه يُحس من قبل الآخر. وقد يتساءل البعض: عمن يحسه؟ بطبيعة الحال تكون الإجابة النفس. ولهذا ليس لحواس الجسد قدرة على الإحساس بأفعال النفوس، وإنما النفوس تحس وتشعر بعمل النفوس الأخرى .

القاعدة:

1 . أعمال المحسنين توفى.

2 . وأعمال المقللين تقل.

الاستثناء:

1 . أعمال المحسنين تقل.

2 . أعمال المقللين توفي.

---

[660] آل عمران 54.

[661] الطارق 15 . 17.

[662] يوسف 76.

* **النفس المكلفة:** قال تعالى: {لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا}[663]. الوسع مقدرة واستطاعة، والتكليف بدون مراعاة ذلك تجنّي على النفس التي لا تطيق إلا ما تستطيع.

القاعدة:

. تكلف النفس وفقا لوسعها.

الاستثناء:

. تكلف النفس في غير وسعها.

* **النفس المسيئة:** قال تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}[664] السيئة هي كل ما يخالف الفضائل والقيم الإنسانية الاجتماعية، ومرتكبها هو من لا يتندى جبينه من الاتصاف بها في الوقت الذي يتندى له جبين الآخرين إذا ما ارتكب أفعالها.

القاعدة:

لا ترتكب السيئة إلا بإرادة النفس.

الاستثناء:

ترتكب السيئة بدون إرادة النفس.

***النفس المستبصرة:**

قال تعالى: {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}[665]. البصيرة: ما يُمكِّن من بلوغ عين اليقين فيما يُدرك ويُتخذ قرار بشأنه عن وعي وبيّنة واضحة أي حُجَّة بينة واضحة على ما صدر عن النفس من الأعمال، ولهذا لا تنفع المعاذير بما أن النفس على بينة بما حدث، وليتقي الإنسان ربه الكريم. فإن اتقاه كانت نفسه ذات بصيرة وإن لم يتقه فلا معاذير تنفعه.

---

663 البقرة 233.

664 النساء 79.

665 القيامة 14- 15.

أما النظر في جواهرنا وأنفسنا فلننظر كما قال تعالى: {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}[666] النفس ليست الروح ولا البدن، بل هي شيء آخر، يتكون من القبول والرفض والرضا وعدم الرضا والخوف والطمأنينة، والاتزان والقلق والوسوسة التي بها تمتلئ الصدور فتتسع أو تضيق. فالنفس توصف ويتم التعرف عليها بالمخاطبة وتؤدي بصاحبها للتفاعل أو عدم التفاعل، وهكذا تظل على قيد الحياة إلى أن يتوفاها الله تعالى.

في الآية الكريمة السابقة استغراب تساؤلي: أن الأنفس التي لا تدرك حقيقة أمرها لم تبصر حالها، وعليه فالنفس المستبصرة هي التي تتبين بما ميزها الله به من نعم خلقية فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم هو على بصيرة بأمره فلا يغفل حتى لا يكون من النادمين، ولا يشرك حتى لا يكون من الضالين، فالبصيرة مركز الرقابة العقلية والذهنية التي بها يتم التمييز بين الأفضل والأكثر تفضلا، والأجود والأكثر جودة، {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ}[667] وقال تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}[668].

القاعدة:

1 . البصيرة قيد على النفس كي لا تفلت.

2 . من يمتلك البصيرة يمتلك ملكة التمييز بين ما يجب وما لا يجب.

الاستثناء:

1 . أن لا تكون البصيرة قيدا على النفس فتفلت.

2 . أن يكون للنفس بصيرة ولا تُميّز بين ما يجب وما لا يجب.

* **النفس السفيهة**، قال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}[669]. السفه طيش وخروج عن المألوف والمحبب والمفضل، وهو خروج عن حمْل المسؤولية، والسفه تقليل بالأقوال أو الأعمال أو

---

[666] الذاريات 21.

[667] القيامة 14.

[668] الإسراء 14.

[669] البقرة 130.

الاثنين معا من أقوال أو أعمال الآخرين الراشدين في أقوالهم وأعمالهم وأعمارهم، والسفه تقليل من شأن ينبغي أن يقدر ولا يقلل من شأنه.

القاعدة وفقا لدائرة الممكن المتوقع:

1 . النفس السفيهة لا تقدر الآخرين ولا تحترمهم.

2 . النفس السفيهة لا تحتكم بالفضائل والقيم الإنسانية والأخلاقية.

القاعدة وفقا لدائرة الممكن غير المتوقع:

1 . النفس السفيهة تقدر الآخرين وتحترمهم.

2 . النفس السفيهة تحتكم بالفضائل والقيم الإنسانية والأخلاقية.

وفي نظرية الاحتمالات ووفقا لدائرة الممكن:

إذا التقى سفيه وراشد فكيف يرى كل منهما الآخر؟

1 . قد يرى السفيه الراشد مثله بالتمام سفيهاً.

2 . قد يرى الراشد السفيه مثله بالتمام راشدا.

3 . قد ينظر السفيه للراشد بأنه أقل شأنا منه.

4 . الراشد ينظر إلى السفيه بأنه أقل منه شأنا، ويعتبره جاهلا.

5 . قد يعرف السفيه أن الراشد ينظر إليه بأنه جاهلا.

6 . السفيه لا يعتبر الإصلاح عملا موجبا.

7 . الراشد لا ييئس من الإصلاح.

8 . إذا توقع السفيه نفسه أنه سفيها في ذهن وعقل الراشد فقد يحاول إثبات ذلك له سفاهة.

9 . إذا توقع السفيه نفسه أنه سفيه في ذهن وعقل الراشد فيحاول أن يظهر له ما يخالف ذلك ليبطل افتراضاته.

10 . إذا توقع الراشد نفسه بأنه راشدا في ذهن السفيه يزداد تمسكا بأنه راشد في قوله وفعله.

11 . إذا توقع الراشد بأنه راشدا في ذهن وعقل السفيه وبذلك لن يخيفه فقد يظهر له من القول والفعل ما يخيف.

12 . قد يظن السفيه أنه مُقدَّر من قبل الراشد فيظهر له ما يتوقع حتى يخادعه.

13 . إذا اعتقد الراشد بأنه مُقدّر من قبل السفيه فلا يفاجئ إذا قدّم له الإهانة في أي مظهر من مظاهر السفاهة.

14 . إذا ظن السفيه أن صورته عند الراشد غير حسنة قد لا يقلق.

15 . إذا عرف الراشد أن صورته عند السفيه غير حسنة قد يزداد قلقا.

16 . إذا عرف السفيه أن صورته عند الراشد غير حسنة قد يقدّره على نظرته لهذه الصورة التي لا يرغب أن تكون له صورة تخالفها.

17 . إذا عرف الراشد أن صورته عند السفيه حسنة قد يظن في نفسه بما ليس حسن، ولذا قد يتساءل: هل الذي صورته عند السفيه حسنة هو من ينبغي أن يكون حسنا؟

18 . قد يظن السفيه أن الراشد يظنه غبيا.

19 . كذلك قد يظن الراشد أن السفيه يظنه غبيا.

20 . قد يكون السفيه ذكيا فيتمكن من الضحك على الراشد.

21 . قد يكون الراشد ذكيا ولكنه لا يغالب بذكائه ذكاء السفيه، فيستسلم له.

22 . إذا حس السفيه بالخوف من الراشد قد يظهر الطاعة.

23 . إذا حسَّ الراشد بالخوف من السفيه فقد يُقدِّم له التنازلات لينجو، وقد يحدث الصدام في غير محله ويُدفع الثمن.

24 . السفيه لا يضع الراشد موضع الثقة.

25 . الراشد قد لا يضع السفيه موضع الثقة.

26 . كل من السفيه والراشد ينظر للآخر وفقا للصورة التي رسمها له وقد يظن أنها لا تتغير.

27 . قد يظن السفيه أن الراشد خائف منه ولذا فهو آتياً له لتقديم المزيد من التنازلات فيزداد السفيه سُفه.

28 . إذا أحس الراشد بأن السفيه خائف منه فلا يثق فيما يقدمه له من تنازلات، وإذا وثق فقد يفاجئ.

29 . قد يظن السفيه أن الراشد طامع فيه فقد لا يحترمه.
30 . إذا ظن الراشد أن السفيه طامع فيه يزداد حذرا وحيطة.
31 . السفيه لا يتخذ قدوته إلا سفيها.
32 . الراشد لا يتخذ قدوته إلا راشدا.
33 . إذا انساق الراشد بعاطفته مع ما يقوله السفيه فقد يقع في الفخ.
34 . قد يتصنع السفيه الضعف حتى البكاء عندما يعتقد أنه في المصيدة.
35 . قد تحدث علاقة بينهما وفي هذه الحالة يكون أحدهما قائدا والآخرة تابعا.
36 . إذا اعتقد الراشد في استخدام القوة مع السفيه علاج فقد يظل طريقه.
37 . السفيه قوي والراشد قوي ومن شك منهما في ذلك خسر الجولة.
38 . إذا عرف السفيه أن الراشد يعمل على استقطابه فقد يظهر له ما يرضيه حتى لا يطول زمن المقابلات معه.
39 . إذا قبل الراشد بأن يرى نفسه في مرآة السفيه فلا يمسح الغبار عن وجهها.
40 . إذا قبل السفيه أن يرى نفسه في مرآة الراشد فعليه بمسح الغبار.
41 . إذا حس السفيه بقوتك قد يظهر لك شدة الضعف عنده حتى تستسلم وحينها تصبح أنت الضعيف.
42 . إذا أظهرت قوتك أمام السفيه ثق أنه قادر على اكتشاف ضعفك.
43 . من لا يتمالك نفسه عند الاستفزاز يسقط من الجولة الأولى.
44 . من يتمالك نفسه عند الاستفزاز يقضي على نقاط الضعف فيه.
45 . من يضعف أمام المغريات المادية يرخص ثمنه في السوق.
46 . إذا أرت الفوز على الخصم لا تضعه في خانة الضعفاء.

*** النفس الظالمة:**

هي التي لا تقف عند الحد بل تتجاوزه إلى المنهي عنه فتفعله وهذه ظالمة لنفسها أولا، وللآخرين ثانيا. قال تعالى: {ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وَأَسَرُّوا

النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[670]. الكريم جل جلاله هو صاحب الحق والعدل، فهو لا يظلم أحدا، وأولئك الذين أسروا الندامة تكبرا ولم يعتذروا ولم يكفِّروا عن سيئاتهم هؤلاء لن ينفعهم شيئا ولا ينجيهم من عدل الله فيهم بالعذاب شيئا، فبعد أن يفوت الأوان لن ينفعهم الندم ولو افتدوا بما في الأرض جميعا. وهؤلاء هم الذين أعطيت لهم الفرصة لأن يكونوا من الخلفاء في الأرض لأجل أن يرثوا الجنة من بعدها فخسروا بارتكابهم المظالم كل شيء. اللهم أجعل أنفسنا طاهرة زكية مطمئنة ولا تجعلها ظالمة ومتجاوزة للحدود المنهي عنها. قال تعالى: {ودخل جنته وهو ظالم نفسه قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}[671]. يظن أن بستانه بما فيه من أشجار متنوعة ومتعددة إنه الجنة التي لا تزول أبدا، وبهذا ظلم نفسه بكفره، يقول الطبري: هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب (دَخَلَ جَنَّتَهُ) وهي بستانه (وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) وظلمه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه. وقال البغوي: أعطت كل واحدة من الجنتين أُكُلَهَا أي ثمرها تاما (وَلَمْ تَظْلِمْ) لم تنقص مِنْهُ شَيْئًا.

الظلم ما ليس بحق، والنفس الظالمة هي التي لا تكون على الحق، قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}[672]، وقال تعالى: {فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[673].

القاعدة:

1 . عمل الخير.

2 . اعتدال النفس.

3 . الاستغفار من الذنب.

---

[670] يونس 54.

[671] الكهف 35– 36.

[672] النساء 110.

[673] البقرة 231.

4 . نيل الرحمة.

الاستثناء:

1 . عمل السوء.

2 . ظلم النفس.

3 . انعدام الاستغفار.

4 . الحرمان من نيل الرحمة.

* **النفس المراودة:** المراودة طلب مع مراوغة وسوء نية مبيتة، والنفس المراودة هي النفس الضالة للسبيل الحق، وهذه النفس إن حاولت وأصرت قد تنجح في تحقيق مآربها، وهي مع اليقين تفشل لا محالة كما هو الحال مع يوسف عليه الصلاة والسلام وامرأة العزيز. قال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ}[674]، وقال تعالى: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[675].

القاعدة:

1 . النفس تراود.

2 . اليقين يُفشل أعمال المراودة.

الاستثناء:

1 . النفس لا تراود.

2 . المراودة تحقق المآرب.

* **النفس المتحسرة:**

قال تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}[676]. والحسرة الغم والندم على ما فات، أي من شدة الغم يتحسر الإنسان على ما فات وهو نادم ويا ليته لم يفعل ما فعل، أو يا ليته

---

[674] يوسف 23.

[675] يوسف 30.

[676] فاطر 8.

فعل ما يجب في وقته، ولأن الوقت لا يعود إلى الخلف والفعل حدث فإن الندم يحلُ بالنفس حتى توصف به، وهذه النفس أن كانت نادمة في الزمن الذي يُمكِّنها من الإصلاح أو التكفير فقد تكسب خيرا على ندمها وتكفيرها على ما قدَّمت يداها، وإن لم يسعفها الوقت لكي تُكفِّر عن ما أقدمت عليه فلا ندم ينفعها.

* **النفس المتوجسة:** هي التي تتوجس فيما تفكر فيه أو تشاهده أو تلاحظه، والتوجس أحكامه ظنية، قال تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى}[677].

القاعدة:

1 . النفس تتوجس.

2 . النفس المتوجسة يملأها الخوف.

3 . النفس الواثقة يملأها الاطمئنان.

الاستثناء:

1 . النفس لا تتوجس.

2 . النفس لا تخاف.

3 . النفس التي لا تثق يملأها الاطمئنان.

* **النفس البخيلة:** هي التي لا تتحفز للإقدام إلى ما يفيد وينفع، فتقصر عن بلوغ ما ينبغي لها أن تبلغه بإرادة، قال تعالى: {وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ}[678].

القاعدة:

1 . البخل قصور في النفس.

الاستثناء:

1 . أن لا يعد البخل قصور في النفس.

---

[677] طه 67.

[678] محمد 38.

* **النفس الناكثة:** هي التي إن عاهدت لا تفي بما عاهدت به، ولذا لا تعد نفس صالحة لغرس الثقة فيها. والنكث نقض العهد وفك الارتباط وعدم الالتزام بما تم عليه العهد، وفي النكث مخادعة وعدم إخلاص نية والسير على غير وفاء. قال تعالى: {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ}[679].

القاعدة:

1 . العهد غرس ثقة.

2 . نكث العهد لا يعود إلا على النفس الناكثة.

الاستثناء:

1 . العهد بدون غرس ثقة.

2 . نكث العهد يعود على آخرين.

* **النفس الوسواسة:** هي التي تظن في كل شيء وهي التي تظهر الموافقة والرضاء وتلاحقهما شكا وظنا، وكثير ما يتهيأ لها الأمر في غير مكانه الناسب، في باطنها تراجع المواضيع وقد لا يتعلق الأمر بها، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}[680] لقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، وفي هذا التقويم ظاهر وهو الشكل الذي صوره عليه وهو يمشي سويا، والباطن الذي يتعرض للامتلاء الاحتمالي على النحو الآتي:

1 . الامتلاء باليقين الإيماني، الذي به يتمكن من إدراك الحقيقة، وبلوغ الغايات العظام، حتى يتمكن من الاستخلاف في الأرض ويكون من الوارثين في الجنة.

2 . الامتلاء الشكي الذي يعتمد على سلامة المدركات العقلية والجدل والحوار إلى أن يحدث التبيُّن وحينها يكفر من يكفر ويسلم من يسلم وجهه لله تعالى.

---

[679] الفتح 10.

[680] ق 17.

3 . الامتلاء الظني الذي يملأ النفس بالظنون والوساوس التي بعضها إثم وذلك لفقدانها المعطيات والمبررات الصادقة.

القاعدة:

1 . النفس وسواسة.

2 . الوسوسة ظن لا يقين.

الاستثناء:

1 . النفس لا توسوس.

2 . وسوسة لا ظن فيها.

***النفس المُؤثرة:** هي الراضية بما هي عليه ولا طمع لها فيما ليس لها، وما يكون إليها لا ترى مانعا أن ينتفع منه من هو في حاجة له أكثر منها، تنظر إلى الآخر وإذا شعرت أنه في حاجة استوقفت عند تلك الحاجة واستجابة لمتطلباتها بما تملك، تتصف بالجود والكرم والعطاء والإيثار فهي لا تنتظر مقابلا، غاياتها عظيمة ومستقبلها أعظم. لا تعطي من الزائد والفائض بل تعطي ما هو أكثر ولو ما تملك في سبيل مناصرةٍ ومساندةٍ لأصحاب الحق والمحتاجين للمساندة والمناصرة. قال تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}[681].

القاعدة:

1 . النفس المؤثرة الكريمة من أجل الآخرين تؤثر.

2 . الإيثار بالنفس لا يكون على حسابها.

الاستثناء:

1 . أن لا تؤثر النفس من أجل الآخرين.

2 . أن يكون الإيثار على حساب النفس.

---

[681] الحشر 9.

* **النفس الشحيحة:** هي التي تبخل بما عندها وهي المانعة للتفضل بالرزق والمُلك، وذلك لشدة خوفها ومبالغتها في الحرص غير المسئول حتى يضيق صدرها، والنفس الشحيحة مع أنها تمتلك إلا أنها ترغب في المزيد حتى ولو كان على حساب الآخرين، بل أنها ترغب أن تأخذ منهم وإن كانوا أقل منها رزقا، ويدها دائما مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِهَا قال تعالى: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[682].

قال تعالى: {وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[683]. أُحْضِرَتِ الأنفس الشح: إن النفوس عرضة للبخل، فينبغي أن يكون التسامح بينها كاملا. والشح أكثر من التقليل في العطاء، وكأنه مرتبط بمقابل، فإن توفَّر المقابل كان العطاء وإن لم يتوفر لا يحدث العطاء، ولذا فالأنفس الشح هي الأنفس التي لا تتقي الله في الآخر المناظر في الحقوق والواجبات لأسباب لا تتعلق بالإيمان كما هو حال الزوجين عندما يتخلى الزوج عن زوجه بأسباب الكبر أو عدم الرغبة وهي تود أن تستمر معه ولرعاية أبنائها.

القاعدة:

1 . تجنب شح النفس.

2 . من يتجنب شح نفسه يفلح.

الشح يدفع النفس إلى أكل الحرام.

الاستثناء:

1 . شح النفس.

2 . عدم تجنب شح النفس لا يؤدي إلى الفلاح.

3 . أن لا يدفع الشح إلى أكل الحرام.

***النفس السوية:** هي التي لا ترتكب المعيبات نفس سوية اعتدالاً واتزاناً تميز بين الحق وتحقه وبين الباطل وتعمل على إبطاله، وهي النفس المُلهمة بالحق فتتبعه والملهمة بالباطل

---

682 التغابن 16.

683 النساء128.

فتجتنبه، قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}[684]. النفس السوية دائما تتخذ بين هذا وذاك قواما.

***النفس اللوامة:** إن كانت مع قواها وجنودها في حراب وقتال وشجار ونزاع، فتارة تنزع إلى جانب العقل فتتلقى المعقولات وتثبت على الطاعات وتارة تستولي عليها القوى فتهبط إلى الحضيض فهذه النفس نفس لوامة غير ثابتة على موقف متأرجحة فهي بين هذا وذاك، تلوم على ما فعلت من سلبيات وإيجابيات ولهذا فهي النفس المعرضة دائما للوم، وهذا اللوم يتخذ سبيلين:

السبيل الأول: العودة عن المنهي عنه: بالرجوع إلى ما أمر الكريم به، وهذه لازلت تتخير فإن ثبتت على الحق واستقرت أصبح صاحبها من الخلفاء المتصفين بالنفس المطمأنة، وإن بقيت متذبذبة بين ارتكاب السلوك المنهي عنه والسلوك المرضي عنه فهي لا زالت الموصوفة بالنفس اللوامة. قال الله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}[685]. النفس اللوامة هي غير الثابتة على اليقين، ولهذا كان القسم بيوم القيامة ولم يكن بالنفس اللوامة. الكريم عز وجل دائما يقسم بالثوابت والآيات العظام ولا يقسم بالمهتزات، فقد اقسم بيوم القيامة، وبالفجر والعصر، والضحى والليل إذا سجى، والشفع والوتر، ياسين والقرآن الكريم وغيرها من الآيات الثابتة الدالة على الوجود ألإعجازي لله تعالى، ولذا فقوله (ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) تعني نفيه القسم بالنفس اللوامة ولا تعني القسم بها كما جاء في قوله (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ).

السبيل الثاني: سبيل العودة عن المُفضَّل والمُحبَّب: النفس اللوامة هي التي قد تفعل خيرا ثم تندم على فعله، وهذه النفس هي الراجعة المائلة المتأرجحة سالبا، وفي هذه الحالة كمن يقوم بمعروف ومغفرة ثم يتبعهما بأذى مصداقا لقوله تعالى: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ

[684] الشمس 7- 8.

[685] القيامة 2.

مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[686]. إنها النفس التي تتقدم خطوة وتتأخر إلى الخلف أربع خطوات، ولكن لازالت الفرصة أمامها وهي إمام الرحمن الرحيم وبين يديه واسع المغفرة، ويجوز أن تنتقل إلى النفس المطمأنة إذا تولى أمرها مربون ووعاظ للخير وفاعلون للمعروف وناهون عن المنكر.

***النفس العادلة: (مجال العدل النفسي):**

يحتوي هذا المجال على العلائق القيمية الآتية:

(علاقة الشخصية، وعلاقة إثبات الذات، والعلاقة الضميرية، وعلاقة الواجب، وعلاقة الحقيقة، وعلاقة الواقع، والعلاقة الجنسية).

هذه العلائق تؤثر في علائق أخرى وتتأثر بها، تفيد في التحليل النفسي للأفراد والجماعات والمجتمعات من خلال التعرف على اتجاهاتهم وميولهم والقيم التي يتمسكون بها أو التي يحيدون عنها مما يجعلهم يتخذون مواقفا وأدوارا متباينة تختلف من وقت لآخر.

ولتحليل مجال العلائق القيمية النفسية ينبغي أن يهتم البحاثة بمعرفة علم الخفايا الذي يجعل من الأفراد متفاعلين ومتفائلين أو منطويين ومتقوقعين في حالة إقدام أو إحجام، وفي حالة مشاركة أو في حالة عزلة ووحدة. إن معرفة علم الخفايا يمكّن البحّاثة من معرفة العلل والأسباب الكامنة وراء الأفعال المرتكبة، ولذا فهو علم معرفة الباطن (الجوهر)، الذي يتطلب تحليل شخصية المبحوث تحليلا نفسيا غير مباشر، فالسلوك الظاهر قد لا يعبر عن حقيقة الكامن، ولذا يلتجئ المحلل أو الباحث إلى استخدام الأساليب الإسقاطية في دراسة بعض المواضيع المتعلقة بالشخصية.

إن النفس البشرية تقوى وتضعف بالكلمة أو بالفعل أو بالسلوك، وتتأرجح بين الخيال الممكن والخيال غير الممكن تارة وبين المتوقع وغير المتوقع تارة أخرى، عندما تضعف تضطرب، وعندما تقوى تطمئن. معايير اختياراتها القيمية في بعض الأحيان تتمركز على الأفعال

---

[686] البقرة 263- 264.

الأنانية، وفي بعض الأحيان الأخرى تتمركز على الذاتية أو الموضوعية، وفي حين آخر تتشتت الذات بين الميول إلى الأنانية أو الميول إلى الموضوعية، وهذا يعني أن مجال العلائق القيمية النفسية قد تندمج فيه مكونات الشخصية مما يجعل عناصر الذاتية جزاء لا يتجزأ من عناصر الأنانية أو عناصر الموضوعية، وهذا يتماثل مع قطاعات خماسي تحليل القيم الذي يمكّن البحّاثة من معرفة محتويات النص أو الخطاب أو الشخصية قيد البحث والدراسة.

إن القيم التي يحتويها مجال العلائق النفسية تنصهر في بوتقة الاعتراف والتقدير التي يتمركز عليها التفكير الإنساني، حيث الكل يسعون إلى نيل الاعتراف والتقدير وعلى جميع المستويات، مستوى الحاكم ومستوى المشارك ومستوى المحكوم، ومستوى الحر ومستوى العبد، فالعبد كغيره من البشر يبحث عن قيمة الاعتراف والتقدير، أن يعترف له سيده بأنه مخلص لكي يزيد في الطاعة وأن يقدره على هذا الإخلاص، والابن الذي يطيع والديه في غير معصية الله عز وجل يريد أن ينال منهما الاعتراف والتقدير لكي يستمر في هذه الطاعة، وهكذا الحاكم يسعي إلى أن ينال الاعتراف والتقدير من رعيته بأن النظام الذي يترأسه هو الأفضل وأن يقدروا هذا التفضيل، أو أن يقدروا الظروف التي لم تمكّنه من تحقيق خطابه أيام الدعاية الانتخابية، وهكذا المحكومون يسعون لنيل الاعتراف والتقدير من الحاكم على تحملهم فترة حكمه وأن يقدّرهم على هذا التحمّل. ولذلك فإن البدائل القيمية لهذا المجال العلائقي تستوجب استخدام الخماسي في التعرف على السلوك الذي يتغير حاله من شخص لآخر ومن ظرف لظرف خاصة وأن السلوك البشري يسعي إلى تحقيق الاعتراف والتقدير في مقابل إشباع الحاجة كما هو مبين في الآتي:

. سلوك يعترف بالحاجة ويقدّرها، يحقق الرضاء ويؤدي إلى إثبات الذات.

. سلوك لا يعترف بالحاجة ولا يقدّرها، يحقق الاضطراب ويؤدي إلى الانسحابية.

. سلوك يعترف بالزائد عن الحاجة ويقدره، يحقق الرضا ويوصف بالعقلية.

. سلوك لا يتدخل في ما لا يعنيه، يحقق الرضا ويوصف بالمنطقية.

. سلوك لا يُفعل إلى لمصلحة، يحقق الرضا ويوصف بالشخصانية.

وعليه فمن العدل أن لا يتم الإغفال عن المستوى القيمي الذي تكون عليه شخصية الأفراد والجماعات والمجتمعات حتى يتم التمكن من تفعيل مشاركة الشخصية وفقا للحالة التي هي عليها ومدى سلامتها وملائمتها لقبول الفعل أو رفضه، ولهذا قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}[687] النفس الأمَّارة بالسوءِ لا يمكن أن ينتصر أصحابها، وهذا ما ألم باليهود في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لم يتقوا ربهم بما جاء به محمد صلوات الله وسلامه عليه. ولذلك جاء قوله (واتقوا) أي: خافوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى، أي: لا تغني (نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ) فيه (شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ) والعدل هنا يعني الفداء، ولهذا لا يمكن أن يحل احد محل آخر في ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمل مسؤولياته، وفي كل ما يحقق له الرضا النفسي أو يحقق له الشقاء، فعلى سبيل المثال: المستعمر لا تدخل نفسه الفرحة إلا على حساب الذين بلدانهم احتلت من قبله، ولذا ما يرضي النفس المستعبِدة ليس هو ما يرضي النفس المستعبَدة. (وَلاَ تَنفَعُهَا شفاعة وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ) يمنعون من عذاب الله.

يقول الله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[688].

جاء أمر العدل مطلق دون اقتصار على عدل بذاته، وتبعه أمر الإحسان مطلق، وتبعهما أمر الإيتاء لذي القربى مطلق حيث وجوبية الحق بالإتباع والطاعة. ولأنها أوامر من عند الله فإتباعها والأخذ بصفاتها طاعة لله تعالى وأخذ بصفاته، وعدم الأخذ بها عصيان لا يقدم عليه إلا كافر فليتقي الإنسان ربه بالطاعة التامة له واحداً أحداً لا شريك له. ولهذا فالخلفاء هم الذين إذا حكموا هم يعدلون بالحق، وللإحسان هم فاعلون، وللعطاء لأصحاب الحقوق عليهم

[687] البقرة123.

[688] النحل 90.

من ذي القربى وافون، وهم الذين ينهون عن الفحشاء والمنكر والبغي، وجميع هذه المواعظ من الرحمن الرحيم العادل في ملكه، ولأن هذه المواعظ والأوامر هي في اللوح المحفوظ فإن التذكير بها يستوجب العودة إليها وإلى الأسرار التي تكمن من ورائها. ثم أمر تعالى بإيفاء العهد وعدم نقض الإيمان بعد توكيدها والله تعالى شاهد على ذلك، فليتقِ الإنسان ربه ويتبع أوامره ويبتعد عما نهى عنه ويحمده ويشكره على فضله.

وعَنْ مُحَمَّد بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: دعاني عمر بن عَبْد العزيز، فقال:"صف لي العدل، فقلت: بخ سألت عَنِ أمر جسيم، كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابنا، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس عَلَى قدر ذنوبهم، وَعَلَى قدر أجسادهم، ولا تضربن بغضبك سوطاً واحداً متعدياً، فتكون مِنَ العادين"[689].

ومن الأمانة العدل لأنه بإقامة العدل يستقر المجتمع ويأمن الفرد على نفسه وعرضه وماله وتسود روح المحبة بين الجميع والله العدل يأمر بأداء الأمانة والحكم بين الناس بالعدل فيقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[690]. قال تعالى: (إذا حكمتم بين الناس) ولم يقل إذا حكمتم الناس، فالحكم بين الناس له اشتراطات:

أولا: وجود طرفين أو أكثر فرادى أو جماعات أو مجتمعات.

ثانيا: وجود اختلاف على موضوع لهم علاقة به.

ثالثا: وجود عادل.

رابعا: القبول بالحَكم (أن يكون مرضيا للأطراف المختلفة أو المتنازعة أو المتخاصمة).

خامسا: قبول الحَكم بأن يحكم بينهم حيث لا أكراه.

---

[689] تفسير ابن أبي حاتم ج 9 - ص 114.

[690] النساء 58- 59.

ولهذا جاء في قوله تعالى: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناس أَن تَحْكُمُواْ بالعدل إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ الله كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً).

وقال الله تعالى حاثا النفس على العدل بوسائله المتعددة وأساليبه المختلفة من أمر بمعروف ونهي عن منكر وإعراض عن الجاهلين الذين تخلفوا عن ركب العدل ولم يرض أن يكون من الخلفاء الذين يتحلون بصفة العدل اشتقاقا تحليا بصفة العدل من مصدره وفي ذلك قال تعالى: {خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين}[691] وقوله تعالى: {إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي}[692]. فثبت أن القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلوم الشريفة، العقلي منها والنقلي، اشتمالاً يمتنع حصوله في سائر الكتب فكان ذلك معجزاً، وإليه الإشارة بقوله: (وَتَفْصِيلَ الكتاب).

أما قوله: (لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبّ العالمين) فتقريره: أن الكتاب الطويل المشتمل على ما تعرضه كتب العلوم الكثيرة لا بد وأن يشتمل على نوع من أنواع التناقض، إما هذا الكتاب الحكيم فلا يدخله الباطل من خلفه ولا من بين يديه، إنه المحفوظ بعدل الله وقوته وحفظه، ولذلك لا شك في ما جاء به من آيات عظام حيث لكل آية إعجاز لا يقدر عليه بشر. ولهذا قال تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً}[693]. بطبيعة الحال لو كان من عند البشر لكان الاختلاف باختلاف اللغات والأديان والثقافات والأذواق والأعراف والعادات والقدرات والاستعدادات التي هي الأخرى تختلف من شخص لآخر، وكذلك باختلاف الاتجاهات والمصالح والأطماع والحاجات ودرجات إشباعها.

وقد عاد بلفظ الاستفهام على سبيل الإنكار، فقال: (أَمْ يَقُولُونَ افتراه) ثم إنه تعالى ذكر حجة أخرى على إبطال هذا القول، فقال: {قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مّثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم مّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صادقين}[694] وهذه الحجة بالغنا في تقريرها في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: {وَإِن

---

[691] الأعراف 199.

[692] النحل 90.

[693] النساء 82.

[694] يونس 38.

كُنتُمْ في رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وادعوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّه إِن كُنتُمْ صادقين}[695]. وهنا تظهر عدة أسئلة منها:

السؤال الأول: لم قال في سورة البقرة : (مِّن مِّثْلِهِ) وقال ههنا: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ).

والجواب: أن محمداً عليه السلام كان رجلاً أمياً، لم يتتلمذ على أحد ولم يطالع كتاباً فقال في سورة البقرة: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) يعني فليأت إنسان يساوي محمداً عليه السلام في عدم التتلمذ وعدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هذه السورة، ولذا حيث ظهر العجز ظهر المعجز. فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزة إنه أمر تسليم بالنسبة للمؤمن، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد عليه السلام في عدم التتلمذ والتعلم معجز، ثم إنه تعالى بين في هذه السورة أن تلك السورة في نفسها معجزة، فإن الخلق وإن تتلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا، فإنه لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور، فلا جرم قال تعالى في هذه الآية: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) ولا شك أن هذا ترتيب عجيب في باب التحدي وإظهار المعجز.

السؤال الثاني: قوله: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) هل يتناول جميع السور الصغار والكبار، أو يختص بالسور الكبار.

الجواب : هذه الآية في سورة يونس وهي مكية، فالمراد مثل هذه السورة، لأنها أقرب ما يمكن أن يشار إليه[696].

ونقول نحن الآن في القرن الواحد والعشرين: هل يستطيع أي إنسان على وجه البسيطة أن يأتي بمنهج يحقق العدل وينصف الفقير من الغني والضعيف من القوي والمرأة من الرجل، أو أن يأتي لنا بمنهج يساوي مساواة حقيقية بين بني البشر فقد قال صلى الله عليه وسلم فعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الناس كأسنان المشط"[697]. وقال

---

[695] البقرة 23.

[696] تفسير الرازي ج 8 ص 283.

[697] مسند الشهاب القضاعي ج 1 ص 310.

الله تعالى في سورة النحل في الآيات السابقة الذكر: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).

إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان، فجمع الله في هذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضاً ونفلاً، وما يتصل بالأخلاق والآداب عموماً وخصوصاً، وفي الآية مسائل:

. يقول تعالى: فإلى ذلك الدين الذي شَرَع لكم، ووصّى به نوحا، وأوحاه إليك يا محمد، فادع عباد الله، واستقم على العمل به، ولا تزغ عنه، واثبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة. (فَلِذَلِكَ فَادْعُ): فإلى هذا القرآن فادع واستقم .

. وقوله: (وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) يقول تعالى: ولا تتبع يا محمد أهواء الذين شكُّوا في الحقّ الذي شرعه الله لكم من الذين أورثوا الكتاب من بعد القرون الماضية قبلهم، فتشك فيه، كالذي شكوا فيه.

يقول تعالى: وقل لهم يا محمد: صدّقت بما أنزل الله من كتاب كائنا ما كان ذلك الكتاب، توراة كان أو إنجيلا أو زبورا أو صحف إبراهيم، لا أكذب بشيء من ذلك تكذيبكم ببعضه معشر الأحزاب، وتصديقكم ببعض[698].

. وقوله: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[699]. جاء الأمر لسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه بأن يدعو بما أُمر، بدعوته المستقيمة، وبالعدل لن يتبع أهواءهم، وطلب منه أن يُعلِمهم بما آمن به من عدل، وبما يدعو ولمن يدعو. يقول تعالى: وقل لهم يا محمد: وأمرني ربي أن أعدل بينكم معشر الأحزاب، فأسير فيكم جميعا بالحق الذي أمرني به وبعثني بالدعاء إليه[700].

---

[698] تفسير الرازي ج 9 ، ص 451.

[699] الشورى 15.

[700] تفسير الطبري ج 21 ، ص 516.

وعليه فالعدل: هو المحقق للاتزان النفسي والوجداني والبدني وذلك بمراعاة ما يجب والأخذ به ومراعاة ما لا يجب والابتعاد عنه، وذلك لأن كل شيء يزيد عن حده ينقلب إلى ضده، وفي المجال النفسي تطمئن النفس برجوعها لله تعالى العادل المطلق مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}[701]، ورضا النفس لا يتحقق إلا بالعدل، ولذلك فمن يظلم العباد يشقى في الدارين، ومن يعدل بما يحقق له الاتزان النفسي والبدني يتحقق له الرضا بعمله الصالح في الأرض ويفوز بالجنة، ولذا فإن العادل المطلق يخاطب النفس المطمئنة مباشرة بقوله {يا أيتها النفس المطمئنة) ثم يأمرها بالرجوع إلى بارئها جل جلاله فتطيعه عدلا، وقوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[702]. تسوية النفس اعتدالها، وسوَّاها عدلها، وبعدله لها أطمأنت، وبالاطمئنان ألهمها الله فجورها وتقواها، حتى أنها تبيَّنت أمرها ورشدت بمعرفة ما يجب فتزكت وعرفت ما لا يجب فانتهت عنه، وبهذا فهي النفس العادلة التي تحيد عن الشيء وتبتعد عنه اتباعا لأمر العادل المطلق وهداية بما جاء به عز وجل، لأجل أن تأخذ بما أمر جل جلاله.

فهذا هو العدل في أبهى صوره مع النفس والجسد والروح ومع الله ومع الغير ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يأمر بمثل ذلك وأن يدعو إليه وأن يستقيم على ذلك المنهج يقول الله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[703].

قوله (فَلِذَلِكَ فَادْعُ) أي: فالذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

---

[701] الفجر 27 ـ 29.

[702] الشمس 7 ـ 10.

[703] الشورى 15.

وقوله: (وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) أي: واستقم أنت ومن اتبعك على العدل وعبادة الله، كما أمركم الله عز وجل.

وقوله: (وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) يعني: أعدل ولا تلتفت إلى المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان فإنها زائلة وفاقدة لصفة الديمومة والبقاء.

وقوله: (وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ) أي: آمنت بالعدل وصدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على، ولهذا من العدل أن لا نفرّق بين كتبه ورسله الذين قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

وقوله (وأمرت لأعدل بينكم) جاء العدل صراحة مباشرة للتأكيد على كل المضامين السابقة الذكر، ولأنه خليفة لله في الأرض فهو المطيع لأمره وليس له بد إلا العدل بين العباد فيما هم فيه مختلفون أو مختصمون.

وقوله (الله ربنا وربكم) وهذه عين العدل أن يكون الله للجميع وليس لأحد كما هو حال المشركين الذين اتخذوا من دونه أربابا.

وقوله: (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) لا يظلم أحد، فمن عمل صالحا فله ومن عمل طالحا فله، وهذه عدل من عادل لا يظلم، أي بظهور الحق تبيَّن الأمر من عمل صالحا فلنفسه ومن ضل فما ربك بظلام للعبيد.

وقوله: (لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ) لقد ظهر الحق عدلا وافيا، فلا حجة بعده بيننا وبينكم أي بعد أن تبين الحق فلا داعي للمحاجة، الحق نور لا يخفى عن مبصر ولا بصيرة.

وقوله: (الله يجمع بيننا) فيما اختلفنا فيه بعد ظهور الحق فالعادل المطلق يجمع بيننا على الحق، فلا داعي للاختلاف وعلينا بتقواه وعدم الشرك به إلها واحدا عادلا في ملكه.

وقوله: (وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) كل شيء يعود إليه، المستقبل وعلم الغيب يعلمهما بالتمام والكمال العادل الذي بعدله يجمع بيننا، ولهذا فهو مرجع الكل بفضل القضاء العادل، فالمصير إليه وحده لا شريك له.

أوجه الفعل

للفعل أوجه تكتمل ملامحها بعد انتهاء الأداء، وهذا من مقاصد الفعل فيرتسم شكلاً أو يولد حركةً أو يعبر عن شعور أو يدوي صوتاً وعلى النحو الآتي:

1 . الشكل ترتسم ملامح محدد للفعل بعد انتهاء أدائه فيأخذ شكلا معيناً على اتجاهين مادي ومعنوي:

أ . المادي، لاشك أن الفعل الذي يستند على استعدادات كافية والمنطلق من إرادة راسخة منبها تهيؤ واضح يحقق على المستوى المادي شكلا منسجماً مع المعطيات السابقة والمقاصد اللاحقة، فلو أن رجلاً قصد أن يصنع مركباً فانه يمكن تلمس ملامح الفعل في أثناء الأداء بينما يتضح شكل الفعل بعد انتهاء أدائه ويكون بشكل صورة مركب، فشكل الفعل يتضح في أثناء الأداء وبعده.

وهذا الفعل وسواه يأخذ شكله من المعطيات السابقة للفعل(تهيؤ، إرادة، استعداد) ومنسجم مع المقاصد التي يريد الفاعل تحقيقها جرّاء فعله، ولنتأمل قصة ذي القرنين التي يخبرنا بها العليم الخبير جل في علاه فيقول : {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}[704]، يتضح من هذه القصة طبيعة ارتباط الفعل بالمعطيات السابقة والمقاصد اللاحقة، حيث إن الأقوام شكت إلى ذي القرنين عبث يأجوج ومأجوج، هنا حصل التهيؤ ثم جاء قرار الإرادة ثم تلاها الاستعداد (بجلب الحديد) ثم كان الفعل (بناء السد) كل هذا يرتبط بالمقصد الأحق حيث سيمنع السد الفساد ليختفي فيظهر آنذاك الإصلاح والإعمار. وهكذا فإن ظهور السد يدلل على تحول الفعل إلى مفعول قابل للملاحظة والمشاهدة والاستخدام.

---

[704] الكهف 93-97.

ب . المعنوي ، يتجه الفعل في مقصده نحو هيأة يمكن تصورها، فالذي يطعم الطعام يقوم بأداء مخصوص فيتجسم آنذاك شكل فعل الكرم ، والفارس الذي يحارب بقوة وثبات إنما هو يرسم لنا ولغيرنا تصوراً للشجاعة.

وتصور الفعل المعنوي أوسع من الحصر، فكل فعل يقصد الفاعل فيه ترك الأثر المعنوي في الآخر يرتسم معنوياً لا مادياً وإن كان الأداء ماديا كما في إطعام الطعام وغير ذلك ، ولتوضيح ذلك نقرأ قوله عز وجل : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[705]، "وفي الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وأنه الأسوة الحسنة لا محالة ولكن ليس فيها تفصيل وتحديد لمراتب الائتساء والواجب منه والمستحب وتفصيله في أصول الفقه . واصطلاحُ أهل الأصول على جعل التأسّي لقباً لاتباع الرسول في أعماله التي لم يطالب بها الأمة على وجه التشريع"[706]. فمعظم أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم يجب أن يترك فينا انطباعا لتصور معنوي هو مقصود الائتساء المراد منا تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم.

2 . الحركة، إن الزمن المتضمن في الفعل يستدعي ولاشك حركة، ولحظة السكون تعني ألا حركة بلا زمن، وعليه فالحركة فعل والسكون فعل.

والحركة التي في الفعل تعبير عن صورة الأداء ما استمر فإذا توقف الأداء توقفت الحركة وبقيت صورة مقصد الفعل، فالفعل يغربل يرتسم ما دام الفاعل يؤدي الغربلة، فإذا توقف انتهى فعل الغربلة وبقيت صورة المغربل(المقصد)، وهكذا بقية الأفعال مثل يهز ويركض ويقفز وغير ذلك من أفعال الحركة، في ترسم شكل الحركة ما قام الفاعل بها وحين التوقف يصبح الفعل ماضٍ. فيقال غربل أو هز أو قفز .

وعلى مستوى أعم نقول إن الفعل في أحد وجوهه حركة تدل على الاستمرارية والتوقف هو إشارة إلى انتهاء الفعل وبداية فعل جديد، وهذا ينطبق على الماديات والمعنويات على حد

---

[705] الأحزاب 21.
[706] تفسير ابن عاشور ج11ص 229.

سواء، فالإحسان فعل (المصدر يدل على فعله)[707] ، يعبر عن الاستمرار في حركة الإحسان ما دام المحسن مستمر في إحسانه فإذا توقف لم يعد للفعل ولا حركته تصوراً آنيا وإنما سيكون مثل لوحة انتهى رسمها.

3 . الشعور، من مقاصد بعض الأفعال رسم الشعور أو طبعه في ذات الآخر، لأنه بدون الشعور تصبح الذوات ميتة وغير قادرة على التفاعل فيما بينها قبولاً أو رفضا، فحين ترى الطفل يبكي فهو في الواقع في حالة من فعل البكاء لكنه يحرك في ذاتك شعور عاطفي تتجه نحوه بالمودة والرحمة، ولو عكسنا الأمر لتقع أعيننا على شامت أو عدو يضحك بقصد النيل عندها لاشك سوف يحصل ويرتسم شعور البغض والرفض لهذا الفعل.

4 . الإيحاء، قد يقصد ببعض الأفعال مقصد الإيحاء، وهو"إعلامٌ في خفاءٍ"[708]، ولنتأمل قول الله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[709]، فملامسة النساء لا يقصد بها هنا الملامسة السطحية عند أغلب الفقهاء بل هي إيحاء بما يكون بين الرجل والمرأة مما ينقض الوضوء (الملامسة)، وهذا الإيحاء جاء من جلال الله سبحانه لتكريم هذه العلاقة بما يليق بسترها من الستار جل في علاه.

ولو تأمل المتأمل في حرص الخالق ورحمته بالعباد لسبح كثيرا وشكر كثيرا، فما من أمر إلا والمولى عز وجل يخاطب به عباده بما يليق به وبما يرضيهم، وأكثر ما يدل على ذلك آية من آيات الذكر الحكيم تقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

707 الأصول في النحو ابن السراج ج1 ص 268.
708 المغرب في ترتيب المعرب، المطرزي ج2ص 344.
709 المائدة 6.

التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[710] ، في الآية إيحاء يدل على حسن مراعاة وصون حياء وإكرام مقام المرأة والرجل على حد سواء.

5 . الصوت، قد يقصد بالفعل إدراك الصوت، ففي بعض الأفعال يتردد الصوت ولا شيء غيره، فالمؤذن مثلا يقوم بفعل صوتي والمقصد فيه صوتي، والعازف على آلة موسيقية ينتظر منه الصوت الذي يصدر عن فعل العزف.

متطلبات الفعل

الفعل يتقدم على فاعله في اللغة أصلا كقوله تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}711، واستثناء يتقدم الفاعل كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}712، لأن الفعل مثبتا كان مثل قوله تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}713، أم منفيا كقوله تعالى: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ}714 يقتضي أمراً ما، يكون الفعل مسنداً إليه، لأن حصول ماهية الفعل في العقل يستلزم حصول شيء يسند العقل ذلك الفعل إليه، والمنتقل إليه متأخر بالرتبة عن المنتقل عنه، فلما وجب كون الفعل مقدماً على الفاعل في الذهن وجب تقدمه عليه في الذكر.

لذلك قال أهل اللغة أن الفعل متقدم على فاعله لفظا ورتبة، والمنطق يقول أن الفاعل هو الذي يتقدم على الفعل منطقيا، الدليل أنه لولا وجود الفاعل مسبقا لما كان للفعل حدوث، فلو تجاوزنا اللغة وأتينا إلى المنطق لوجدنا أن المقدمات أولا ثم الأسباب فالنتائج، وبمعنى آخر يأتي المحدِث أولا ثم الحادث مُحدَث، وعلى هذا يكون التسلسل هو: الفاعل ثم الفعل فالمفعول.

---

[710] البقرة 222.

[711] - البقرة 7.

[712] - البقرة 132.

[713] - آل عمران 54.

[714] - النساء 148.

إن لكل فعل متطلباته ومترتباته من الأسباب والنتائج والأهداف، وهي تحتاج إلى أدوات من أجل الوصول إليها، وهذه الأدوات هي الوسائل الممكّنة من الهدف في زمانها ومكانها التي تقع فيه، لذلك وجب للفعل فاعل وهدف ووسيلة ومفعول وزمان ومكان، وسوف نتناول كل مفردة من هذه المفردات على حدة.

1- الفاعل: عندما نتكلم عن الفاعل لا نقصد به المعنى الفلسفي الذي يبحث عن ماهية الفاعل، الذي يُخرج ما هو بالقوة إلى ما هو بالفعل، وهو من أهم أسس العلم الإلهي، حيث ينبغي أن يكون هذا الفاعل موجودا بالفعل، من حيث هو فاعل لهذه المفعولات، فقد قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}715 فهذه الآية تتضمن الكلية الكونية بإسناد فعلها إلى الله تعالى، وما تتضمنه أيضا من جزئيات الأفعال وفواعلها بأنها مخلوقة من الله تعالى.

وهذا النوع من فعل الفاعل هو قريب النتائج، وأما فعل الفاعل البعيد النتائج، فنأخذ مثلا من أفعال رسول الله عليه الصلاة والسلام، حيث قال ربيعة بن كعب كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: "يا ربيعة سلني فأعطيك، قلت: أنظرني حتى أنظر، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة فقلت: يا رسول الله، أسألك أن تدعو الله أن يجنبني من النار ويدخلني الجنة، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: من أمرك بهذا؟ قلت: ما أمرني به أحد، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذي أنت به أحببت أن تدعو الله، قال: إني فاعل، فأعني بكثرة السجود"716 فهنا أكثر من فعل وأكثر من فاعل لتحقيق الهدف بالوسيلة، حيث إن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الفاعل لفعل الدعاء كي يدخل هذا الصحابي الجنة، ولكن هذا الأمر يتطلب فعل فاعل مساعد من أجل تحقيق الهدف بالوسيلة التي أشار إليها عليه الصلاة والسلام وهي السجود، وإن كان السجود فعل من طلب الجنة، فهو كذلك سبب الرسول إلى الله لإدخال فاعل السجود الجنة.

715 - الأعراف 54

716 - المعجم الكبير ج 4ص445

إذن هناك فعل يصدر من فاعل لا تتحقق نتائجه إلى بفعل فاعل آخر يكون ملازما له أو متأخرا عنه، كما أن هناك أكثر من فعل يصدر من فاعل واحد لتحقيق الهدف، وذلك لأن فعلا يترتب عليه فعل آخر من الفاعل نفسه لبلوغ الغاية كما في قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}717 ففعل المحبة لله تعالى يترتب عليه فعل إتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا يعني أن فعلين صادران من فاعل واحد لبلوغ غاية. كما أن فعلي المحبة والغفران صادران من فاعل واحد هو الله تعالى، ومن عجائب هذه الآية أن الفعلين الصادرين من فاعل واحد هو المخلوق، كان جزاؤهما فعلين صادرين من الخالق، ففاعل المحبة قابله فاعل الحب وفاعل الإتباع قابله فاعل الغفران، وفي الحالتين هو نفسه نفسه.

فكل فعل بالضرورة لابد له من فاعل هذا إذا لم يكن مبنياً للمجهول وإذا كان كذلك فلابد له من نائب للفاعل الذي هو فاعل للفعل حقيقةً، إلا أنه حذِف لعدة أسباب معروفة لأهل اللغة وهي :

الجهل به: الجهل بالفاعل من جهة المتكلم.

العلم به على وجه العموم بين المتكلم والمخاطب.

الخوف منه: خوف المتكلم من الفاعل نتيجة تهديده له.

الخوف عليه: خوف المتكلم على الفاعل من وقوع العقاب عليه إن عُرِف.

والفاعل إما أن يكون مضمراً أو ظاهراً وفي كلا الحالتين فالفعل بالضرورة واقع منه بإرادة.

2- الهدف: هو المراد تحقيقه وهو الذي يسعى الإنسان للوصول إليه، وعلى هذا يكون الهدف مطلب الفاعل يريد إدراكه ونيله بالوسائل الموصلة إليه عن طريق الفعل أو يبتغيه أحد من الفاعل، فقد يكون هدفا واحدا، وقد تكون أهدافا متعددة.

أ- الهدف المفرد من فعل الفاعل وإن كان من توابعه أهداف جزئية مثل قوله تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ

---

717 - آل عمران 31.

شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}718 إن زكريا عليه الصلاة والسلام هو فاعل المناداة لله تعالى، حيث ابتغى من خلالها هدفا يترتب عليه هدف، وليس من باب تعدد الأهداف، لأن أحدهما أصل والآخر فرع عليه، فإذا انتفى الأول انتفى الثاني بانتفائه، وإذا تحقق الأول قام فرعه على أصله، فالهدف أن يهب الله تعالى غلاما لزكريا، يترتب عليه وراثة النبوة من أبيه ومن آل يعقوب، ذلك أن الفاعل هو الذي يحدد الهدف أو الأهداف ويفسرها ويظهر مسوغاتها ويكشف عن منطقيتها ويرشد إلى كثير من نظمها وفق ماهية الأفعال التي يقوم بها.

ب- الأهداف المتعددة من فعل الفاعل وذلك في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}719 فقد ترتب على ذلك أربعة أهداف يراد الوصول إليها، وهي:

- الأكل.
- الاطمئنان.
- التصديق.
- الشهادة.

وهذه أهداف الحواريين، غير أن أغراض النبوة تختلف عن أهداف العامة من ذات الفعل ومن الفاعل نفسه، فحين أجابهم إلى طلبهم لم تكن الأهداف هي ذاتها، لأن هدفهم قائم على الشك، وهدفهم بالنسبة لعيسى عليه الصلاة والسلام هو يقين لا شك فيه، لذلك تباينت الأهداف بينه وبينهم في الفعل الواحد من الفاعل نفسه حيث قال تعالى: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآَخِرِنَا وَآَيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا

718 - مريم 2-6.
719 - المائدة 112- 113.

وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}720 ، فهدفهم من طلب إنزال المائدة الاطمئنان إلى صدق النبوة، وغرض عيس عليه الصلاة والسلام معجزة وتثبيت تشريع.

3- الوسيلة: وهي الأداة الموصلة إلى الغاية وما يتوصل به إلى الحاجات ويتقرب به إليها، ولا نقصد بها الوسيلة العظمى التي نسأل الله تعالى أن يؤتيها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فهذه وسيلة مخصوصة، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قال حين يسمع الأذان: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته؛ حلت له شفاعتي يوم القيامة "721 فهذه وسيلة مخصوصة من الله تعالى لعبد من عباده، وقد فسرها عليه الصلاة والسلام بقوله: "إذا سمعتم المؤذن يؤذن فقولوا كما يقول، وصلوا عليَّ، فإنه ليس أحد يصلي عليَّ صلاة إلا صلى الله عليه عشرا ، وسلوا الله لي الوسيلة، فإن الوسيلة منزلة في الجنة، لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكونه، ومن سألها لي حلت عليه شفاعتي يوم القيامة "722.

4- المفعول: ليس المفعول الذي نقصده بالمعنى اللغوي الذي يأتي منصوبا بصرف النظر عن نوع مفعوليته (به، فيه، معه، لأجله، مطلقاً) وإنما الكلمة أو الجملة أو العبارة التي يقع عليها فعل الفاعل فتكون مفعولة لهذا السبب، حيث يترتب على ذلك تنفيذ الفعل والإلتزام به من قبل المفعول الذي يحمل صفات جديدة بعد وقوع فعل الفاعل عليه، قال تعالى: { أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا}723 إن السموات والأرض كانتا في بدء خلقهما ملتصقتين ببعضهما، وعندما وقع عليهما فعل الفتق انفصلت كل واحدة منهما عن الأخرى، فقد وقع عليهما فعل الفاعل فأصبحتا مفعولتين له، مما ترتب عليه تغيير في مواصفاتهما المادية بعد وقوع الفعل.

---

720 - المائدة 114.

721 - صحيح ابن حبان ج7 ص375.

722 - السنن الكبرى ج1ص409.

723 - الأنبياء 30- 32.

5- الزمان: قائم مع الحركة، والحركة مرتبطة معه، وعلى هذا فلا زمن بلا حركة ولا حركة بلا زمن، ولما كان الله تعالى خالق الحركة والزمن كانت أفعاله خارجة عنهما، بدليل أن خلق السماوات والأرض، قبل حركة الحركة، وهذا يعني قبل مسير الزمن، فأفعاله تعالى خارج الحيز، وحتى بالنسبة للمخلوقين وأفعالهم، فمسألة الزمن نسبية قياسا إلى الحركة، فنحن نقيس الزمن بالحركة، وحركة الأجرام متفاوتة في السرعة، وعلى هذا فالسرعة نسبية قياسا لاعتماد المركز، إذ أن الزمن بالنسبة لنا مصدره حركة الأرض حول نفسها وحركتها حول الشمس، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}724 وهذه الحركة مختلفة بالنسبة للأجرام والكواكب الأخرى وبذلك يكون الزمن نسبيا، وطالما أنه نسبي من كوكب إلى آخر، فلا بد أنه يتلاشى في كوكب ما، أو يكون سرمديا بمعنى الثبات وهو انعدام الزمن،

وأما القمر فإنه يظهر المواقيت بمنازله حيث قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} والميقات هو موعد مرتبط بالمكان يكون جزء من الزمان في يوم مخصوص، لذلك كان قياسه على منازل القمر الذي يتغير شكله بتحول منازله، لذلك قال تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً}725 فحسبت بمنازل القمر على الليالي لأنها ميقات، والميقات نستطيع أن نعيشه ونستغرقه، ومن هنا نتبين الفرق بين الزمان والميقات، حيث أن الزمان يمتد من الماضي إلى الحاضر وصولا بالمستقبل، بينما الميقات جزء من الزمان يكون المكان داخلا فيه.

6- المكان: لا بدّ قبل الكلام عن المكان أن نبين الفرق بين الحيز والمكان، حيث أن المكان يشغل الحيز، سواء أكان هذا الحيز فراغا أو غير فراغ، وليس أحدهما جزءً من الآخر.

فالأرض والشمس والقمر والكواكب والأجرام، هي أماكن تشغل حيزا بحجم مكانها، وعلى هذا يكون المكان هو الحجم الذي يشغل الحيز، ولذلك لا نستطيع أن نقف على الحيز أو نشاهده، وإنما نشاهد المكان الذي شغل جزءً من الحيز، فقوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ

[724] - الأنبياء 33.
[725] - الأعراف 142.

لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ}726 من خلال هذه الآية نقف على الفرق بين الحيز والمكان، حيث أن السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم هي أمكنة شغلت حيزا من الفراغ، بينما الجبال والشجر والدواب والناس شغلت مكانا، وإن كانت تشغل حيزا إضافة إلى مكانها، ولكنه حيز ضمن مكان وجودها وهو المحيط بالنسبة لها، غير أنها لا تشغل جزءً من الحيز المطلق لأنها قائمة على المكان الذي يشغل الحيز.

نريد أن نقول أن أفعال المخلوقين لا بدّ لها من وجود المكان حتى تحقق أفعالها، قال تعالى: {وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آَمِنِينَ}727 فالمكان ليس افتراضيا، وإنما هو واقعي بحجم ما يشغله الفعل مقتطعا من المكان الكلي.

أغراض الفعل

الفعل باختلاف أنواعه لابد أن يكون له أغراض متعددة بتعدد الفاعل نفسه، فكل فاعل قد يكون له غرض مختلف عن غرض فاعل آخر عند قيامهم بنفس الفعل، وبذلك فقد تعددت أغراض الفعل التي منها:

1- إشباع حاجة: من الحاجات الفطرية من أكل، وشرب، وملبس وغيرها من الحاجات الضرورية لحياة الإنسان.

2- تلبية رغبة: الرغبة هي : "محبة الوصول إلى الشيء المحبوب "728.

3- ردة فعل على فعل سابق: مثل الدفاع عن النفس، ورد الظلم عن النفس والآخرين، والانتقام.

4- إطاعة أمر: والأمر قد يكون بفعل الخيرات مثل أوامر الله عز وجل والذي لم يأمرنا بشيء ولم ينهانا عن شيء إلا وفيه الخير للمخلوق وهذا ما توصل إليه العلم الحديث من إثبات فوائد الصوم والصلاة والعبادات الجسدية والنفسية ،وكذلك فوائد ترك شرب الخمر

726 - الحج 18.

727 - الحجر 82.

728 تيسير الوصول إلى الثلاثة الأصول ج1 ص71.

والغيبة والنميمة وغيرها من النواهي على مستوى الفرد والمجتمع، وكذلك أمر الرسل، والأولياء الصالحين، والقدوة الحسنة، والدعاة الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قال تعالى: {لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}729 وقد يكون الأمر من النفس الأمارة بالسوء التي تأمر صاحبها بأفعال السوء والمعاصي قال تعالى:{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}730، وكذلك أمر رفاق السوء والقدوة السيئة.

5- التخلص من فعل سابق: ففعل التوبة مثلا يكون من أجل التخلص من أفعال سابقة ندم عليها لأنها كانت أفعال سيئة.

والفعل بمختلف أغراضه منه ما هو زائل ومنه ما هو باقٍ، فالأفعال الزائلة هي المتعلقة بأمر من أمور الدنيا فقط كالأكل والشرب والبيع والشراء والزواج والبناء ... وغيرها من الأفعال الدنيوية التي تزول بزوال الدنيا وفنائها، قال تعالى: {وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}731، إلا ما رُوعيَ فيه عند القيام به مرضاة الله تعالى والابتعاد عن ما يغضبه ، فهو وإن زال هذا الفعل الدنيوي كالبناء مثلاً فإن ثوابه باقٍ في الآخرة إن كان من مال حلال ولم يُقْصَد به التكبر على العباد أو إن إثمه باقٍ إن كان غير ذلك مصداقا لقوله تعالى: { وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[732].

الأفعال الباقية:

وهي الأفعال التي تكون في الدنيا ولا تنقطع بانقطاعها ، والبقاء يكون على نوعين هما:

أولاً: بقاء موجب:

[729] آل عمران 140 .

[730] الشمس 7-8.

[731] الشورى 20.

[732] المؤمنون 8-11.

وهو ما كان بقاؤه مستمراً حتى بعد زوال الحياة على وجه الأرض إلى وقت الحساب ويكون بقاؤه في صالح الفاعل لا عليه ومن ذلك أفعال كثيرة وهي الأفعال الحسان التي تأتي وفق إرادة الله عز وجل فهو لا يتقبل إلا الفعل الحسن ومن هذه الأفعال:

- الانتهاء على الحق: حيث تكون نهاية الإنسان على أفعال حق لمرضاة الحق مثل قول شهادة الحق وعدم كتمها، فالشهادة بأن لا إله إلا الله هي فعل حق فهي تتعدى كونها لفظاً ينطق به اللسان إلى مجموعة أفعال تتجسد فيها التوحيد لله تعالى منها عبادته واحداً أحداً، وطاعة أمره تعالى، والعمل على طلب رضاه وذلك لتحقيق أمر الله كما في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }733 الذي تحقق بفعله تعالى (كن) فهذه الأفعال آثارها ونتائجها باقية حتى بعد انتهاء فاعل الفعل(الإنسان)، قال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}734 ، وقوله تعالى أيضاً : {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا}735، وكذلك الصلاة فعل من الأفعال الباقية بقاءً موجباً للإنسان وكذلك الصوم وباقي العبادات ما هي إلا أفعال في الدنيا تبقى بقاءً موجباً لصالح الفاعل بعد انتهاء وزوال الحياة، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا }736.

وبالعموم كل الأفعال التي أُريد بها وجه الله كذلك الدعاء كما في قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا }737 هي من الأفعال الباقية بقاءً موجباً لصالح الإنسان ، إذ أن عمله الخيّر في الدنيا يتضاعف يوم الحساب

[733] البقرة 30.
[734] الكهف 46.
[735] مريم 76.
[736] الكهف 107- 108.
[737] الكهف 28.

كالصدقات وغيرها مما يكون له مردود إيجابي على صاحبه لقوله تعالى: { إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ }738.

ثانياً: بقاء سالب:

وهي الأفعال التي يكون بقاؤها مستمرٌ بعد فناء الفاعل بالموت إذا لم يكن سبق ذلك فعل آخر يمحوه وهو التوبة والندم على الفعل السالب الذي قام به، فيكون فعل توبته يستحق مغفرة الغفور الكريم ومن هذه الأفعال:

الشرك بالله عز وجل وعبادة سواه مما لا ينفع ولا يضر فهذا فعل باق من فاعل قد ينتهي وهو على هذا الفعل ، فلا ينتهي هذا الفعل بانتهاء فاعله بل يبقى إثمه عليه إلى يوم الحساب فيترتب عليه نتيجة هذا الفعل أفعال أخرى لا تكون في صالح فاعله من خلود في النار، قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}739 .

والأفعال التي تخالف أوامر الله تعالى والتي لا يراد بها وجهه تعالى كلها أفعال باقية بقاءاً سالباً في غير صالح فاعل الفعل فأثرها لا ينتهي بانتهاء الفعل والفاعل بل يستمر أثره عليه وحده إلي يوم الخلود فيكون بقاؤه عليه سالباً .

ولهذا فإن كل أفعال الدنيا بنوعيها الموجب والسالب، والتي تحتاج إلى استعداد مسبق من أجل فعلها تكون هي بحد ذاتها استعداد لأفعال أخرى ستفعل في الحياة الآخرة.

المترتبات على الفعل

إن وقوع الفعل يعكس نهاية ما أراد تحقيقه الفكر الإنساني، ذلك أن الإنسان بصفة عامة منذ أن خلقه الله تعالى يسير وفق معايير ومرجعيات مختلفة توجهه وترسم له الصورة النهائية التي يجب أن يكون عليها، حتى يتحقق ولاءه المعرفي والعقدي، وقبل الدخول في ما يترتب

---

738 الحديد 18.

739 النساء 115- 116.

عليه وقوع الفعل لابد أن ندخل في تشكيلات الفكر الإنساني عامة بوصفها نقطة الارتكاز التي تنطلق من خلالها كل الأفعال، فالإنسان عامة يتحرك في الحياة ضمن سياق يتهيأ له، ولفظة (يتهيأ) تدل على كل المصادر التي تكون سببا في الأفعال التي يقوم بها الإنسان، وهذا الأمر بطبيعة الحال ينتج أفعالا مختلفة تشير إلى مصادرها، فالصورة الإنسانية فيها من الأفعال ما يمكن أن نحصره ضمن اتجاهين:

الاتجاه الأول: هو اتجاه دنيوي خالص فيه يشترك كل الناس.

الاتجاه الثاني: هو اتجاه أخروي خاص بأهل المعتقدات والديانات الذين يؤمنون بوجود حياة أخرى يتحقق فيها ما آمنوا فيه، إلا أن الاتجاه الدنيوي يتشكل مع الاتجاه الأخروي وذلك من خلال أن الأفعال كلها تتماشى مع المعتقدات والديانات التي يؤمن بها الناس جميعا، وهذا شيء مشترك بين الاتجاهين، وهو أن الأفعال المتحققة يراد منها استعداد لليوم الآخر المتحقق وقوعه ضمن دائرة الإيمان التي يؤمن بها الإنسان، من ذلك مثلا أن مقياس الإيمان تحدد في الدين الإسلامي ضمن صورة رسمها رسول الله عليه الصلاة والسلام في قوله: « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»740.

الأفعال الإنسانية عامة لها أمران اثنان، وان اختلفت التسميات التي تتعلق بهما، فالصلاح والفساد من أقدم الثنائيات التي تشكل منها الفعل الإنساني ضمن معايير أخذت من قصة ترسم بداية البشرية، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ

---

740 - صحيح مسلم ج 1 ص 46.

مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِيءتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}741 ومن هذه القصة بدأت البشرية تسيّر أفعالها وفق معطيات مختلفة مما ترتب على هذه الأفعال نتائج مختلفة، ومن هذه النتائج:

الكسب: هو المفضي إلى اجتلاب نفع أو دفع ضرر، ولا يوصف فعل الله بأنه كسب، لكونه منزهاً عن جلب نفع أو دفع ضرر742. فبداية البشرية تشكل معها الكسب ضمن تجليات الحياة وما فيها من صعوبة وتعب من اجل الحصول على لقمة العيش التي لا تتحقق إلا بعد جهد جهيد ، ويستمر هذا الأمر إلى أن تتحقق النهاية المرتقبة للحياة. والكسب في الدنيا لا يكون إلا ضمن حرية يتحقق من خلالها صورة النفع المرادة للإنسان، فقد أعطى الله تعالى للمسلم حرية الكسب والإنفاق في حدود ما شرع له، فأمره أن يعمل ويكتسب لكي يكفي نفسه وأسرته ، ولكي ينفق في وجوه البر والإحسان، وفي الوقت نفسه حرم الله عليه المكاسب المحرمة مثل الربا والقمار والرشوة والسرقة وأجرة الكهانة والسحر والزنا واللواط ، وحرم الله أثمان المحرمات كثمن صور ذوات الأرواح، والخمر والخنزير وآلات اللهو المحرمة ، والأجرة على الغناء والرقص ، وكما أن الكسب من هذه المصادر محرم فكذلك الإنفاق فيها محرم ، فلا يصح للمسلم أن ينفق شيئا إلا في وجه مشروع ، وهذا أعلى مقامات النصح والهداية والإصلاح للإنسان في كسبه وإنفاقه، لكي يعيش غنيًّا بالكسب الحلال سعيدا743.

ومن صور الكسب:

أ- الفوز: وهو النَّجاءُ والظَّفَرُ بالأُمْنِيَّة والخيرِ744، الفوز صورة من الصور التي تعبر عن تحقق الأفعال، وهذه اللفظة نجدها في الأمور المهمة التي يراد لها أن تتحقق وفق معايير خاصة لا تتحقق في غيرها، حتى أنها وردت في النص القرآني في مواضع مهمة تغير حال

741 - البقرة 30 – 37.
742 - التعريفات ج 1 ص 59.
743 - دين الحق ج 1 ص 116.
744 - لسان العرب ج 5 ص 392.

الإنسان من حال إلى حال جديدة تتسم بالفوز فعلا، إذ يقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}745 فقوله تعالى: (فَقَدْ فَازَ) فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. هذه صورة الفوز المتحققة في الآخرة أما في الدنيا فالفوز عام في كل ما يطمح إليه الإنسان من عمل و امرأة ومال وهو تحقق دنيوي يكسب النفس ثقة بأنها فازت بما أرادت.

ب – المحبة والمودة: جعل الله تبارك وتعالى الخلق أجمع ضمن سلسلة مرتبة من العلاقات التي تربطهم جميعا، وبما يضمن بقاء التواصل بينهم، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}746 بين الله تبارك وتعالى في هذه الآية أن الخلق كلهم من أصل واحد يرجعون إلى أدم وحواء ومن أدم وحواء خلق خلقا كثيرا ، فبث منهما رجالا ونساء فلم يستقل كل واحد بنفسه بل فرقهم الله تبارك وتعالى وجعلهم شعوبا وقبائل وذلك ليتعارفوا، وهذا التعارف ترتب عليه كثير من الأمور منها الدفاع المشترك ضد أي عدوان خارجي، فضلا عن ذلك التعاون الداخلي فيما بينهم في كل الأمور، هذا يمثل الإطار العام للتعاون أي في حدوده الواسعة، أما الإطار الخاص فهو الأسرة الواحدة وخاصة بين الأزواج، فهي من أقوى الروابط واشملها وأكثرها تأثيرا، والود محبة الشيء وتمنيه قال تعالى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}747 هذه آية فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام وهو نظام الازدواج وكينونة العائلة وأساس التناسل، وهو نظام عجيب جعله الله مرتكزاً في الجبلة لا يشذ عنه إلا الشاذ. جعل الباري عز وجل التزاوج أنسا بين الزوجين فربط بينهما بالمودة والرحمة وهي نعمة من نعم الله تبارك وتعالى على البشر. بل أن الله تبارك وتعالى جعل المودة هبة من الهبات التي يرأف بها عباده يوم

745 - أل عمران 185.
746 - الحجرات 13.
747 - الروم 21.

القيامة، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}748 في إشارة إلى تجمع المؤمنين يوم القيامة وطبيعة العلاقة التي تربطهم بالرءوف الرحيم ، فهي مبنية على المودة، فضلا عن ذلك يجعل بين أنفسهم مودة، إذ يقول تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}749، وفعل المودة يقتضي المحبة المجردة من كل غرض دنيوي، ولهذا ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى:{ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ}750 فعمل الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته وجهاده لا ينتظر منه أجرا من الناس ،إنما هي علاقات الود مع أهله وأصحابه، وقد وصف ذاته تعالى بالود في قوله: { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}751، وقوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}752، فمودة الله جل وعلا لعباده مراعاته لهم.

ولا يقتصر فعل المودة على الأزواج فقط وإنما يتفرع إلى فروع عدة تتمثل بباقي العلاقات الاجتماعية منها العلاقة مع بقية الخلق الذين تربطهم بنا صلة الدم أو عدمها.

ج – النجاح: هو الظفر وإدراك الغاية ، لكن هذه الغاية قد لا تتحقق من أول مرة مما يترتب على ذلك تكرار المحاولة أكثر من مرة حتى يتحقق الهدف، وهنا يمكن أن نطرح سؤالا عن المقولة التي تقول (من جد وجد ومن زرع حصد) هل هي متحققة عند الجميع؟ وهل كل من طبقها وجد وحصد ؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات نسبي، فليس بالضرورة أن يكون بالنفي ولا بالإيجاب ، فليس كل من جد وجد ولا كل من زرع حصد، فكثير من الناس يولدون وفي فمهم ملاعق الذهب، لا يعرفون لا الجد ولا الزرع، وان كانت هذه استثناءات إلا أن التشكل

---

748 - مريم 96.
749 - الأعراف 43.
750 - الشورى 23 .
751 - البروج 14.
752 - هود 90.

العام للبشر يسير وفق تقدير خاص أراده الله تبارك وتعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}753.

2- الخسارة: هذا المحور يفضي إلى أمور عدة منها:

أ – الفشل: الفشل صورة متحققة لكل الأفعال التي يؤديها الإنسان، والتي لم يتحقق فيها المعرفة والتبصر والسؤال والإدراك وحسن الاستعداد، وبذلك يتحقق فعل الفشل نتيجة ما سبق.

ب – الكره: وهو فعل أخلاقي يتحقق عند البشر في حالة وقوع فعل في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع.

ج – الندم: هو غم يصيب الإنسان ويتمنى أن ما وقع منه لم يقع754، ومن أوائل أفعال الندم عند البشرية ندم قابيل بقتل أخيه هابيل، إذ يقول تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}755، فقد ندم قابيل على ما اقترف من قتل أخيه إذْ رأى الغراب يحث التراب على أخيه الميّت، ورأى نفسه يجترئ على قتل أخيه ، وما إسراعه إلى تقليد الغراب في دفن أخيه إلاّ مبدأ النّدامة وحُبِّ الكرامة لأخيه756.

3 – إحياء الأرض: وهو فعل يشترك فيه معظم الناس أكان ذلك بقصد أم بغير قصد، ونقل معظم لان من بني آدم من لم يختر الإصلاح بل اختار الفساد مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ}[757]، ذلك أن طبيعة الحياة البشرية تقتضي الإعمار ، فلا يمكن للحياة أن تسير دون نظام يحددها ويرسم

---

753 - الروم 40.
754 - التعريفات ج 1 ص 79.
755 - المائدة 30 – 31.
756 - التحرير والتنوير ج 4 ص 181.
757 البقرة 205.

ملامحها ، وهذا بدوره يحتاج إلى إعمار الحياة بطريقة تتلاءم مع خدمة الطبيعة البشرية . هذا بالنسبة إلى الجانب المادي، أما الجانب الأخر فهو الجانب الذي يتعلق بإحياء النفس البشرية وبث فيها سبل الخير والإصلاح التي أرادها الله تبارك وتعالى ، ونجد ذلك في كثير من النصوص القرآنية التي تعبر عن هذا المعنى، وذلك وفق سياق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ يقول تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}758 وقوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}759 والأمر والنهي عن المنكر يتشكل ضمن سياق تتابعي رسمه الحديث النبوي ضمن صور متعددة كل صورة تحيل على الأخرى إلى أن تصل إلى نهاية تحدد نهاية المطاف التي يكون عندها النهي عن المنكر، إذ يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ »760.

والجانب المادي يتمثل في فعل الإنسان المتحقق على الأرض في مختلف الجوانب التي تحيل إلى إحياء الأرض وجعلها صالحة للبشر عامة ، من ذلك زراعتها ففيه حياة للخلق أجمعين .

4- إماتة النفس بالأفعال الباطلة: ذلك أن النفس التي خلقها الله تعالى تحيى بالعمل الصالح والرحمة، فضلا عن ذلك أنها تحتاج إلى ضابط أمين يحكم تصرفاتها ويوجه سلوكها، ويتوقف على مدى انضباطها وإحكامها كل ما يصدر عن النفس من كلمات أو حركات، بل حتى الخلجات التي تساور القلب والمشاعر التي تعمل في جنبات النفس، والهواجس التي تمر في الخيال، هذه كلها تتوقف على هذا الجهاز الحساس. فالعقيدة هي دماغ التصرفات، فإذا تعطل جزء منها أحدث فسادا كبيرا في التصرفات، وانفراجا هائلا عن سوي الصراط.

---

[758] - أل عمران 104 .

[759] - أل عمران 110.

[760] - صحيح مسلم ج 1 ص 50.

ولذا فقد عني القرآن الكريم ببناء العقيدة، فلا تكاد تخلو أية سورة –مكية كانت أو مدنية– من شد الإنسان بكليته إلى ربه، وربط كل تصرف بهذه العقيدة التي تمثل القاعدة الأساسية لهذا الدين الذي لا يقوم بدونها، وبخاصة السور المكية التي أفردت لبناء هذه العقيدة، فلقد كانت العقيدة هي الموضوع الوحيد الذي عالجته السور المكية.761

والأفعال الباطلة إذا ما تسربت داخل النفس الإنسانية أكسبتها صفة الموت البطيء الذي يؤدي بها إلى نهاية لا تقف عند حد معين بل تستمر حتى يتحقق الموت للنفس الإنسانية ، وبذلك تنعدم صورة الإصلاح المطلوبة وتحل بدلا عنها صفة الفساد ، وبذلك تكون النفس الإنسانية في عداد الأموات ، فلا يرجى منها أي إعمارا بل يتحقق منها خرابا.

وإيمان المسلم مناط الأمر وسُلّم الروح ومعراج النفس للوصول إلى الأفضل، وفعل المسلم هو في الحقيقة استعدادٌ لفعل آخر انبثاقا من أنوار القرآن الكريم الذي فيه الهدى والنور، فلو كان الأمر عبثا متمثل في أكل ونوم وموت ما أخلص المخلص ولا صدق الصادق ولا أنفق المنفق ولا صام الصائم ولا قام القائم ....، فأفعاله في الحياة يترتب عليها أفعال أخر في الحياة السرمدية التي فيها يجازي الله جل وعلا ثوابا بعمل صالح وعقابا بعمل طالح ، وجنة فيها ما تشتهي الأنفس ، ونار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين الذين لم يتخذوا من العمل الإيماني الدنيوي سبيلا للإصلاح واستعدادا لأفعال في الدنيا وفي الآخرة.

وعليه أتساءل أيترتب على أفعال الدنيا أفعال؟

– نعم يترتب عليها أفعال في:

– الدنيا.

– الآخرة.

– في الدنيا:

من لم يستفد في الدنيا لا شك إنه سيخسر في الآخرة، ولا نقصد بالطبع الكسب المادي ولكن الكسب الإيماني الروحاني، فمثلا المجرم الكاذب، المزور، ،السارق، الذي يستحل

761 - العقيدة وأثرها في بناء الجيل ج1 ص 10.

أموال الناس وأعراضهم وعرقهم وعملهم وجهدهم يمكن أن يكسب بإجرامه أموالا طائلة، وجاه عريض، وعز وفخر، كل ذلك لا محالة سيكون عليه وبال ونقمة في الدنيا والآخرة.

والاستفادة من أعمال الدنيا قياسا على ما يفعل فيها المؤمن الصادق من أفعال تترتب عليها أفعال يستعد بها إلى أفعال هي له نعيم مقيم لانصب فيها ولا وصب.

فالمصلي لو تأمل في أفعال صلاته لوجد أنها أفعال ترتب عليها أفعال:

-الإيمان بالله الذي سيصلي له (فعل)

- العلم بقيمة الصلاة (فعل)

-انتظار مواقيت الصلاة (فعل)

- النية للصلاة (فعل)

-إحضار الماء للوضوء(فعل)

-الوضوء بفرضه وسننه، من غسل الأيدي، ومضمضة، واستنشاق، وغسل الوجه، والأيدي إلى المرفقين، والمسح بالرأس، الأذنين، وغسل الرجلين إلى الكعبين.

فكل فعل من هذه الأفعال يترتب عليه فعل آخر ذو صلة به مع الحفاظ على الترتيب.

- تعلّم النظام من فعل الوضوء (فعل)

-استقبال القبلة (فعل)

- الدخول في الصلاة بهيأتها وأفعالها وما يقال فيها(فعل) يترتب عليه أفعال كذكر الله ثم الاستعداد للصلاة مرة أخرى ، قال الله تعالى:{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}[762]

-قضاء الصلاة (فعل).

-ذكر الله بالأحوال المذكورة (فعل) .

- تنظيم أوقات الصلاة (فعل)

---

[762] النساء: 103

عليه فالصلاة فعل يترتب عليه أفعال: قال الله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}[763].

ويمكن لنا من هذه الآية أن نضع القاعدة والاستثناء على النحو الآتي:

القاعدة:

- الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.
- الصلاة تأمر بالخير والمعروف.
- الصلاة ذكر لله.
- الله يعلم ما يصنعه الإنسان فيترتب على ذلك:
- مراقبة الله في السر والعلن.
- تجويد العمل وإتقانه.
- العمل لما يرضي الله وبما يرضيه بما أمر وعمّا نهى.

الاستثناء

- الصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر.
- الصلاة لا تأمر بالخير والمعروف.
- الصلاة لا ذكر فيها لله.

والله يعلم ما يصنعه الإنسان فيجب على الإنسان المؤمن أن يعلم أن أفعاله يترتب عليها مترتب في الدنيا وذلك بعلاقاته مع الآخر، وفي الآخر في يقين معادلة الثواب والعقاب، لذلك عليه أن يفعل الآتي:

- يراقب الله في السر والعلن.
- يجود العمل ويتقنه.
- يعمل بما يرضي الله وبما يرضيه بما أمر وعمّا نهى.

[763] العنكبوت 45

ومن أراد أن يحصي أوامرها ونواهيها سيجد أنها تغطي جميع مناحي الحياة الدنيا.

إذا الصلاة يترتب عليها أفعال ومن لم يستفد منها فليس له منها نصيب، قال الحبيب صلى الله عليه وسلم: "مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلا بُعْدًا"764،و سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له"765

وعليه يكون كل فعل استعدادا لفعل من جنسه:

فبعمل الخير يكون الخير الأكبر(الجنة) وما فيها من أفعال غير تكليفية.

و(النار) وما فيها من أفعال (على) وليس (من) وكلا بما قدمت الأيدي الطائعة أو الآثمة من أفعال.

و سواء أكان الفعل بسيطا أم جسيما فالله لا يظلم صاحبه مثقال ذرة وسيترتب عليه عند الله أفعال به قال الله تعالى:{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}766 فأي عمل صغير أو كبير هو استعداد لما يترتب عليه من أفعال من جنس فعله.

والعاقل الذي وضع نفسه في مرتبة (أحسن تقويم) يعلم أن الله سيجازي على الفعل بفعل ولو كان مثقال ذرة يقاس به، وحين تجمع الأفعال بذرّاتها يكون لها مثقال فإذا زادت أعماله الصالحة كان ثوابه من جنس عمله، ومن كانت أعماله فاسدة كان عقابه من جنس عمله قال الله تعالى:{ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ}767

وهنا نلاحظ ما سبق أن قدمنا له:

- فعل الدنيا يترتب عليه فعل في الآخرة لكن دون تكليف.
- في الآخرة عيشة راضية، ولا عيشة إلا بأفعال مترتبة على أفعال.
- المؤمن تصدر أفعال منه و له .

---

764 **المعجم الكبير للطبراني - (ج 9 / ص 268)**

765 **تفسير ابن أبي حاتم - (ج 53 / ص 423)**

766 الزلزلة 7-8

767 القارعة-6:11

– الكافر أفعال عليه.

قال الله تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ}768

فبعمل الإنسان في الدنيا:

– (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فالأكل والشرب أفعال بأفعال في الدنيا، فهما مترتبات على عمل الدنيا .

–(مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَة) مع شظف العيش في الدنيا وقسوةِ الحياة كان لابد من عوض ينسي ألم الحرمان فكان ثوابا من الله في صورة تقريبية لما في الجنة من سرر مصفوفة.

– (وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ). زواج بفعل فيه من النعيم ما يذهب أثر أي ألم.

– إحاق الذرية الصالحة إلى الدرجات التي فيها الآباء.

– الإمداد بالفواكه التي تناسب الجنة.

– أنواع من النعيم المقيم على صورة تمثيلية متعددة (غلمان حسان وكأس شهية ونجاة من النار)

فالآخرة فيها أفعال ترتبت على أفعال الدنيا ولكنها أفعال إباحة ومنة لا أفعال تكليف واختبار فالأمر في (كلوا واشربوا) أمر امتنان وإباحة لا أمر تكليف ضرورة أن الآخرة ليست بدار تكليف وجمع بين الأكل والشرب لان احدهما شقيق الآخر فلا ينفك عنه كلوا من طعام الجنة وثمارها واشربوا من شرابها مطلقا (هنيئا) أكلا وشربا هنيئا أي سائغا لا تنغيص فيه فى الحلقوم.

768 الطور19-28

(بما أسلفتم) بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة أو بدله أو بسببه ومعنى الإسلاف فى اللغة تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير فهو كالإقراض ومنه يقال أسلف فى كذا إذا قدم فيه ماله (فى الأيام الخالية) أي الماضية فى الدنيا وعن مجاهد أيام الصيام فيكون المعنى كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله فى أيام الصيام لا سيما فى الأيام الحارة وهو الأولى لان الجزاء لا بد وأن يكون من جنس العمل وملائما له769.

وقوله: (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأيَّامِ الْخَالِيَةِ) يقول لهم ربهم جل ثناؤه: كلوا معشر من رضيت عنه، فأدخلته جنتي من ثمارها، وطيب ما فيها من الأطعمة، واشربوا من أشْرِبتها، هَنِيئا لَكُمْ لا تتأذون بما تأكلون، ولا بما تشربون، ولا تحتاجون من أكل ذلك إلى غائط ولا بول، (بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأيَّامِ الْخَالِيَةِ) يقول: كلوا واشربوا هنيئا: جزاء من الله لكم، وثوابا بما أسلفتم، أو على ما أسلفتم770.

ومن أفعال الآخرة المترتبة على أفعال الدنيا ما ذكره الله تعالى في قوله:

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}771

أفعال الدنيا:

(إن المتقين) الذين اتقوا ربهم فآمنوا به وأطاعوه بفعل ما يحب وترك ما يكره.

أفعال الآخرة:

- (في ظلال): في ظلال الأشجار الوارفة.
- (وعيون) : من ماء ولبن وخمر وعسل .
- (مما يشتهون): لا مما يجدون كما هي الحال في الدنيا .
- (إنا كذلك نجزي المحسنين): كما جزينا المتقين نجزي المحسنين.
- (كلوا وتمتعوا): في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة.

---

769 تفسير حقي ص454

770 **تفسير الطبري - (ج 23 / ص 586)**

771 المرسلات 41-43

ذكر تعالى ما للمتقين من نعيم مقيم بعد ذكر ما للمكذبين الضالين من عذاب الجحيم فقال تعالى (إن المتقين) وهم الذين اجتنبوا الشركَ والمعاصيَ (في ظلال وعيون) في ظلال أشجار الجنة وعيونها من ماء ولبن وخمر وعسل وفواكه كثيرة منوعة مما يشتهون على خلاف الدنيا إذ الناس يأكلون مما يجدون فلوا اشتهوا شيئا ولم يجدوه ما أكلوه وأما دار النعيم فإن المرء ما اشتهى شيئا إلا وجده وأكله وهذا هو السر في التعبير في غير موضع بكلمة مما يشتهون. ومن إتمام النعيم أن يقال لهم تطييبا لخواطرهم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون من الصالحات وتتركون من السيئات .

ومن أفعال الآخرة المترتبة على أفعال الدنيا قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}772

وهذه الأفعال تتمثل في الآتي:

- إن للذين يتقون ربهم نجاة من العذاب وظفراً بالجنة .
- حدائق مثمرة وأعنابا طيبة .
- وعذارى نواهد مُتَماثلات فى السن .
- وكأساً ممتلئة صافية .
- لا يسمعون فى الجنة لغواً من القول ولا كذاباً .
- جزاء عظيماً من ربك ، تفضلاً منه وإحساناً كافياً .
- رب السموات والأرض وما بينهما ، الذي وسعت رحمته كل شيء لا يملك أحد حق من مخاطبته .

---

772 النبأ31-39

– يوم يقوم جبريل والملائكة مصطفّين خاشعين . لا يتكلم أحد منهم إلا من أذِن لـه الرحمن بالكلام ، ونطق بالصواب .

وعليه فكل فعل هو استعداد لفعل وهي دائرة متصلة حياة فيها أعمال بتكليف ثم تليه حياة فيها أعمال بتشريف. لذا فالقاعدة أن يكون الفعل مولد مستمر والاستثناء هو أن يكون الفعل مولد منقطع بمعنى أن الفعل يولد ثم فعل لكنه ينقطع في نقطة يحددها الخالق عز وجل كفعل الموت الذي يولد فعل البعث بأمر الله ثم النشور ثم العرض ثم الحساب لكنه ينتهي بأمر الله في ساعة حددها هو هي ساعة لمن الملك اليوم، {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[773].

وكذلك هناك أفعال تنتهي نذكر منها:

. ذنوب يغفرها الله لعباده، {قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[774].

. حسنات ذهبت حسرات، {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}[775] .

. منغصات المؤمن تنتهي في الآخرة، {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}[776].

. منفسات الكافر، {فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}[777].

---

[773] غافر 16.
[774] يوسف 92.
[775] البقرة 167.
[776] فاطر 35.
[777] الزخرف 83.